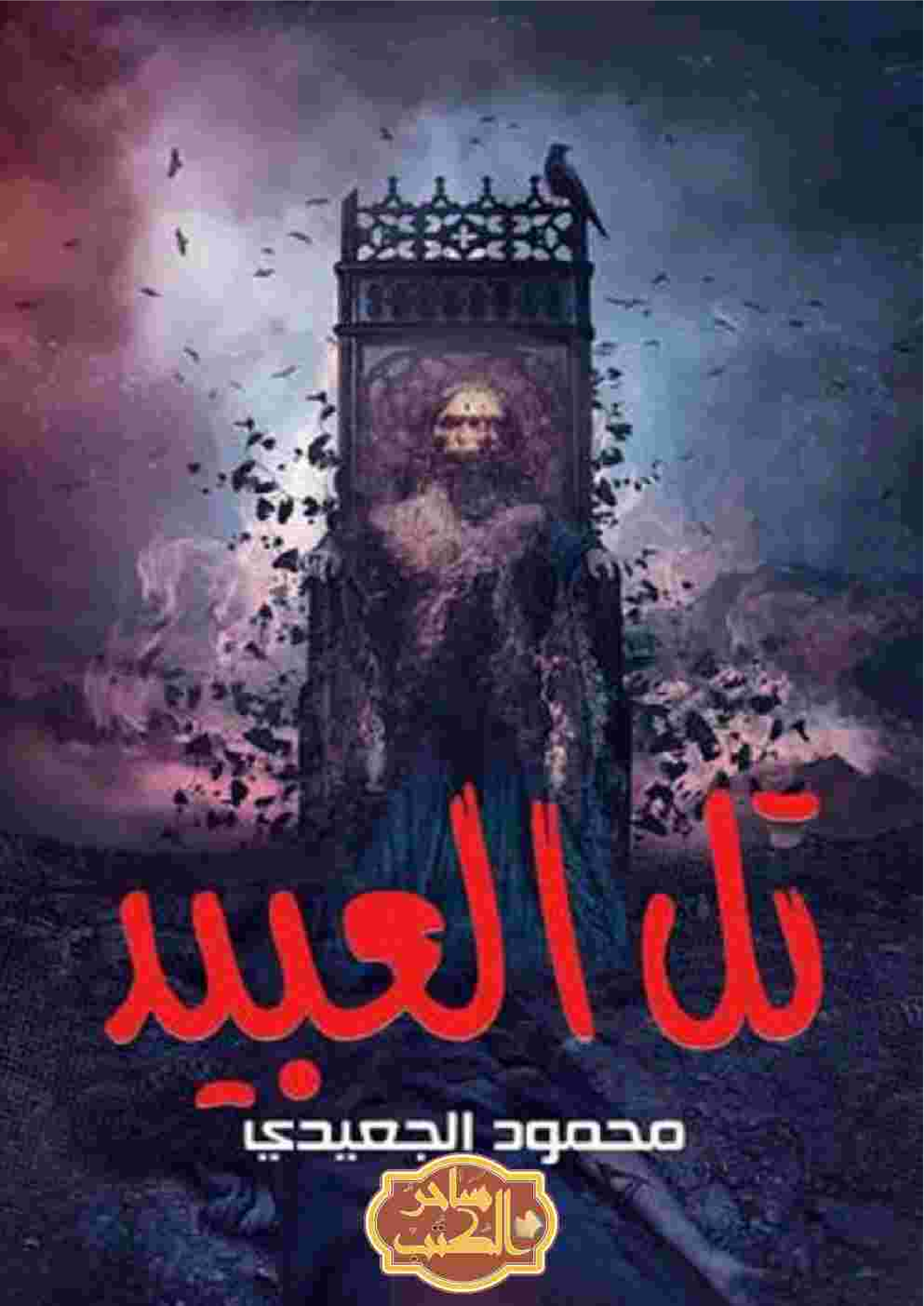

تل العبيد
محمود الجعيدي

انظر لقد شيد الموت لنفسه عرشًا..

في مدينةٍ غريبةٍ منفردة بعيدة في ثنايا الغرب المعتم..

حيث ولى الخير والشرير والمحسن والمسيء..

كلٌّ إلى مثواه الأبدي.

(إدجار ألان بو)

يقال أن

(سليمان بن داوود)

أخـذ ثمانيـة عهـود

غليظـة على الجن، لكن بعد

موته قامت بإخفاء العهد الثامن،

فأصبحت سبعة عهود.. العهد

رقم ثمانية والذي أخفاه الجن هو

(عدم مس الجن لأي أحدٍ من البشر)

ومن هنا تبدأ قصتنا...

***

(١)

كانت الشمس تجنح للمغيب فوق تلك القرية ذات الشوارع الملتوية التي تشبه أذرع أخطبوطٍ عملاق، حين تعالى صياح مجموعه من الأطفال المشردين يلعبون الكرة، قبل أن يقوم أحدهم بركل الكرة في الهواء، لترتطم بوجه امرأةٍ شابه تعبر الطريق، فومضت عيناها للحظةٍ وشعرت بألمٍ هائل..

صرخت بغضبٍ وحاولت الإمساك بالطفل الذي قفز من أمامها كالقرد، ثم اختفى في لحظة.. فكرت أن تهرول خلفه لكن وجدت أنها ستهين نفسها، فمضت في طريقها وهي تلعن الطفل، وزوجها الذي يجلس في المنزل بلا عمل، وحماتها التي تعايرها لأنها أنجبت بنتًا، وجارتها التي تسببت في نفوق الأرانب التي تقوم بتربيتهم حين نظرت لهم ولم تصلي على النبي.

سارت لمدة ربع ساعة تخطت خلالها بضع شوارع قبل أن تمر أمام ناصية منزل مبني بالطوب الأحمر، يعلو سطحه لافتة كبيرة ترجو سيادة الرئيس بالترشح لفترةٍ رئاسيةٍ جديدة..

على ناصية هذا المنزل، وبالصدفة اصطدمت بالطفل الذي ركل الكره في وجهها وهو يجري.. كادت أن تسقط على الأرض لكنها استندت بإحدى ذراعيها على جدّار المنزل، وباليد الأخرى أمسكت الطفل:

- نهار أبوك اسود.

حاول الطفل أن يتملص منها لكنها كانت تقبض عليه بيدٍ من

حديد..

صفعته على مؤخرته ثلاث صفعات قوية تليق به، وقضمت كتفه كأنها آكلة لحوم بشر.. تدخل بعض المارة وبصعوبةٍ بالغة أقنعوها أن تسامحه وتتركه، بعدما أصبح يهذي ويتخيل أن هناك من أطفأ نور الشمس بسبب قوة الضرب.

داخل المنزل الذي تعلوه اللافتة والذي دار أمامه هذا الموقف، كانت هناك مشاجرة حامية الوطيس تدور بين الزوجين (رضوان) و (بديعة).. مشاجرة لم يهتم بها أحد من الجيران كالعادة، ولم يحاول شخص ابن حلال كما يقال أن يصلح بينهما.. الجيران تعودوا على مثل تلك المشاجرات الزوجية العنيفة.. ربما لو حدث ذات يوم وتوقفا عن الشجار لاعتقد الجميع أن هناك شيئًا ما خطأ.. طالما أنهما مستمران في الشجار، فهذا يعني أن كل شيءٍ يسير على ما يرام، هذا طبعًا إذا ما تغاضينا عن ظهور كدمات في وجه (رضوان) وبقع زرقاء في عين (بديعة) عقب كل مشاجرة.

(رضوان) كان ضخمًا طويل القامة، أسمر البشرة، بينما (بديعة) جثة مصنوعة من اللحم الأبيض والأرداف العريضة واللسان الطويل.. كان (رضوان) بخيلًا جدًا، وجاهلًا بمعنى أنه لا يستطيع أن يفك الخط، وبالكاد يمكنه تمييز بعض الأرقام..

في الأصل كان يعمل (كلافًا)(*).. ثم بين ليلةٍ وضحاها اشترى ثلاثة أفدنه وبنى فوقهم دارًا كبيرة وحظيرة بهائم.. كان منفصلًا تمامًا عن العالم الحديث، يكتفي فقط بالذهاب إلى الحقل صباحًا، ثم العودة وتناول الغداء والاستلقاء بقية اليوم في (المندرة) يستمع إلى الراديو ومحطة الشباب والرياضة، كان مغرمًا إلى حدٍّ

كبير بكرة القدم.. لم يكن يهوى مشاهدة التلفاز.. كما كان يحب الاستماع لتحليل المباريات وأخبار اللاعبين، هو لا يستطيع أن يجيبك عن سؤالٍ بسيط مثل: في أي عامٍ نحن؟ لكنه وعلى سبيل المثال قادر على إخبارك ما هو سعر بيع (كريستيانو رونالدو) وكيف أنه الأحق بكونه أفضل لاعب في العالم، ويخبرك أيضًا بعدد الأهداف التي أحرزها.

(بديعة) كانت على العكس منه، كانت امرأة متعلمة نالت الشهادة الابتدائية وذهبت إلى كُتاب الشيخ (عبد السميع) وحفظت جزء (عمَّ) كاملًا، ولولا ضيق الحال لقطعت في التعليم شوطًا كبيرًا، وربما نالت الإعدادية مثل ابنة عمها التي تعمل لدى مكتب محاماة وتقوم بكتابة التظلمات..

كانت (بديعة) وبلا فخر تستطيع قراءة جريدة كاملة، وتعدد لك قنوات التلفزيون قناة قناة، ثم تخبرك بمواعيد المسلسل العربي والتركي والهندي والياباني.. أحيانًا حين تجلس مع نفسها، تتحسر على زواجها من هذا الثور الذي يذيقها العذاب نهارًا ثم يمتطيها ليلًا على الوجه الأبشع.

كانت ثمرة هذا الزواج الغريب.. (وفاء).. طفلة ضئيلة الحجم، ورثت سمار والدها وقصر قامة والدتها.. (وفاء) تبلغ الآن السابعة من العمر.. نجحت في الصف الأول الابتدائي منذ أيامٍ قليلة، وجعلت والدها يقوم بدفع خمسين جنيهًا في مقابل علبة ألوانٍ جديدة، كان قد وعد أن يشتريها لها في حالة النجاح.

لم ينتبه أحد إلى (وفاء) حين خرجت من المنزل وسارت في أزقة البلدة وهي تحمل ألوانها وكراسة الرسم حتى وصلت إلى

منطقة أرضٍ زراعية.. مسحت المكان بعينيها، اعتادت أن تأتي إلى هنا لتلعب، على مقربة منها تقافزت بعض الفراشات الملونة، هرولت خلفها داخل العيدان الخضراء، وأمسكت إحداها وهي تشعر بسعادةٍ هائلة.. دون أن تدري قادتها قدماها إلى شجرة (جميز) كبيرة، بجوارها طاحونة مهجورة تشبه البرج، ومزخرفة بطريقة طوبة حمراء وأخرى سوداء.. منذ أعوامٍ طويلة كان لتلك الطاحونة شأن عظيم، وكانت تعمل بشكلٍ يوميٍّ منذ أعوامٍ طويلة ويقف أمامها الفلاحون في طوابير من أجل طحن الغلال والحبوب، بطفوليةٍ شديدة تقدمت (وفاء) تجاه الطاحونة وهي تردد أحد أناشيد المدرسة:

العصفورة جمعت القش.. قشه وقشه بنت العش

عشها عالي عند الشجرة.. يعلو يعلو عند القمرة

توقفت عند باب الطاحونة، لتتقافز أمامها الفراشات من جديد وتحيط بها فيما يشبه الدائرة.. من وراء باب الطاحونة، خرج صوتٌ خشن مبحوح:

- وفاااااء.

أجفلت في مكانها واستعدت للهروب، عاد الصوت يقول:

- ماما وبابا لسه بيتخانقوا؟

هزت رأسها:

- أيوه.

تحرك الباب قليلًا مصدرًا طنينًا مخيفًا:

- ادخلي.

تجمدت في مكانها.. لم تكن تدري ماذا تفعل.. عقلها الصغير يحاول أن يصل لقرار، الصوت يقول بملل:

- بسرعة قبل ما أكل غزل البنات كله.

تمتمت:

- انت معاك غزل بنات؟

غمغم:

- أيوه جميل ولونه وردي.. أنتي بتحبي اللون الوردي، صح؟

لم ترد (وفاء) مباشرة، قالت بعد برهة:

- لا، الأبلة في المدرسة بتقول إن فيه ألوان صناعية.

همت بالرحيل لكن الصوت عاد يقول بسرعة:

- غزل البنات الأبيض موجود.. أبيض وجميل.

التفتت (وفاء) من جديد وحاولت أن تنظر إلى ما بالداخل.. رأت ما يشبه عينين صغيرتين، هتفت ببراءة:

- أنت مش بتخرج ليه؟ حد حبسك؟

ضحك الصوت:

- لا طبعًا.. أنا هنا لوحدي.

فكرت (وفاء) أن الشخص الموجود بالداخل مسكين ويحتاج إلى العطف، عاد الصوت يقول:

- وفاء هتيجي.. أنا هقفل الباب حالًا.

صاحت وهي تسرع الخطى للداخل:

- لا.. لا.. أنا جايه.

ولم تكد تعبر حتى أغلق الباب من خلفها في دويٍّ مزعج، وتصاعد من حولها بعض الغبار في الهواء.. التفتت حول نفسها في قلق تبحث عن الشخص الذي كان يتحدث معها..

لا أثر له..

في أعلى السقف الذي يشبه القرطاس، كانت توجد أعشاش بوم كثيرة.. كما كانت توجد أيضًا نافذة صغيرة يتسلل منها الضوء على استحياءٍ شديد.

سارت (وفاء) حتى وصلت إلى حجر الطاحونة الضخم الذي يستخدم لطحن الغلال.. تحسست ملمس الحجر الهائل.. كان خشنًا وباردًا جدًّا.

من ركنٍ مظلمٍ، خرج الصوت يقول:

- تعرفي أن الطاحونة دي عشان تشتغل رموا فيها بنت صغيرة في نفس سنك.

سحبت (وفاء) يدها من فوق الحجر بحركةٍ حادة حينما عاد الصوت يقول:

- زمان كان في راجل طيب.. ورث قيراطين طين من أبوه.. باعهم عشان يبني الطاحونة.. دي كانت أول طاحونة في البلد.. وهو فكر أنها هتجيب له فلوس كتير، لكن الأهالي مكنوش متعودين عليها وكانوا بيطحنوا في البيوت.. صاحب الطاحونة كان بيجي كل يوم يفتح الطاحونة، ويفضل قاعد قدامها لا حول له ولا قوة، ويتحسر على أرضه اللي باعها.. وفي يوم واحدة ست معدية اقترحت عليه يرمي بنت صغيرة في الطاحونة، وقالت له إن لما دم البنت يغسل حجر الطاحونة، الرزق بتاعه هيكتر.. بعد كام يوم الأهالي بدأوا يقفوا قدام الطاحونة بالطوابير.. محدش عارف هو عمل كدا ولا لا.. بس خلال الوقت ده في بنت اختفت ومحدش لقاها خالص.. طبعًا دي مش قصة حقيقية.. دي تخاريف.. أوعي تكوني بتصدقي في التخاريف.

- يعني إيه تخاريف؟

- دي حاجة زي الحواديت.. أكيد بتحبي الحواديت.. مضبوط؟

- بحبها أيوه.

قال الصوت:

- بتحبي حدوتة مين؟ أنا عندي حواديت كتير.. عقلة الإصبع.. ست الحسن والجمال.. أعرف كمان حدوتة الغووووولة.

- الغولة؟!

- آه دي حدوتة جميلة.. ماما محكتهاش ليك؟

- لا.. ماما مش بتحكي ليا حواديت خالص.

- الغولة دي واحدة ست بتأكل البنات الصغيرين اللي زيك.

تراجعت (وفاء) بظهرها حتى وصلت إلى الباب، وهي تقول:

- أنت تعرف الغولة؟

قال الصوت بسخريةٍ واضحة:

- أعرفها.. لا طبعًا.. أنا بخاف منها.. أنا بخاف من كل حاجة.. بخاف حتى من الضلمة.

ولم يكد ينطق كلمة (الضلمة) حتى غرقت الطاحونة كلها في ظلامٍ دامس كأنها كانت كلمة سر.

تجمدت (وفاء) في مكانها وارتفعت ضربات قلبها بشدة مع ضحكةٍ خبيثة انطلقت من كل مكان..

فجأة يد من حديد قبضت على كتفها.. شعرت بالألم الذي تحول بسرعةٍ لنبضات متقطعة، انتقلت إلى قلبها وكاد أن يتوقف من الخوف.. ضرب نور مصباح قوي في عينيها، كان أشبه بشمسٍ صغيرة.. استطاعت أن تميز يدًا معروقة تقبض عليه بإحكامٍ شديد، من وراء المصباح لمحت وجهًا ذا ابتسامة شريرة وأسنان منخوره.. غمغمت (وفاء) بخوفٍ وهي تتراجع بظهرها وتحتضن ألوانها وكراستها:

- أنا.. أنا خايفة.. عاوزة ارجع البيت.

تحرك الوجه يمينًا ويسارًا بمعني (لا).

ابتلعت (وفاء) ريقها بصعوبة، ثم استدارت نحو الباب وحاولت أن تفتحه.. كانت يدها تهز مقبضه بلا فائدة.. ازداد لديها الشعور بالخوف والفزع، كانت ترتعش وتصدر حركات عصبية غير ذات معني.. من فوق كتفها ودون أن تشعر ظهرت يد تمتلئ بالشعر الأسود والمخالب، وراحت تتسلل بصمتٍ مميت نحو عنقها..

لسببٍ ما التفتت (وفاء) إلى الخلف..

لا وجود لتلك اليد البشعة.. هناك فقط تلك اليد التي تمسك المصباح..

قالت (وفاء) ببراءة:

- الباب مش بيتفتح.

ظهرت يد أخرى وسحبت مقبض الباب فتحرك بهدوء، قال الصوت:

- محتاجة تكوني أقوى من كدا.

تنقلت (وفاء) ببصرها بين المصباح والممر الطويل المرعب الذي ظهر وراء الباب.. لم يكن هناك وجود للطريق الزراعي الذي جاءت منه.

عاد الصوت يقول:

- يلا.. روحي.

في يأسٍ تقدمت (وفاء).. تجاوزت حافة الباب دون أن تنظر مرة أخرى إلى الوراء..

اشتمت رائحة رطوبة وغبار، وأشياء عفنة..

قلبها يخفق في صدرها وهي تفكر.. ما العمل الآن؟.. هل تعود للداخل أم تغامر وتكمل؟

لم تستمر حيرتها كثيرًا، فقد أغلق الباب من ورائها وأصبحت سجينة هذا الممر..

دون أن تشعر سقطت منها الألوان وكراسة الرسم..

الإضاءة لم تكن جيدة حتى تستطيع تمييز ما حولها.. فقط كل تفكيرها هو كيف تخرج..

في تلك اللحظة جالت بخاطرها العشرات من الأفكار المرعبة.. تتخيل مئات من الوحوش والشياطين الذين يريدون التهامها.. الغريب أنه لم يحدث شيءٌ سيئ، لقد ظهر باب في نهاية الممر، ومن ورائه كان يوجد الطريق الذي جاءت منه، ارتخت أعصابها بعض الشيء، ثم اندفعت بأقصى ما لديها من سرعةٍ نحو هذا الباب..

كانت تشعر أن هناك أحدًا خلفها..

حانت منها التفاتة سريعة إلى الوراء..

لا أحد..

اطمأنت..

اقتربت من الباب..

استعدت للخروج..

ثم تذكرت الألوان والكراسة..

عادت تلتفت إلى الوراء.. إنها هناك ملقاة على مسافةٍ ليست بالبعيدة..

فكرت..

عادت للداخل من جديد..

قلبها يدق بشدة..

وصلت إلى الألوان والكراسة ثم حملتهم من فوق الأرض..

نظرت إلى الظلام الذي يأتي من الناحية الأخرى..

سمعت همسًا كالفحيح..

بسرعةٍ عادت تجري باتجاه باب الخروج..

ومثل المرة السابقة راودها هذا الإحساس المخيف، أن هناك أحدًا خلفها، فالتفتت لكنها لم تجد شيئًا..

وصلت إلى الباب، واستشعرت الهواء البارد المعبق برائحة الزرع الذي يأتي من خلاله..

هدأت أعصابها..

ارتسمت ابتسامة على شفتيها وهي تتخيل ملامح أمها حين تحكي لها ما حدث و..

وفجأة جذبتها يدٌ قاسية نحو الأرض وقتلت صرختها.

***

(*) الكَلاَفُ: هو من يقوم بعلف الماشية وتربيتها.

(٢)

- كمال.. كمال.

الصوت المذعور الذي يبحث عن النجاة يضرب لحاء مخ (كمال) بقسوة..

فتح عينيه بصعوبة..

إنه فقط الغبار الذي يحرق صدره، والأنفاس الثقيلة، ورائحة الدماء..

حاول النهوض لكن كان هناك وزن هائل يجثم فوق ظهره، ويجعل ضلوعه تكاد أن تختلط ببعضها البعض..

أزاح كتلة حجرية ليكتشف وجود سيخٍ حديدي يخترق ساقه، دماؤه تخرج من الجرح، فتختلط بالتراب والطوب وتصنع فوقهم أشكالًا مشوهة، لم يكن يشعر بالألم، تحسس السيخ الحديدي الذي يعوق حركته، نهايته معقوفة كخطاف صيد، استجمع شجاعته وقوته، ثم قبض على السيخ بكلتا يديه وبدأ في انتزاعه، أطلق صرخة هائلة وقد انفجرت داخله براكين من الألم والحمم التي مزقت عقله، السيخ يمتد في يده ويخرج ممتلئًا بالدماء وبقطعة لحمٍ كبيرة..

- كمال.. كمال.

صوت زوجته يتكرر، وقد صار ضعيفًا واهنًا.

سعل بشدةٍ وهو يحاول اختراق كومة الغبار بيديه.. نادى:

- أنتي فين؟

تحت كومة من بقايا المنزل المنهار، رأى جزءًا من ساقها الممزقة، نهض مترنحًا وهو يزيح أكوام الطوب والإسمنت، كان يصرخ ويبكي في نفس الوقت، وصل لجسدها الذي انسحق معظمه، بين ذراعيها كانت تضم جسدًا صغيرًا وتحميه.

- بابا.. بابا.

استفاق من ذكرياته على صوت (محمد) ابنه الذي كان ينظر من نافذة القطار ويتابع الحقول الخضراء المتناثرة..

- عاوز إيه؟

طلب منه أن يشتري له حلوى من أحد الباعة الجائلين الذي كان يمر بالجوار..

نادى البائع واشترى منه قطعتين، أخذ منهما واحدة لنفسه.. كانت تمتلئ بالسكر وشيءٍ يشبه الفول السوداني المحروق، قضم منها قطعة صغيرة، فكاد أن يبصقها بينما كان (محمد) يلتهم قطعته في تلذذٍ عجيب.. اهتزت العربة بشدة مع صوت احتكاك الفرامل بالحديد، وبدأت سرعة القطار تتناقص قبل أن يتوقف أمام أحد (المزلقانات).. جلس البائع في مواجهة (كمال) ليعيد ترتيب بضاعته، سأله (كمال) باهتمام:

- شكلك متعلم.

ابتسم البائع:

- خريج كلية تجارة...

ثم أشار إلى شابٍّ مشعث الشعر يبيع أدوات حلاقة وأمشاط بلاستيكية، وأردف:

- والواد اللي هناك ده خريج آداب.

قلب (كمال) نظره بين كليهما ثم قال:

- الشغل مش عيب، المهم انك متمدش إيدك لحد.

في تلك اللحظة، مر أمامهم شاب يحمل أدوات عمل الشاي، أشار إليه (كمال) وسأل:

- وده خريج إيه كمان؟

ضحك البائع:

- لا.. ده شخص مجهول الهوية.

حاول (كمال) أن يبتسم:

- يبقى خريج هندسة.

أطلق البائع ضحكة عالية، جعلت كل من في العربة ينظر إليهما، ثم جرى مسرعًا ونزل من القطار الذي عاد يتهادى، ويكمل طريقه كسلحفاة تسير على البر.

التفت (كمال) إلى (محمد) وطلب منه التوقف عن الحركة:

- بلاش شقاوة.. اقعد عشان المسامير اللي في رجلك.

زفر (محمد) بضيقٍ وصنع بالونتين من الهواء على جانبي وجهه، قبل أن يقول:

- أنا كويس.

حمله (كمال) فوق ساقيه، وراح يمسح فوق رأسه قائلًا بحنان:

- أنا عارف.

سحب (محمد) نفسه من بين ذراعيه، وعاد ليقف على الكرسي المواجه له، وينظر من نافذة القطار الذي راح يهتز يمينًا ويسارًا.. ألقى (كمال) رأسه بجوار النافذة، وأخذ يستنشق بعض الهواء الذي صار أكثر نقاءً كلما ابتعد عن المدينة، أسبل جفنيه قليلًا، كان قد استيقظ هذا الصباح مرهقًا بعدما أمضى الليلة كلها ما بين النوم واليقظة، كثرة التفكير أضنت عقله وجسده، بالرغم من ذلك حاول ألا يتباطأ وأسرع الخطى وهو يحمل (محمدًا) بيده اليمنى والحقيبة باليسرى..

كانت قد مضت سنة كاملة منذ أن عاد من ليبيا بعد تعرض السكن الذي كان يقطن فيه لهجومٍ مسلح، أسفر عن موت زوجته وتركيب ثلاثة مسامير في جسد ابنه الوحيد، هو أيضًا لم يخرج سليمًا فقد استقر سيخ حديد في ساقه وترك فيها فجوة واسعة وعرجًا دائمًا، ترك ذكرياته جانبًا وأخرج (ساندويتش) راح يتناوله على مهل وهو يشرب الشاي، صوت عجلات القطار وهي تطحن القضبان كانت تمثل له خلفية موسيقية للمشاهد المتلاحقة لجوانب الطريق وهو يتابعها بشغفٍ قديم، بعد مدةٍ ارتمى (محمد) بجواره حين مل من متابعة الطريق، وسأله (كمال):

- مالك؟

- زهقت يا كمال.

- أنا أبوك مش صاحبك اللي في المدرسة.

غمغم (محمد) بكلمةٍ غير مفهومة، عاد (كمال) يقول:

- طيب نام شوية ولما تصحى هنكون وصلنا.

- مش عاوز أنام.

قالها (محمد) وهو يمد كلتا ساقيه للأمام في محاولةٍ منه أن يلمس طرف المقعد المقابل له، لكن قدمه كانت أقصر من اللازم، كتم (كمال) ضحكة كادت أن تفلت منه، حينما عاد (محمد) يسأله وهو ما زال يقاوم:

- الساعة كام دلوقتي؟

رد (كمال):

- ستين دقيقة.

- بطل رخامة بقى.

- هديك على دماغك.

ضحكت امرأة وزوجها، كانا يجلسان على المقعد الملاصق له، فشعر بحرجٍ بالغ جعله يرمي (محمدًا) بنظرةٍ حادة كالرصاص..

حاولت المرأة أن ترطب الأجواء وتبادلت مع (محمد) بعض

الحديث..

تابع كمال حوارهما وهو يتفحص زوج المرأة، كان في العقد الخامس من العمر ويبدو كموظف أرشيف حكومي..

لاحظ الزوج أن (كمال) ينظر إليه، فابتسم وقال:

- ابنك ده عسل.

كانت طريقة نطقه للكلمات تدل على أصولٍ ريفية، أومأ (كمال) برأسه قائلًا:

- بس شقي قوي.

- حاول تجاريه في الكلام، الطفل في السن ده بيعتبر أبوه مركز الكون.

- ربنا يسهل.

- كله خير بإذن الله، أنت رايح فين؟

- والله ما أنا عارف.

ضحك الرجل بقوةٍ لدرجة أن بعض الرذاذ تناثر فوق وجه (كمال).

قال الرجل:

- يا عم قول كلام غير ده.. فيه حد مش عارف هو رايح فين.

مسح (كمال) ما علق على وجهه من رذاذٍ وقال:

- آه زي ما بقولك كدا.. أنا رايح لواحد صاحبي اسمه (كرتونة).

غمغم:

- كرتونة!

- هو اسمه الحقيقي (كريم) بس شهرته (كرتونة) لأن حجمه صغير، لو شفته هتلاقيه شوية جلد على عضم، الناس سموه كدا تريقه، عشان كان لما بيحب ينام كان بيدخل جوه كرتونة كبيرة وينام فيها، بس هو ابن حلال وطيب، وكان شغال معايا في ليبيا قبل ما نسيبها وننزل مصر أو بمعنى أصح قبل ما نهرب منها.

هتف الرجل:

- ليبيا! ده القتل هناك مبيخلصش.

- والله أنا كنت في منطقة أمان وكنت بقول أنا عايش زي أهل المكان ومكنش فيه فرق بيني وبينهم.. لكن في يوم حصل هجوم من داعش، ومراتي وشقا عمري وكل حاجة راحت في ثانية، ويدوب عرفت أهرب أنا وابني.

تمتم الرجل في أسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- ونعم بالله.

سأله الرجل باهتمام:

- كنت شغال إيه هناك؟

- فني مصبغة في مصنع ملابس.

- المصنع ده تلاقيه اتدمر دلوقتي.

زفر (كمال):

- بقى شوية تراب.

- طيب صاحبك كرتونة قالك تنزل فين بالضبط؟

- قال لي اركب القطر ده، وعند آخر محطة انزل.

صاح الرجل كأنما عثر على شيءٍ مفقودٍ منه:

- آه تمام.. عرفتها، على العموم هي المحطة اللي بعد مني علطول.

هتف (كمال) في فضول:

- طيب البلد دي وضعها إيه بالضبط.. طمني.

ابتسم الرجل:

- بص هي متقدرش تقول عليها مدينة ولا قرية.. هي حاجة كدا مزيج بين الاتنين.. مكان تحس مش موجود على الخريطة وعامل زي اللي رقصوا على السلم، لا طالوا سماء ولا أرض.

صمت برهة ليلتقط أنفاسه، وراح بعدها يستعرض كل المعلومات التي لديه عنها، كأنه مدرس تاريخ أو ما شابه ذلك، ثم أنهى كلامه عنها بأنها أرض مظلومة.

- ليه بتقول كدا؟

أجاب الرجل:

- زمان هي كانت حلقة وصل لأكتر من قرية حواليها، كان عشان تسافر أو تشتري حاجة لازم تمر منها، حالة أهل البلد كانت كويسة وأسعار الأراضي فيها زادت، لكن يا بني زى ما بيقولوا دوام الحال من المحال، وبعد لما اتبنت سكة القطر واتعمل طريق دولي بقت هي آخر محطة وبسبب ده قل دورها أو بمعنى تاني مات دورها خالص، وأحوال العباد هناك اتبدلت واللي كان عايش مبسوط صابه الفقر والجوع.

شعر (كمال) بتسونامي من القلق يضرب صدره وهو يسمع ذلك، قبل أن يقول:

- لكن أنا سمعت إن هناك منطقة صناعية جديدة والمفروض إني هشتغل هناك.

- هي مش منطقة صناعية زي ما انت مفكر، لكن (محروس) ابن الحاج (داغر) عامل هناك مصنع ملابس جديد، وتقريبًا المصنع ده هو الشيء اللي باقي مع كام حتة أرض زراعية هناك، عايش على خيرها أهل البلد.

استفسر (كمال):

- يعني تنفع أعيش فيها وألاقي لقمة عيش ليا ولابني، أنا بقالي سنتين من ساعة لما رجعت مصر عمال اتنطط من هنا لهناك، ومفيش مانع عندي ارجع؟

أجاب الرجل:

- تنفع طبعًا.

ثم سأل (كمال):

- لكن أنت منين أصلًا؟

أمال (كمال) رأسه وهو يقول:

- أنا من قرية تبع محافظة الدقهلية لكن زي ما انت عارف لقمة العيش بتحكم.

بدأ الرجل كمن يحدث نفسه وهو يردد:

- آه عارف عارف...

وصمت قليلًا قبل أن يستدرك:

- متقلقش هي بلد كويسة وأهلها أهل كرم، ولو حبوك هيرفعوك فوق دماغهم.

في تلك اللحظة بدأت سرعة القطار تتناقص رويدًا رويدًا.

- دي محطتنا.

قالها الرجل وهو ينهض متثاقلًا، صافحه (كمال) مودعًا إياه:

- فرصة سعيدة.

- أشوف وشك بخير.. المحطة الجاية هي محطتك.

وتأبط يد زوجته وسارا سويًا ببطءٍ كمن يسيرا إلى القبر..

تابعهما (كمال) ببصره حتى نزلا على أرض المحطة، وفي لحظة

تلاشت ملامحهما من ذاكرته.. كان هذا أحد الآثار الجانبية للصدمة النفسية التي تعرض لها بعد الحادث كما أخبره طبيبه المعالج والذي نسي ملامحه هو أيضًا..

أرخى (كمال) رأسه على النافذة قليلًا، وراح يفكر فيما قاله الرجل إلى أن بدأ الظل يغمر القطار وهو يدخل تحت سقف المحطة، ثم ظهر اسم البلدة على لافتةٍ معدنيةٍ علاها الصدأ..

(تل العبيد)

***

طنين ذباب أحاط برأس كريم (كرتونة) الذي لم ينفك يحاول إبعاده بيده، وهو يسرع الخطى داخل حارة جانبية تكتظ بالقاذورات وأكوام القمامة، في طريقه إلى المحطة للقاء (كمال)..

كان (كرتونة) حاد الملامح، كثيف شعر الرأس مثل شباب (الهيبز أو الخنافس) كما يطلق عليهم.. كما كان يرتدي قميصًا فضفاضًا به العديد من الألوان، يتسع لشخصٍ آخر بجواره، وبنطالًا أبيض اللون يصل إلى ما فوق ركبتيه، وجوربين طويلين لونهما أحمر يغطيان ركبتيه، وحذاءً كلاسيكيًا يشبه حذاء (جحا).. باختصارٍ كان يشبه المهرج أو شخصية كارتونية خرجت من إحدى حلقات (سبونج بوب).

تجاوز (كرتونة) الحارة القذرة ثم انحرف باتجاه مسجد القرية الكبير:

- السلام عليكم يا أهل الخير.

ألقى السلام على مجموعةٍ من المصلين الذين خرجوا للتو من صلاة الظهر.

رد أحد الرجال الملتحين:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قال آخر:

- سننتظرك في درس العشاء.

وأردف ثالث:

- لا تدع الدنيا تنسيك الآخرة يا أخي.

هتف (كرتونة) مقلدًا طريقة كلام المسلسلات الدينية:

- هيهات هيهات.. كلا بتا.. لا تنسوا أطباق الأرز باللبن.

ثم تجاوزهم ليعبر هذه المرة أمام القهوة التي تلاصق الجامع من الخلف ويجلس على ناصيتها مجموعة شباب يدخنون أحجار المعسل الممزوج بالحناء والعلكة.

- شدو يا ولاد الهرمة.

قالها وهو يمد إبهامه إلى فمه ويشفط الهواء كمن يدخن حجر معسل، رد أحد الشباب الجالسين وهو يبصق كتلة بلغم بحجم ليمونة صغيرة:

- حبيبنا يا كرتونة.

- نصاية كدا وراجع.

- ماشي بس هات تموينك معاك.. إحنا مش هنقضيها ودي.

- يا ابن الهرمة، ده أنا اللي مربيك.

أشاح الشاب بيده مستنكرًا:

- يا عم دي مكنتش سيجارة حشيش خدتها منك من خمس سنين.

قال (كرتونة):

- يا بني هي دي كانت سيجارة عادية.. دي اللي خلتك تدخل لعالم الضياع والفشل الجميل.

ثم تبادل مع الشباب بعض العبارات المضحكة (+ 18) قبل أن يسرع الخطى ويكمل طريقة تجاه المحطة حتى وصل إلى أحد الكباري الخشبية المتهالكة، يمر فوق الترعة الوحيدة التي تغذي الأراضي الزراعية ويتسع بالكاد لمرور شخصين متجاورين..

في نهاية الكوبري كان يوجد ضريح مجهول الهوية له قبة خضراء وفوق القبة هلال مصنوع من الخشب..
لا أحد يعرف لمن هذا الضريح.. البعض يقول أنه لأحد صحابة الرسول الذين جاءوا إلى هنا، والبعض يقول أنه لأحد أولياء الله الصالحين الذين عاشوا خلال فترة حكم (الحاكم بأمر الله) وهرب من بطشه إلى هنا..

على أية حال كان الأهالي يحبون التبارك به وينذرون له النذور،

ويؤكدون أن الدعوة أمامه مستجابة.. لقد دعوا ذات يوم أن تفوز مصر في مباريات كأس العالم، فانهزمت الثلاثة مباريات واحتلت المركز الحادي والثلاثين من ضمن اثنتين وثلاثين دولة.

فجأة اعترضت طريق (كرتونة) عينان واسعتان أطلتا من تحت دلو ماءٍ آسن.. هتف بلهفةٍ وشوقٍ وفرح:

- (هدى)...

حاول أن يقول لها شيئًا لكنه ارتبك.. قالت:

- إزيك يا كريم.

تأمل وجهها الدائري الذي يشبه القمر وقد اختلط فيه حمرة وجنتيها بسمرة بشرتها مع ابتسامتها الخجولة.. ثم قال:

- الله يسلمك.. إزيك.

أجابت:

- الحمد لله.

سألها:

- المية مقطوعة عندكم ولا إيه؟!

أومأت برأسها في نفس اللحظة التي مرت فيها مجموعة من الفتيات وهن يختلن قبل أن يطلقن ضحكات غريبة كأصوات الضفادع..

شعرت (هدى) بالانزعاج منهن لدرجة أن يدها التي تمسك بالدلو

قد اهتزت، فتساقط عليها بعض الماء وبلل جزءًا من وجهها، حاول أن يحمل عنها:

- عنك انتي.

قالت بصوتٍ خفيض:

- لا.. شكرًا.

ثم تخطته وهي تتمتم:

- ابقى خلينا نشوفك.

استند بظهره إلى حائط أحد المنازل وظل يراقبها وهو يضع يده على صدره حتى يمنع قلبه من الركض خلفها.

على الناحية الأخرى من حائط المنزل الذي يستند إليه، وداخل المنزل نفسه كانت الإضاءة معتمة.. المنزل متواضع الأثاث لكن هناك فوضى كبيرة.. يوجد ممر صغير في نهايته حجرة بابها مفتوح مثل فم يحاول الصراخ، من داخل الحجرة تخرج حشرجة مكتومة، وراء الباب لا يوجد شيء مميز، فقط هناك سرير ودولاب ومرآة كبيرة، وليس هناك أي أحد في الغرفة.. مروحة السقف تدور على أقل سرعة ولا يخرج منها هواء لكن توجد رائحة كريهة تشبه رائحة الصودا، يتكرر صوت الحشرجة من جديد، هناك شيء.. تحت السرير ظهرت امرأة مسجاة على ظهرها، جاحظة العينين، تخرج من فمها رغوة بيضاء، وفي يدها علبة حبوب منومة فارغة..

كانت (بديعة) التي يئست من حياتها بعد اختفاء ابنتها منذ شهر،

وقررت أن تركب قطارًا سريعًا إلى الموت.

***

على باب المحطة التقى (كمال) بـ (كرتونة)..

استغرقت الأحضان بينهما ربع ساعة كاملة لدرجة أن (محمدًا) راح يتأفف من الملل.. حمله (كرتونة) فوق ذراعه وهو يقول:

- أنت مش فاكرني يا محمد.. أنا عمو كرتونة.. على فكرة أنا كنت مع أبوك في المستشفى يوم ولادتك.. وأنا اللي ادنت في ودنك اليمين وأقمت الصلاة في ودنك الشمال عشان الشيطان ميقربش منك.

وضع (كمال) يده على كتف (كرتونة):

- وقفتك معايا كبيرة قوي عندي وخدمة مش هنساها.

ردد (كرتونة) وهما يسيران سويًّا:

- على إيه بس.. انت خيرك عليا.

ثم أخبره أن وظيفته في مصنع الملابس محجوزة منذ أيام، فقال (كمال):

- قلقان قوي يا كرتونة.. خايف مقدرش اسد في المكان ده.

طمأنه (كرتونة):

- الشغل بسيط.. المصبغة أنت هتمسكها وأصلًا المصنع مفيهوش كوادر كويسة.. صدقني أنت في خلال سنة هتاخد وضعك.

ابتسم (كمال):

- شكلك عطيهم عني انطباع كبير.

- أنا طالع بيك السماء هنا.

سأله (كمال) عن المكان الذي سيمكث فيه.

أخبره (كرتونة) أنه قد استأجر له منزلًا جيدًا، له جيران يتسمون بالخير والود، سيشعر معهم بارتياحٍ شديد.

- يا رب يا كرتونة.. بيني وبينك أنا تعبت من الشقا والسفر.

- البلد هنا هتستريح فيها، وبعيد عن الزحمة ودوشة المدن.

- بس واضح أنها هادية قوي، ومفيهاش حتت كتير ممكن الواحد يروحها.

غمغم (كرتونة):

- بالعكس هنا هتلاقي كل حاجة.. كافيتريات وقهاوي ومطاعم وجناين، وفيه كمان سينما مفتوحة جديد.

ابتسم (كمال):

- البلد دي أنا مش فاهمها.

- ومتحاولش تفهمها يا صاحبي.. امشي معاها وسايرها على أد ما تقدر.

وصلوا إلى منطقةٍ ذات أرضٍ زلقة، معظم بيوتها مصنوعة من

الطوب اللبن، يجلس أمام أبوابها نساء فقيرات، ويمرح حولها حشود من الدجاج والبط..

حدث (كمال) نفسه قائلًا: «لو كان المنزل الذي سيعيش فيه هو واحد من هؤلاء، فسوف يعود أدراجه في الحال.»

قال (كرتونة) كأنه قرأ ما يدور في خلده:

- دي منطقة بتاعة شحاتين الرز.. شوية ناس غلابة عايشين على التسول، وبيجوا في موسم الرز بيروحوا ياخدوا الزكاة من الفلاحين على هيئة رز ويجمعوه ويبيعوه.

- ده نوع من أنواع التسول.

- صحيح بس اعتبره نوع من أنواع التكافل بتاع البلد هنا.

حاول (كمال) أن يفهم:

- إذا كان فيه شغل مبيشتغلوش ليه؟

رد (كرتونة) بوجهٍ عبوس:

- أكتر دول ستات مطلقات أو أرامل.

قال (كمال) وقد استوعب ما يحدث:

- انتوا كدا بتعاملوهم كأنهم منبوذين.

رد (كرتونة):

- هنا الست المطلقة عامله زي المرض اللي بيقتل صاحبه واللي

حواليه، الكل بيخاف منها، حتى أهلها نفسهم بيبعدوا عنها، عشان كـدا تلاقـي الســت هنـا عنـدها تمـوت ولا تطلـق، وفيـه رجالـه بيستغلوا النقطة دي وبيدوسوا عليهم بالجزم.

انتهى الكلام عند هذا الحد، وران صمت بينهم لم يقطعه سوى صوت العلكة في فم (محمد)..

أثناء ذلك شعر (كمال) أن أهل البلدة يتميزون بالرصانة.. الرجال يمشــون فـي صمتٍ وبخطـواتٍ سـريعة، بينمـا النسـاء يرتـدين ملابس محتشمة ولا يضعن مساحيق التجميل.

بعد مدةٍ دخلوا إلى شارعٍ نظيف مرصوف وعلى ناصيته محل بقاله ذو رصيف مرتفع وأمامه تم وضع ثلاجة مشروبات غازية، والكثير من عبوات البطاطس و(مقرمشات الذرة)..

أشـار (كرتونـة) إلـى بيـتٍ مـن طـابقين، تمتلـئ جـدرانه الخارجيـة بكفوفٍ من الدم ويقع في نهاية الشارع:

- البيت هناك اهو.

كان منظر البيت لا بأس به.. أشار (كمال) إلى الكفوف:

- دي من إيه؟

رد (كرتونة):

- البيت أصلًا جديد وأصحابه عاملين كدا عشان الحسد.

- أصحاب البيت إيه نظامهم؟

- اتفقت معاهم إن الكلام معايا.. يعني الإيجار أنا هاخده منك وهعطيه لهم كل شهر، وهما لو عندهم شكوى ولا حاجة هيبلغوني.. بس متقلقش دول ناس طيبين قوي.

قال (كمال) ببعض الارتياح:

- طيب تمام.. طمنتني.

قاده (كرتونة) إلى الداخل، وهو يقول:

- شقة حلوة قوي وهتعجبك.

كانت الشقة مكونة من ثلاث غرفٍ وبهوٍ واسع، الأثاث الموجود كان بسيطًا لكنه أكثر من مناسب كما أنه كافٍ جدًّا..

بعد أن تفحص (كمال) الشقة، ارتاح واطمأن كثيرًا، ثم قال:

- هي فعلًا كويسة جدًّا.

أشار (كمال) إلى مصباح كيروسين معلق:

- حافظ على دي، النور بيقطع هنا كتير.

- معايا كشاف في الشنطة.

- مفيش أحسن من لمبة الجاز.. اسمع كلامي.. المهم أنا همشي دلوقتي.. النهاردة الخميس وبكرة الجمعة والسبت أجازة عيد العمال.. هعدي عليك الحد الصبح واخدك نروح المصنع ونقابل المهندس معتز وتستلم الشغل.

صافحه (كمال) بامتنانٍ، وقال:

- ألف شكر.

ابتسم (كرتونة) بحرج:

- متقولش كدا.

ثم هم بالانصراف لكنه تذكر شيئًا، فقال لـ (كمال) بصوتٍ خافت حتى لا يسمعه (محمد):

- محتاج فلوس.. أجيب لك؟

- لا.. لا.. ربنا يبارك فيك.

- متأكد.. دي مش عزومة مراكبيه.

- صدقني لو احتجت هطلب منك.. بقولك إيه اقعد اتغدى معانا النهارده.

- مش هينفع.. الحاج محروس مكلفني بموضوع وهروح اقضيه.

- مين الحاج محروس ده؟

قال (كرتونة) في غموض:

- متستعجلش.. هتعرفه بعدين.

***

(٣)

- فول تانك.

قالها (الحاج محروس) لعامل محطة الوقود الذي جاء مسرعًا.

- تحت أمرك يا حاج.

كان (الحاج محروس) هو الابن الأكبر للمرحوم (داغر).. أحد أعيان البلد وأشهرهم على الإطلاق.. ويمتلك مائتي فدانًا ذوات خصوبةٍ عالية، يتم تصدير إنتاجها إلى الخارج بصفةٍ دورية.. بالإضافة للأرض كان شريكًا في مصنع الملابس الحديث مع زوج أخته المهندس (معتز)..

بعض الجهلاء كانوا يتندرون حول ثروته ويقولون أنه أغنى من (الله).. (الله) يملك فقط بعض النجوم التي تظهر في الليل، أما (محروس) فيمتلك أموالًا لو تم رصفها فوق بعضها لوصلت إلى تلك النجوم.

بعيدًا عن هؤلاء الجهلاء هو شخص تشعر حين تلقاه أنه بسيط جدًا ولا يحب التباهي بثرائه.. هناك شيئان فقط يهتم بهم في حياته، معدته وما بين ساقية.. غير ذلك هو لا يعبأ بشيء..

كان ذو كرش عريض يتدلى أمامه كقربة ماءٍ تهتز كلما تحرك، أيضًا كانت قدماه قصيرتان جدًا وبهما تقوس واضح، يجعله يشبه الغوريلا حين يسير.

بينما كان عامل المحطة يتابع عداد ماكينة ضخ الوقود، كان

(الحاج محروس) يقلب محطات الراديو باهتمامٍ، حتى توقف عند واحدة يخرج منها صوت (أم كلثوم) وهي تغني:

أغدًا ألقاك

أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني

أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني

أغدًا تشرق أضواؤك في ليل عيوني

ألقى رأسه على مسند المقعد، وغاب قليلًا في ذكرياتٍ مضت، قبل أن يستفيق على صوت عامل المحطة، وهو يلصق وجهه بزجاج نافذة سيارته حتى كاد أن يعبر من خلالها قائلًا:

- كله تمام.. أي خدمة تاني؟

رد (الحاج محروس) بلا اكتراث:

- لا.. شكرًا.

ثم أخرج حافظة نقوده المكتظة مثل أتوبيس عام يسير في شوارع القاهرة، وهو يسأل:

- كام يا بني؟

أجاب العامل:

- 295 جنيه بس يا حاج.

انعقدا حاجبا (الحاج محروس) حتى كادا أن يتلامسا وصاح

باستغراب:

- ليه؟

ابتسم عامل المحطة:

- أنـت متعـرفش يـا حـاج.. النـهاردة كـان فـي صـب جـديد فـي المصلحة.

ضرب (الحاج محروس) كفًّا بكف:

- برضه.. إحنا مش هنخلص من المصلحة دي.

- هنعمل إيه بس يا حاج.. دول ناس مبيحسوش بينا.

- ولا عمرهم هيحسوا.. أنت اسمك إيه يا ابني.

- (سيد).. محسوبك سيد.

ناوله (الحاج محروس) ثلاثمائة جنيهًا:

- خلي الباقي عشانك يا سيد.

لمعت عينا (سيد) في فرح:

- ربنا يبارك فيك ويسلم طريقك يا حاج و...

لم يسمع (الحاج محروس) الباقي لأنه انطلق بسيارته مسرعًا في ضجر..

خلال طريقه مر من خلال الميدان الرئيسي للبلدة والذي امتلأت جدرانه بصور مرشحين انتخابات مجلس الشعب السابق.. كانت

صورته من بينهم وهو يبتسم ابتسامة ثقة خفيفة لم تشفع له للفوز..

توغل بالسيارة بين حواري ضيقة تكتظ بالمنازل القديمة والأطفال الذين يشبهون الذباب، حتى وصل إلى منطقة لا يمكن لسيارته الدخول فيها.. أوقف السيارة على ناصية أحد المحال، ويبدو أن صاحب المحل يعرفه جيدًا لأنه طلب منه أن يجلس قليلًا، لكن (محروس) رفض بطريقةٍ مهذبة وهو يترجل من السيارة بوقار، ثم عرج داخل شارعٍ ضيق يعج بكثير من أشباه البشر..

منظر (الحاج محروس) كان لا يناسب تلك المنطقة البائسة لكنه على أيه حال لم يكن يجذب انتباه أحد، وإن دل ذلك على شيءٍ فهو يدل على أن تلك ليست المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هذا المكان.

فوق رصيفٍ قذر كانت تجلس شحاذة فقيرة ملامحها تدل أنها ماتت منذ سنين، لكنها ما زالت تتنفس رغم ذلك.. كانت تجلس القرفصاء وتستند على عمود إنارة خالي من المصابيح.. قالت وهي تمد يدها بصعوبةٍ إلى (الحاج محروس):

- لله يا حاج محروس.

انحنى قليلًا حتى لامست ركبتاه الأرض وصار في مستوى رأسها، ثم قال لها:

- انتي لسه عايشه يا (أشجان).

ضحكت ضحكة أظهرت فمًا مشوهًا خاليًا من الأسنان:

- والله يا حاج أنا بتمناها من ربنا، بس مش عارفه هو سايبني ليه.

ابتسم ابتسامة كشفت عن زوج من الأسنان الذهبية:

- أكيد عملتي ذنب كبير وسايبك تتعذبي.

نقدها ورقة نقدية من فئة العشرة جنيهات وأردف:

- ادعي لي.

- ربنا يديك على أد نيتك.

ضحك:

- بلاش الدعوة دي.. هتدخلنا النار.

قهقهت وحاولت النهوض.. سألها:

- رايحة فين؟

قالت (أشجان):

- هروح بقى.. الليل قرب.

في تلك اللحظة ظهر شاب طيب الملامح عاونها على الوقوف، وهو يقول:

- على مهلك.

قالت للشاب:

- ربنا يكرمك يا بني.

والتفتت إلى (محروس) وقالت:

- الواد ده واد ابن حلال.. كل يوم بيروحني.. مش عارفه من غيره اعمل إيه.

قال الشاب بخجل:

- الحاجة أشجان بركة المنطقة كلها.

ربت (محروس) على كتفه:

- فيك الخير.

ثم تركهم وذهب تجاه منزل مكون من ثلاثة طوابق، كل نوافذه مغلقة ويعلوها التراب، فبدا خاليًا من السكان..

صعد السلم ذا الدرجات الواسعة بقفزاتٍ سريعة لا تناسب سنوات عمره.. أمام باب شقة الطابق الثاني أخرج مفتاحًا، ثم أدخله في الباب ودخل، أضاء نور البهو ذي الأثاث البسيط المكون من (سفرة) ذات خمسة مقاعد فوقها مفرش مزركش، و(نيش) يمتلئ بأطقم الصيني التي تم رصفها بعنايةٍ بالغة.. على أحد جدران البهو كانت توجد لوحة كبيرة لطفلةٍ شقراء الشعر، تحمل مزهرية بها ورود بنفسجية اللون.. نزع (الحاج محروس) العمامة وتأمل رأسه اللامعة في المرآة.. من فوق كتفيه انسابت يد رقيقة ملونة بالحناء، حتى وصلت إلى صدره وتحسست شعره المجعد.

- اتأخرت.

التفت (الحاج محروس) إلى صاحبة الصوت الناعم وهو يبتسم جذلًا..

(فاتن).. قطعة القشدة البيضاء والتي تفوح منها رائحة السمن البلدي.. كانت ممتلئة الجسد، كثيرة الشحم، ملفوفة القوام، وجهها دائري مرسوم بعناية.. ترتدي قميص نومٍ أحمر اللون شفافًا بدون ملابس داخلية، فظهرت كامل مفاتنها على النحو الذي يهواه (الحاج محروس).

ضمها إلى صدره فشعر بليونتها بين ذراعيه، فقالت:

- مجتش ليه الأسبوع اللي فات؟

- شغل المصنع بعيد عنك.

أزاحت يده من حولها وابتعدت عنه، وهي تقول بصوتٍ ناعم:

- يعني مش أم العيال؟

تفحص صدرها بيده:

- أم عيال مين؟ مفيش في القلب غيرك.

ضحكت ضحكة رقيعة، جعلت الدماء تنفجر في عروقه، ثم قالت:

- كلام.

سألها:

- والدتك هنا؟

هزت رأسها بالنفي، وقالت:

- لا.. خرجت.

لف ذراعيه حولها فأصبحت في لحظةٍ بين أحضانه.. حاولت أن تتملص منه في دلالٍ أنثويٍّ يحمل صبغة بنات الليل، لكنه أحكم قبضته عليها، وهو ينظر في عينيها مليًّا ويرى نفسه فيهما، تأوهت فارتخت ذراعاه قليلًا، حملها تجاه السرير، ثم وضعها عليه وهو يقبل عنقها المرمري، مدت يدها لتنزع صدريتها لكنه قال بجوع:

- عنك انتي.

بعد لحظاتٍ كان السرير يرتعش رعشات كهربائية، وقوائمه الأربعة تهتز بعنفٍ وبلا توقف.

***

بعد أن انصرف (الحاج محروس) من عند (فاتن).. دخلت امرأة بيضاء البشرة قصيرة القامة، تضع الكثير من مساحيق التجميل على وجهها لتخفي سنوات عمرها الخمسين، هذه (نوال) أم (فاتن).. كانت تغادر المنزل قبل قدوم (الحاج محروس) حتى يستمتع بوقته مع (فاتن) ثم تعود بعد انصرافه.

(فاتن) تستحم تحت (الدش) وهي تدندن بأغنيةٍ حزينة، وحولها ستار من البلاستيك الشفاف ليمنع تسرب رذاذ المياه للخارج، لكنه لم يمنع تمييز جسدها الذي يشبه السوط، وصل إلى مسمع (نوال) صوت (فاتن) بينما هي في طريقها للمطبخ، لتقوم بإعداد طبق

سلطة فواكه، فتحت الثلاجة، ثم بدأت تخرج ثمرات الفاكهة وتغسلها تحت مياه الصنبور التي كانت تنزل ضعيفة جدًّا، قامت بتقطيع الفاكهة على مهل، وقسمت الكمية في كوبين من الزجاج قبل أن تضيف فوقهم بعض الكريمة، ونادت بصوتٍ عالٍ:

- فاتن.. لسه قدامك كتير.

- لا خلاص يا ماما.. أنا خارجه حالًا.

حملت الأم الكوبين، ووضعتهما على مائدة الطعام ثم جلست أمامهما وسرحت بخيالها قليلًا، لم تكن ابنتها (فاتن) في الأصل امرأة تبيع جسدها كما قد يعتقد البعض لوهلة، ذات يوم كانت فتاة جميلة عادية، سطحية الشخصية، تستمع ليل نهار إلى (حماقي وتامر حسني، واوكا وارتيجا) وتقضي وقتها في تصفح (الفيس بوك) ووضع صورها على (الإنستجرام).. تزوجت من أحد أبناء عمومتها والذي كان مهووسًا بالذهاب إلى (الجيم) وبناء عضلات أشبه بالبالونات المنتفخة، قبل أن ينتهي به الحال في السجن بعد القبض عليه أثناء محاولاته تهريب المخدرات داخل ثلاجة، كانت هذه محاولته الأولى والأخيرة، فحصل على خمسٍ وعشرين سنة سجن وترك زوجته الشابة بلا قرشٍ واحد أبيض لينفعها في اليوم الأسود..

مضت الأيام بعد ذلك بسرعةٍ مذهلة وبدأت هي في ارتقاء سلم التنازلات، ضحكة لبائع الخضار، غمزة لبائع الدجاج، قبلة للجزار، أشياء كانت تفعلها من أجل تخفيض جنيهات قليلة في الحساب..

ثم ذات يوم اضطرت إلى التنازل الأكبر، لكنها لم تشعر بالذنب أو

الخوف، لقد حدث هذا تدريجيًا وعلى مراحل، الأمر كان أشبه بالتدريب على تلقي لكمة قوية، كل يوم تتلقى لكمة ضعيفة ثم اليوم التالي لكمة أقوى وهكذا إلى أن تتلقى القاضية، وبعدها لن تشعر بشيء.. وأخيرًا التقت بـ (الحاج محروس) أو الغنيمة الكبرى كما تحب أن تطلق عليه، تعرفت عليه حين عملت في مصنع الملابس الذي يملكه مع (معتز) زوج شقيقته، كانت هي وقتها تعمل في قسم الحياكة، لم يستغرق الموضوع كثيرًا حتى كانت قد تركت العمل وأصبحت تبيت تحت جسد وأموال (الحاج محروس).. أما الأم (نوال) فقد هجرها زوجها منذ عشرين عامًا حين سافر إلى اليونان للعمل صياد أسماك، بعد أن سافر انقطعت أخباره تمامًا، البعض يقول أنه غرق مع مركب الصيد، والبعض يقول أنه تعرف على فتاةٍ من فرنسا، تزوجها وذهب معها في موسم العنب للعمل في مزارع الكروم هناك، لكن سقطت فوقه آلة ثقيلة ومات، كانت كل القصص التي تروى عنه تنتهي بالموت ولهذا تناست أمره..

منذ حوالي شهر جاء (الحاج محروس) على غير عادته، جاء ليلًا ولا شيء في رأسه غير النكاح، لم يكن الوقت يسمح لـ (نوال) كي تغادر وتترك الشقة، اكتفت بالبقاء في غرفتها بعد تحذيرٍ من ابنتها بألا تخرج حتى لا يغضب، اكتفت بالجلوس على فراشها والتلوي فوقه وهي تستمع لأصوات التأوهات وقرع اللحم باللحم، ثم بعد قليل قررت أن تتسلل وتسترق النظر من خلال ثقب الباب، رأت ابنتها عارية الساقين والفخذين وبينهما يندفع (الحاج محروس) ذهابًا وإيابًا، انكمشت حول نفسها وألصقت ظهرها بالباب وهي تتنفس بصعوبةٍ وقد غمرها العرق واشتعلت

غرائزها القديمة، في نهاية تلك الليلة ذهبت وتبادلت بعض كلمات الترحيب مع (الحاج محروس) وهي ترتدي قميص نومٍ مفتوح الصدر، يظهر حرف ٧)) الناتج عن التقاء نهديها، ولأن (الحاج محروس) عنتيل متمرس، فقد أدرك جيدًا ما ترمي إليه، ووافق وختم عليه..

منذ أسبوع جاء إليها وهو يعلم بغياب (فاتن).. لم ينبس ببنت شفة، لم تسأله لماذا أتى، لم يدور بينهما أي نوعٍ من أنواع الحوار، فقط أرقدها على الأرض ثم بدأ في فعلته المشاغبة.

- سرحانة في إيه؟

استفاقت (نوال) من شرودها على سؤال (فاتن) التي خرجت من الحمام وهي ترتدي (بشكير) وردي اللون وتلف رأسها بـ (فوطة) مبلولة، توترت للحظة قبل أن تقول:

- لا.. مفيش حاجة.. دايخة شوية من مشوار السوق.

هتفت (فاتن) بخبثٍ وهي تتخذ مكانها على المائدة:

- طيب ما تريحي نفسك شوية.. انتي كبرتي على الحاجات دي.

نظرت إليها (نوال) وحاولت أن تسبر أغوارها من خلال النظر في عينيها وتفهم ما المقصود بكلامها لكنها فشلت، وقالت:

- قصدك إيه؟

وضعت (فاتن) ملعقتها في طبق سلطة الفواكه وراحت تأكل، وهي تقول بلا مبالاة:

- هكون بقصد إيه يعني.

ثم حاولت أن تدير دفة الحوار، فقالت:

- عاوزين نشوف موضوع الحنفيات بتاعة الحمام.. المية عماله تسرب منها.

- خلاص نكلم محروس.

- لا الموضوع مش مستاهل، فيه سباك على أول الشارع هبقى أروح له بكرة وأجيبه يركب الخزان.

قالت (نوال):

- محروس هيتضايق لو عرف إن راجل دخل هنا.

استنكرت (فاتن):

- هو كان ولي أمرنا.

- انتي شايفه إيه؟

ردت (فاتن) بعصبية:

- أنا مش شايفه حاجة.. أقولك خلينا نأكل أحسن.

ثم راحت كلاهما تأكلان من سلطة الفواكه، وهما تنظران إلى بعضهما البعض نظرة عداء.

***

(أشجان)..

الشحاذة العجوز تعود إلى منزلها الصغير الموجود في منطقة شحاذين الأرز، كانت منهكة من طول مدة الجلوس على ناصية الشارع التي تقطن فيه (فاتن).. قامت بطهو قطعة لحم جاءتها بالأمس من أحد المحسنين، بعد أن نضج اللحم وتصاعدت رائحة (الشوربة).. أحضرت رغيف عيشٍ شمسي أعطته لها جارتها هذا الصباح، قامت بتقطيع الرغيف قطعًا صغيرة ووضعته في (الشوربة) مع اللحم ثم بدأت تأكل، كانت تمضغ بلا أسنان فيختلط فكها بلحم وجهها، ويسيل الزبد من بين شدقيها، حين انتهت قامت بتنظيف بقايا الطعام التي تساقطت منها ومسحتها جيدًا، شعرت بثقلٍ في رأسها وتراخٍ في جفونها، فتثاءبت بقوةٍ وقررت أن تذهب إلى النوم، لكن قبل أن تنام انحنت أسفل السرير، دنت من الأرض حتى كادت أن تلتصق بها، تحسست البلاط وانتزعت واحدة من مكانها، تحت (البلاطة) كان يوجد صندوق صغير من الصفيح علاه الصدأ، أمسكت الصندوق ثم هزته فأصدر صوت رنينٍ معدنيٍّ محبب إلى نفسها، هزته عدة مرات ومع كل مرةٍ كان قلبها يرقص، فتحت غطاء الصندوق وإذا به يحتوي على جنيهات ذهبية، انعكس بريق الجنيهات الذهبية على وجهها، كان وجهها يتألق سرورًا، ضمتهم إلى صدرها وقبلتهم ثم راحت تعدهم كما اعتادت كل ليلة، إنهم ثمانية وأربعون جنيهًا ذهبيًّا بالتمام والكمال، تبقى فقط جنيهان وتكمل الخمسين، تنتظر ذلك على أحر من الجمر، لقد جمعت هذا العام ضعف العام المنصرم، ربما ثلاثة شهور على الأكثر وسوف تجمع المبلغ الكافي لشراء جنيهين، سوف تقوم بتقسيمهم عندئذ إلى قسمين؛ كل قسم 25 قطعة، كانت شغفة بكنز الذهب.

فهذه ثروتها التي جمعتها على مدار عشرين عامًا من التسول، مضت نصف ساعة وهي على هذه الحالة تحدث الجنيهات الذهبية قبل أن تعيدهم داخل العلبة وتضعها من جديد تحت (البلاطة).. صعدت بعد ذلك إلى سريرها القريب من الأرض حتى تتمكن من الصعود إليه، نزعت غطاء رأسها فظهر شعرها الأبيض الشبيه بغزل البنات، وضعته جانبًا ثم اندست تحت (البطانية) وغطت في نومٍ عميقٍ خالٍ من الهموم والأفكار..

يقال أن الشحاذين لهم نصف الدنيا، ربما لهذا الكلام أساس من الصحة كما نراه الآن، في الخارج هبت ريح قوية اهتزت لها نافذة المطبخ المفتوح وصنعت ضجيجًا كافيًا لإيقاظها، نهضت متثاقلة من الفراش، كانت تستند إلى الحائط حتى لا تسقط، قدماها العجوزان لا تزالان في خدر النوم، وصلت إلى المطبخ والريح تعوي في داخله، المطبخ بارد جدًّا، الكثير من الأطباق والملاعق متناثرة هنا وهناك، نظرت إلى الأشياء وفكرت أن ترتبها، كانت لا تحتمل فكرة وجود فوضى في المطبخ، قامت في البدء بإغلاق النافذة جيدًا هذه المرة، كانت واثقة أنها قد أغلقته قبل أن تنام لكن ربما لم تغلق المزلاج كما يجب، انحنت تجمع الأطباق وتعيد وضعها في أماكنها، بالصدفة لمحت آثار تراب على الأرض، تراب أسود غريب، تتبعت سير التراب ببصرها، إنه يمتد فيما يشبه الخط المستقيم ثم يختفي عند الجدار، شعرت فجأة بعدم الراحة، أو لو شئنا الدقة شعرت بالخوف يجتاحها، هنا انغلق عليها باب المطبخ، لقد سجنت، لكن حين مدت يدها تحاول فتحه، استجاب لها وخرجت، راحت تجوب منزلها الصغير في قلقٍ وقلبها يدق كالطبول، هناك شيءٌ ما يدور غير طبيعي ولم

تعهده من قبل، شعرت أن روحًا شريرة توجد معها في الداخل، ذهبت إلى المطبخ من جديد لتجلب سكينًا تدافع يه عن نفسها، فجأة انطفأت كل الأنوار من حولها، غرقت في ظلامٍ دامس وصوت الرياح من الخارج تعوي كذئابٍ جائعة، استعانت بذاكرتها ومشت حتى وصلت إلى شمعةٍ تضعها تحت وسادة سريرها، أشعلت الشمعة وعلى ضوئها لمحت صورة ابنها الموجودة في البهو ملقاة، كان عمر هذه الصورة أكثر من ربع قرن، لقد ذهب المسكين إلى حرب الخليج وساهم دون أن يعلم في امتلاء جيوب بعض الفاسدين بالأموال التي تدفقت عليهم من جراء ذلك، أخبروها فيما بعد أنه مات لكن جثته لا تزال مفقودة، وأعطوها خطاب تعزية وشكر لا يساوي شيئًا، يومها مزقت الخطاب ولم تبكي، كانت ترفض تصديق أنه مات ولديها بعض الإيمان في أنه سيعود يومًا ما، فقط هو قد تأخر بعض الشيء، حملت صورة ابنها من على الأرض ثم مسحتها جيدًا وأعادت تعليقها كما كانت، بطرفي عينيها رأت ظلًّا أسودًا يقفز في الهواء ثم يختفي، هنا راحت قطع الأثاث تهتز كأن هناك شيئًا خفيًّا يحركها، تقلص وجهها من الخوف وراحت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقرأ المعوذتين، وهي تدور حول نفسها كإبرة بوصلة تبحث عن اتجاه الشمال، في تلك اللحظة صدر صوتٌ قوي وعادت الأضواء إلى البيت من جديد، اطمأن قلبها بعض الشيء، كل ما يجري حولها هو مجرد خيالات وأصوات ريحٍ ليس أكثر، بهدوءٍ أطفأت الشمعة باستخدام أنفاسها، فجأة سمعت حركة تأتي من خلفها، حاولت أن تلتفت، لكن الأوان كان قد فات، صرخت صرخة مخنوقة من شدة الألم حين انبثقت الدماء من منتصف بطنها وخرجت منها يد بشعة، كانت هناك يد تعبر من

خلال ظهرها إلى بطنها، تناثرت دماؤها على الجدران والتصق بعضها على إطار صورة ابنها، انسحبت اليد من بطنها وتركت وراءها فجوة واسعة عميقة..

في اليوم التالي عثر الجيران على (أشجان) مبقورة البطن بلا أحشاء.

***



(٤)

توقف (سيد) عامل المحطة أمام مضخات الوقود واحدة تلو الأخرى، وراح يأخذ قراءة العدادات ويدونها في ورقةٍ صغيرة، ثم عاد إلى غرفة مكتب المحطة. كانت الساعة التاسعة ليلًا حين أغلق عليه الباب وبدأ يعد النقود التي تحصل عليها ويقارن بينها وبين أرقام العدادات، في النهاية تبقى له أربعون جنيهًا وضعهم داخل حافظة نقوده، ثم أخذ يجمع النقود في رزم ويكتب فوق كل رزمة قيمتها، بعد أن انتهى وضع النقود داخل خزانةٍ صغيرة وأغلقها..

نظر في الساعة..

الرابعة صباحًا..

نفخ في كف يده محاولًا الحصول على بعض الدفء والهواء الساخن، كان من الأشخاص الذين لا يحبون الشتاء، البلدة في مثل هذا التوقيت تبدو مثل مدن الموتى الخالية من الأحياء، شعر بثقلٍ في رأسه وبرغبةٍ في النوم، خرج من المكتب وهو يتثاءب لكن الهواء البارد لم ينجح في تبديد النعاس الذي يغزو عقله، ابتعد قليلًا عن محطة الوقود، وبحث في جيبه حتى عثر على السيجارة الوحيدة التي معه، أخرج السيجارة وأشعلها وهو يستند إلى عمود الكهرباء يتابع حركة السيارات التي تمر، لقد كان التدخين ممنوعًا داخل المحطة، ما زالت فكرة أن يلتقط البنزين شرارة عود ثقاب أو سيجارة تشكل هاجسًا مرعبًا وتهديدًا لا يمكن التغاضي عنه، كان مسموحًا له بالتدخين لكن على مسافةٍ

دودة الكتب حرامية

معينة، وتحديدًا عند هذا العمود الذي تكدست أعقاب السجائر أسفل منه بمرور الأيام، شاهد من بعيد بومة قاطنة بين فروع شجرةٍ على الطريق المقابل، كانت تقف فوق عشٍّ كبير جعلته يتساءل: «متى استطاعت بناءه؟».. فجأة بدأ مصباح العمود الكهربائي في الارتعاش والأزيز، نظر له باستغراب، مضت ثوانٍ على هذا حتى انطفأ المصباح وحل الظلام، نفث آخر نفس دخان وألقى السيجارة تحت قدميه وسحقها سحقًا بحذائه ثم انصرف عائدًا إلى المحطة، لمح بجوار إحدى مضخات الوقود امرأة عجوز ترتدي عباءة سوداء فضفاضة ولها ذيل طويل يزحف خلفها، في البداية لم يكن متأكدًا مما يراه لكنه شعر أن قدميها لا تلمسان الأرض..

اقترب منها..

شاهد وجهها..

كانت بشعة..

شعر بجفافٍ في حلقه..

لا يمكن أن تكون هذه بشرية..

أغلق عينيه، حاول أن يقنع نفسه أنه يتوهم وأنه حين يفتحهما لن يجد أمامه هذه العجوز الشيطانية، فتح عينيه من جديد، المشهد ما زال مرعبًا لكنها لم تعد موجودة أمامه..

بل خلفه..

أمسكته من رأسه ثم أسقطته أرضًا..

حصرية من الروايات والكتب العربية

صرخ وهو يشعر أن كل عظمةٍ في ظهره قد تحطمت، اندفع على ركبتيه زاحفًا تجاه دراجته النارية، وهو يلهث من الخوف والذعر..

نظر من فوق كتفه إلى الوراء..

رآها ساكنة كالموت تحدق به..

استعاد القدرة على النهوض والجري..

قفز فوق الدراجة النارية ووضع المفتاح وأدار المحرك، صوت المحرك يئن كرجلٍ مريض لا يقوى على النهوض، نظر سيد إلى العجوز التي تحركت من جديدٍ وراحت تقترب منه، أدرك أنه لم يعد أمامه المزيد من الوقت، ترك الدراجة بعدما عجز عن تشغيلها وركض بسرعةٍ تجاه حقول القصب، تخبط بين عيدان القصب وامتلأ وجهه بالجروح والخدوش الدموية، اندلعت من ورائه صرخة هائلة، أدرك أنها غاضبة، التفت إلى الوراء، لم يكن يراها، لكن عيدان القصب التي خلفه كانت تتهشم وتسحق بالأرض وتقترب منه، اندفع جانبًا محاولًا تغيير اتجاهه والإفلات منها، التفت إحدى ساقيه على الأخرى فتعثر وسقط على الأرض، في نفس اللحظة توقفت المطاردة، حاول أن يصغي السمع فلم يعد يسمع أصوات تحطم عيدان القصب..

هل تراجعت عنه؟!

بعد قليلٍ سمع صوتًا كنقيق الضفادع ودبيب خطواتٍ ثقيلة، ظل رابضًا في مكانه وهو يمني نفسه ألا تعثر عليه، بعض عيدان

القصب يلمحها من مخبئه وهي تهتز ثم تتباعد كأن العجوز تعبر من بينها..

ظهرت أمامه..

حدق في عينيها اللتين تسبحان في سائلٍ أسود لزج، بالصدفة لمست يده حجرًا على الأرض، طوح يده بكل قوة وألقى الحجر في وجهها، كانت رميته موفقة فأصابت عينيها مباشرة، أصدرت صرخة هائلة ثم اختفت من أمامه، أتبع ذلك الكثير من الهدوء والصمت، نهض من مكانه غير مصدق ما حدث، نظر جيدًا حوله، لقد ابتعد كثيرًا عن محطة الوقود وعن دراجته النارية التي قطعًا ستعمل الآن بعد أن انتهى الخطر، لكن على مسافةٍ ليست بالبعيدة كانت هناك أضواء ونار مشتعلة، اعتقد (سيد) أن تلك النار تعود إلى صاحب الحقل، قرر أن يسير تجاهه أفضل من العودة، فجأة لمح ظلًا على الأرض أمامه، لكن مصدر الظل لم يكن يأتي من ورائه، بل من أعلى، تفككت أعصابه حين رفع وجهه تجاه السماء، رأى العجوز تطير فوق رأسه مباشرة ولا تفصل مخالبها عن رأسه سوى سنتيمترات، صرخ ثم أطلق ساقيه للريح..

عادت المطاردة من جديد، هذه المرة على نحوٍ مختلف، كان يركض وكل ذرةٍ في كيانه تركض معه، ظلها كان يحيط به كأنها حوله في كل مكان، شعر بمخالب تضرب ظهره لكنه تحمل حتى وصل إلى الأضواء والنار المشتعلة، لكن لم يكن هناك أحد، أمله الأخير في العثور على مساعدةٍ قد تبخر، تناول قطعة خشب مشتعلة ورفعها في وجهها، راح يطوحها بضعفٍ ووهن، للحظةٍ

شعر بشيءٍ حادٍّ يخترق عينه ولم يعد يرى جيدًا، حاول أن يمسح عينه لكن الشعلة سقطت منه وانطفأت على الأرض، شعر بصفيرٍ حادٍّ يثقب أذنيه..

ثم صرخ.

***

استيقظ (كمال) على صرخةٍ هائلة تدوي في أذنيه، لدقائق ظل يلهث وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، المشاهد المروعة عن موت زوجته وإصابة (محمد) وانهيار المنزل فوقهم لا تزال أضغاثها تطارده في أحلامه، بعد قليلٍ أتاه صوت آذان الفجر قادمًا من ميكروفون الجامع المعلق فوق عمود كهرباءٍ على أول الشارع، كان يرغب في استكمال النوم لكن المؤذن راح يردد كأنما يخاطبه هو بالذات:

- الصلاة خير من النوم.. الصلاااااااااة خير من النووووووووم.

تصارع قليلًا مع نفسه قبل أن ينهض من الفراش، ثم يخرج من المنزل ويسير بخفةٍ نحو المسجد الصغير الموجود في نهاية الحي، توضأ من صنبورٍ وحيد موجود خارج المسجد ثم دخل وهو يسمي ويدعو الله أن يفتح له أبواب رحمته، لاحظ أن معظم المصلين من كبار السن الذين أوشكوا على دخول القبر، كان عددهم قليل لا يتجاوز الخمسة عشر رجلًا، وكانوا يعرفون بعضهم جيدًا، نظروا إليه جميعًا باستغرابٍ وخوفٍ في بادئ الأمر، كأنه أحد مخلوقات كوكب مغامرات في (سبيس تون).. شعر أنهم يريدون أن يتحسسوه ليتأكدوا أنه حقيقي وليس أحد تخاريف

الشيخوخة، سأله أحدهم عن اسمه ومن أين أتى.. تذكر (كمال) سؤال منكر ونكير: ما اسمك؟ من ربك؟ ومن النبي الذي بعث فيكم؟

رد على الأسئلة بهدوءٍ وكياسةٍ لا بأس بها..

أنقذه شيخ المسجد من سيل الأسئلة حين نهض لإقامة الصلاة، كان رجلًا وقورًا، مهيب الطلعة، ضخم البنيان..

أحد الموجودين استوقف الشيخ وأخبره وهو يتثاءب أن (الحاج توفيق) لم يأتِ بعد..

كان يبدو من سياق الكلام أن (الحاج توفيق) هذا، أحد المواظبين على صلاة الفجر..

قال الشيخ وقد انتقلت له عدوى التثاؤب:

- ما دام مجاش يبقى مات.. إحنا نخلص صلاة ونروح بيته نفضل هناك لغاية لما نغسله وكمان نصلي عليه الظهر.

هتف رجلٌ كهل بتأثر:

- الله يرحمه.. والنبي عاوزين ندعي له يا شيخ.

زجره الشيخ:

- لا حلفان إلا بالله.

دمعت عينا أحد الرجال:

- والله أنا مش مصدق إن الحاج توفيق مات.. ده كان بيقول إنه

عاوز يتجوز جوازة تانية.

قال (كمال) بتردد:

- طيب ما يمكن راحت عليه نومه أو تعبان شوية.

قال الشيخ بثقة:

- الحاج توفيق لا يمنعه شيء عن صلاة الفجر إلا الموت.

في تلك اللحظة دخل رجلٌ نحيل، رأسه ملفوفة بضمادة بيضاء بها بقعة حمراء، وقال وهو يلهث:

- الحمد لله إني لحقتكم قبل ما تصلوا.

سأله الرجل الذي كان يبكي:

- خير يا توفيق.. اتأخرت؟

قال (توفيق) بوجه عبوس:

- مراتي عرفت اني عاوز اتجوز وقامت بينا خناقة لرب السماء وضربتني بكوباية في دماغي.

قال الرجل:

- المهم إنك لسه عايش.

هتف (توفيق):

- لا.. ما أنا هتقتل لما ارجع.

ثم صمت للحظة قبل أن يشير إلى الشيخ:

- منك لله.. أنت اللي قلت لي اضرب النساء بالنساء.

صاح الشيخ باستهجان:

- خسئت يا توفيق.. إنما أنا لك ناصحٌ أمين.

أمسك (توفيق) بلحية الشيخ:

- أنا كنت هموت بسببك.

غضب الشيخ ودفعه في صدره:

- طيب والله ما أنا مصلي الفجر.. ابحثوا لكم عن إمامٍ غيري.

ثم جمع عباءته وغادر المسجد دون أن يلتفت وراءه. حاول (كمال) أن يستوقفه لكنه فشل..

ظل بقية الموجودين يتشاجرون فيما بينهم إلى أن قال الرجل الكهل، وهو يمسك كتف (توفيق):

- صلي بينا أنت.

قال (توفيق):

- لا يا جدعان.. أنا مش حافظ غير سورة (قل أعوذ برب الفلق) وسورة (قل هو الله أحد).

ثم التفت إلى (كمال):

- صلي أنت بينا يا أستاذ.

ابتسم (كمال) في حرج:

- يعني.. أنا...

قاطعه (توفيق):

- عليا الطلاق بالتلاته محدش هيقف إمام غيرك.

قال الرجل الكهل:

- الشيخ قال لا حلفان إلا بالله.

أراد (كمال) أن ينهي المشكلة، فتقدم للإمامة وهو يقول:

- استووا يرحمكم الله.

توفيق:

- استوينا والنعمة.

كمال:

- الله أكبر.

***

بعد انتهاء صلاة الفجر، وصل عامل محطة الوقود كي يستلم فترة عمله من (سيد).. ما حدث بين إمام المسجد و(توفيق) جعله يتأخر، وتوقع أن يجد (سيدًا) غاضبًا منه لكنه فوجئ باختفائه، حاول أن يتصل به أكثر من مرة لكن هاتفه كان خارج نطاق الخدمة..

بحث هنا وهناك..

أكثر ما أثار دهشة العامل هو وجود دراجة (سيد) البخارية، إنه لا يتحرك بدونها، إذًا هو ما زال في الجوار، عاد يبحث من جديد، ذهب تجاه عمود الكهرباء الذي كان مصباحه ما زال يشع على الرغم من أن الشمس قد بدأت في البزوغ، لاحظ عقب السيجارة الحديث وآثار قدمي (سيد).. كاد أن يعود إلى المحطة لولا أن لمح من بعيد شخصًا يخرج من بين عيدان القصب ثم يزحف بوهنٍ على الأرض..

هرع تجاهه وقد ميزه..

إنه سيد..

حين وصل إليه كان ملقى على وجهه وقد توقف عن الحركة تمامًا، ظن أنه ما زال على قيد الحياة، حاول أن يساعده فرفعه من على الأرض، لكنه أفلته من يده حين رأى وجهه، راح يتراجع بظهره، ويصرخ في رعبٍ، وقد أصابته لوثة عقلية، كان وجه (سيد) قد تم انتزاعه، ولم يتبقَ منه غير بقايا لحمٍ وأسنان عالقة.

***

(٥)

في حجـرةٍ بالطابق الأرضي بالقرب من منطقة شحاذين الأرز، استيقظ (كرتونة).. كان قد انهمك الليلة الماضية في شراء بعض الطلبات الخاصة ذات المزاج الخاص والعالي للـ (حاج محروس).. ولقد كان نصيب (كرتونة) منها قطعة صغيرة ملفوفة في ورقة (سيلوفان).. هذا بخلاف العشرين جنيهًا التي اشترى بعشرة منها (ساندوتشات) مصنوعة من الكبد، التهمها في العشاء..

أول شيءٍ فعله حين استيقظ أنه تأكد من وجود القطعة تحت وسادته حيث تركها بالأمس قبل أن يغفو، بعد أن اطمأن قلبه مد يده إلى جواره وتناول زجاجة ماءٍ شبه فارغة، رشف منها رشفة صغيرة ثم ألقاها في الشارع من النافذة التي بجواره، جاءت الرميـة وبالصـدفة علـى امـرأةٍ تعبـر الطـريق فلعنـت (كرتونـة) وزوجها الذي يجلس في المنزل بلا عمل، وحماتها التي تعايرها لأنها أنجبت بنتًا، وجارتها التي تسببت في نفوق الأرانب التي تقوم بتربيتهم حين نظرت لهم ولم تصلي على النبي.

قال (كرتونة) بصوتٍ خافت وهو يختبئ:

- ولية مجنونة.

وانتظر حتى لم يعد يسمع لها صوتًا وتأكد أنها ابتعدت، ثم أخرج رأسه من النافذة وصاح بأعلى صوته ليسمعه الجميع:

- حظك حلو انك بعدتي.. اقسم بالله كنت هكسر رقبتك دلوقتي.

عاد إلى فراشة ووضع ساقًا على أخرى، وهو يردد:

- ستات متختشيش.

كان يسكن في حجرةٍ متواضعة، بها أريكة ينام عليها، ومنضدة بلاستيكية يأكل فوقها، وبوتاجاز ذو عينٍ واحدة يستخدمه في طهو أو تسخين الطعام، الجدران كانت تمتلئ بنقوشٍ سوداء لكن حين تدقق النظر فيها تكتشف أنها بيوت صراصير وحشرات أخرى مجهولة، فجأة سمع (كرتونة) طرقًا على النافذة، فتح النافذة من جديد فسقط على وجهه (ساندويتش فول وطعمية) وخمسون جنيهًا..

كانت هذه (سعاد) جارته والتي تعمل أخصائية اجتماعية في المدرسة الابتدائية.. لقد كان من عادتها أن تعطيه (ساندويتش) قبل ذهابها إلى العمل..

سمعها تقول دون أن تتوقف:

- عاوز حاجة؟

لم يجبها..

كررت سؤالها مرة أخرى وهي مستمرة في السير لكن بصوتٍ عالٍ تقترب درجته من درجة الصراخ:

- عاوز حاجة؟

صاح هذه المرة:

- لا.

ثم مد يده تحت السرير، وتناول علبة سمن تمتلئ بورق جرائدٍ قديمة.. وضع الورق كله على الأرض، وأخرج كيس نقودٍ صغير كان في عمق العلبة، فتح الكيس ووضع في داخله الخمسين جنيهًا التي ألقتها (سعاد) إليه.. كانت تعطيه هذه النقود بين الحين والآخر كي يدخرها لها بعيدًا عن يد زوجها..

وضع أيضًا العشرة جنيهات التي تبقت معه من الأمس ثم أعاد العلبة كما كانت، ما لا تعرفه (سعاد) أنه كان يضع لها نقودًا منه حتى تزيد من حصيلة مدخراتها.. في كل الأحوال هو كان يشفق عليها ويشعر بكراهيةٍ تجاه زوجها الشحيح سيئ الطباع.

التهم (ساندويتش الفول والطعمية) وخرج من حجرته، خرج بنفس الملابس التي كان ينام بها، خرج بنفس الملابس التي كان يرتديها بالأمس، خرج بنفس الملابس التي لم ينزعها منذ شهر..

على الساعة السابعة والنصف كان يقف ويطرق باب (كمال) الذي استجاب من أول طرقة، وفتح له الباب قائلًا:

- تعال ادخل افطر.

رد (كرتونة):

- سبقتك، بألف هنا وشفا.

أفسح له (كمال) الباب للدخول:

- طيب اقعد اشرب شاي عقبال لما اصحي (محمد).

دخل (كرتونة) وهو يقول:

- سيبه نايم أحسن.

هز (كمال) رأسه:

- لو صحي وملقانيش هيخاف.. أنا هصحيه وأتكلم معاه وافهمه اني نازل الشغل.

ثم ذهب لإيقاظ (محمد) وعاد..

جاء (محمد) وهو يفرك عينيه في تكاسلٍ، وصافح (كرتونة) بينما قال له (كمال):

- الأكل عندك.. أنا سايبه على الترابيزة.

واتجه إلى التلفاز وأكمل:

- هشغل ليك التليفزيون عشان متزهقش.

أومأ (محمد) برأسه، ضغط (كمال) زر تشغيل التليفزيون، فظهرت أسوأ صورة ممكنة، قال (كرتونة):

- وإحنا راجعين هجيب حد يضبطه.

ناول (كمال) (محمدًا) هاتفًا صغيرًا من نوع (نوكيا) وقال له:

- لو حصل أي حاجة كلمني.. اتفقنا.

قال (محمد) وهو يضع الهاتف في جيبه:

- اتفقنا.. متخافش يا بابا.. هي دي أول مرة يعني.

ربت (كرتونة) على كتفه:

- جدع يا محمد.. طالع لعمك كرتونة.

عاد (كمال) يقول:

- لو الباب خبط اسأل مين الأول قبل ما تفتح.. ومهما حصل متفتحش لحد غريب.. اتفقنا.

رد (محمد) بملل:

- اتفقنا.

وأخيرًا خرج (كمال) برفقة (كرتونة)..

أثناء خروجهما تصادف خروج فتاة من المنزل المجاور.. كانت جميلة جدًّا، ورقيقة جدًّا.. ترتدي فستانًا وردي اللون، وشعرها أسودًا كالفحم ينسدل فوق كتفيها بليونة.. ابتسمت لهم ابتسامة صغيرة.

رفع (كمال) يده في تحيةٍ خجولة، وهو يقول:

- صباح الخير.

ردت كالنسمة:

- صباح النور.

ثم سارت في طريقها..

قال (كرتونة) حين لاحظ نظرات (كمال) لها:

- اسمها عايدة.. بتشتغل في صيدلية.

وصمت للحظةٍ قبل أن يردف، وهو يغمز بإحدى عينيه:

- ومش متجوزة.

قال (كمال) وهو يشير إلى (توكتوك) يعبر أمامهما:

- مبقاش فيا دماغ للكلام ده.. يلا اركب.

بعد نصف ساعة كانا أمام بوابة مصنع الملابس الرئيسية.. بوابة حديدية عملاقة تشبه بوابات السجن.

تقدم (كرتونة) إلى البوابة، وصافح فرد الأمن الجالس على مقعدٍ خشبيٍّ متهالكٍ قائلًا:

- إزيك يا عم صعيدي.

أجاب عم (صعيدي):

- الله يسلمك يا أبو عمو.

أشار (كرتونة) إلى (كمال):

- المهندس كمال.. إن شاء الله هيشتغل معانا.

تفرس (عم صعيدي) ملامح (كمال) بسرعةٍ ثم قال:

- أهلًا وسهلًا يا أبو عمو.

رد (كمال) وهو يصافحه:

- أهلًا بيك.

قال (عم صعيدي) محدثًا (كرتونة):

- كويس اني شوفتك النهاردة.

- خير؟

أخرج (عم صعيدي) هاتفه من جيب قميصه:

- شوف كدا مش عارف ادخل على حسابي على الفيسبوك.

تفحص (كرتونة) التطبيق بسرعة على الهاتف، وهو يقول:

- حسابك تقريبًا اتلغى.

- لا إله إلا الله.. إزاي يا عم.. هما بيعملوا معايا كدا ليه.. ده تالت حساب يتقفل.

قال (كرتونة) وهو يناوله الهاتف:

- ما أنا قلت لك خش باسمك الحقيقي وأنت مصمم تعمل بنت عشان تكلم البنات والستات المطلقة.

هتف (عم صعيدي):

- يا عم أنا بحب أبقى متنكر.. أنت مالك.

سأله (كرتونة) باهتمام:

- أنت كنت مسمي نفسك إيه بالمناسبة؟

وضع (عم صعيدي) ساقًا على أخرى، وأجاب:

- الملاك الأبيض.

ضحك (كرتونة) ثم قال:

- المهم.. المهندس معتز وصل؟

هز (عم صعيدي) رأسه نافيًا:

- لسه مجاش بس زمانه على وصول.

قال (كرتونة):

- طيب أنا هاخد المهندس كمال في جولة سريعة جوه المصنع بحيث ياخد على الجو لغاية لما يجي المهندس معتز.

- تمام.

- عاوزك بس لما يجي ترن عليا عشان نطلع له علطول قبل زحمة الشغل.

قال (عم صعيدي):

- ماشي.. متقلقش من الموضوع ده.

قال (كرتونة):

- حبيبي يا عم صعيدي.

ثم اتجه بعد ذلك مع (كمال) إلى داخل المصنع حيث صالات القص والتطريز والحياكة والأقسام النهائية والمخازن.

قال (كمال) بعد ساعةٍ من التجول وهما يقفان أمام كافتيريا

المصنع:

- الشغل حديث فعلًا.

ناوله (كرتونة) كوب شاي وعلبة بسكويت سادة:

- العملاء كلهم أجانب، والشغل في محاولات إنه يتصدر بره.

سأله (كمال) بعد أن رشف رشفة صغيرة من الشاي:

- مفيش إنتاج محلي؟

- فيه طبعًا.. بس بيكون بواقي القماش والمواد الخام.. بدل ما ترمي بتتعمل شغل محلي أي كلام وبتجيب فلوس.

قال (كمال) بحزن:

- يعني الشغل النضيف بره والمضروب جوه.

- والله ده الموجود.. عندك بديل.

- للأسف لا.

كان (كرتونة) يغمس البسكويت في الشاي ويأكله ثم يقول:

- الشغل هنا هيعجبك.. اسمع مني، وبعدين هيبقى عندك وقت فراغ كويس ممكن تاخد وردية زيادة.

غمغم (كمال):

- لا يا عم.. أنا عاوز وقت أقضية مع محمد.

- اللي تشوفه يا صاحبي.

- المهندس معتز نظامه إيه؟

- هيعجبك.. ذكي جدًّا وكمان رياضي.. أنا سمعت انه كان خد المركز الثاني في بطولة الجمهورية في الكاراتيه لما كان في الجامعة.

- هو صاحب المصنع لوحده ولا معاه شركاء؟

- معاه الحاج محروس أخو مراته.

- الحاج محروس ده اللي انت اتكلمت عليه امبارح.. مضبوط؟

- مضبوط.. ده راجل فلوسه كتير، ومن وقت للتاني بروح اقضي له المشاوير.. خد عندك النهاردة بالليل هو باعتني استقبل دكتور الصحة الجديد وأجهز له السكن بتاعه.

- المهم تكون معاملته حلوة معاك.. الفلوس مش كل حاجة.

- الفلوس كل حاجة يا صاحبي، واللي يقول غير كدا ده بني آدم عايش في عالم سمسم.

سقطت قطعة بسكويت من (كرتونة) في الشاي، وحاول أن يخرجها بقطعةٍ أخرى لكنها ذابت وسقطت هي أيضًا.. قال (كمال):

- كفاية شغل الأطفال ده وطلعها بمعلقة.

- هتضيع حلاوتها.

في تلك اللحظة رن هاتف (كرتونة) (هناك شخص تافه يتصل بك).

نفض بقايا البسكويت العالقة في كفه، ثم أخرج الهاتف ونظر إلى اسم المتصل:

- عم صعيدي بيرن.. يبقى المهندس معتز وصل.. يلا بينا على مكتبه.

أسرعا كلاهما الخطى إلى أن وصلا إلى ردهةٍ واسعة ذات أرضية مصقولة تفضي إلى مكتب (معتز) الذي يقع في الطابق العلوي من المصنع.. قال (كرتونة) وقد لاحظ توتر (كمال):

- المهندس معتز شخصية عسل.

بعد خطواتٍ قليلة أصبحا داخل المكتب..

كانت تجلس أمام الباب سكرتيرة حسناء، مصنوعة من مساحيق التجميل، ترتدي نظارة ضخمة، وتمسك في يدها (تابلت) ومندمجة في لعبة (سولتير العنكبوت).. انتبهت لدخول (كرتونة، وكمال) فأسرعت تغلق اللعبة ورسمت على وجهها ابتسامة باردة، تحدث معها (كرتونة) وشرح لها فيما جاء، نهضت بتثاقلٍ وهي تلعنه سرًّا، كان (كرتونة) يتابع اهتزاز مؤخرتها ويغمز بعينه إلى (كمال)..

طرقت السكرتيرة باب مكتب المهندس (معتز) إلى أن سمعت الإذن بالدخول، ثم دخلت وغابت لدقيقة قبل أن تعود وتفتح لهما الباب قائلة:

- اتفضلوا.

استقبلهما المهندس (معتز) بابتسامةٍ روتينية، وأشار لهما بالجلوس وهو يقول بودٍّ مصطنع:

- أهلًا وسهلًا.

كان طويل القامة، مفتول العضلات، تحيط بوجهه لحية خفيفة كأنها مرسومة بقلمٍ أسود، يرتدي بذلة زرقاء، ونظارة طبية لها إطار ذهبي.

كانت غرفته واسعة تحتوي على أثاثٍ بسيطٍ جدًّا.. مكتب خشبي عريض فوقه مصحف وعدد من (الدوسيهات) الضخمة وجهاز (لابتوب) حديث، بجانبه ثلاجة صغيرة يعلوها زجاجة ماءٍ فارغة، في مواجهته شاشة تلفاز حديثة تعرض تسجيل لبطولة العالم في الكاراتيه.

بدأ (كرتونة) يقول:

- المهندس كمال فني المصبغة اللي كنت كلمت حضرتك عنه.

التقط منه (كمال) طرف الحديث، وبدأ يحكي عن الأماكن التي عمل بها سابقًا، وبعض الطرق الحديثة المستخدمة في صبغ الملابس، ظهر الاهتمام على وجه المهندس (معتز) بما يقوله (كمال) وأصغى بتركيزٍ عالٍ..

مضت عشر دقائق وسرعان ما خرج (كرتونة، وكمال) والسعادة بادية على وجهيهما، خاصة أن (معتز) طلب من (كمال) أن يبدأ في مباشرة العمل من اليوم.

أخيرًا يبدو أن كل شيءٍ يسير على ما يرام، لكن لا أحد يعلم ما ينتظرهما.

***

(6)

منزل معتز..

كان الوقت غسقًا حين أطلقت (وردة) زوجة (معتز) شهقة مكتومة وهي تخرج إصبعها من حلقها، ثم تنطلق مباشرة إلى الحمام وتفرغ ما في جوفها مع آهة طويلة.. بعد دقيقةٍ وبعد أن ظنت أن الموضوع انتهى، عادت من جديدٍ لتخرج المزيد وتزداد الآهة طولًا، خرجت من الحمام وهي تتصبب عرقًا، فتحت صيدلية المنزل، ثم أخرجت منها علبة دواءٍ شفافة، تناولت منها حبة واحدة مع نصف كوب ماء، اقتربت من المرآة ونظرت إلى جسدها، كانت دميمة دون مبالغة، ذات وجهٍ طويل، وأنفٍ ضخم، وعينين ضيقتين، ومصابة بمرض (البوليميا).. حاولت إنقاص وزنها عن طريق إفراغ ما في بطنها بعد تناول الطعام، قرأت حول هذه الطريقة في إحدى صفحات (الفيس بوك) وشاهدت عنها أكثر من فيديو على (اليوتيوب).

بعد ساعةٍ رن جرس الباب وبدأ ضيوفها في الحضور، تجمعوا في صالون المنزل استعدادًا لجلسة النميمة الأسبوعية، كانوا ثلاث نساء فقط..

روحية.. زوجة بائسة..

سعاد.. جارة كرتونة..

فاتن.. عشيقة محروس..

استقبلتهن (وردة) بفستانٍ أنيق باهظ الثمن.. كانت تحب أن ترى نظرة الغيرة في عيون صديقاتها، نظرة امرأة إلى امرأةٍ ترتدي أفضل منها، أبشع من نظرة متحرشٍ في أتوبيس مزدحم.

بعد واجب الضيافة وشرب العصائر والمرطبات، وضعت (روحية) قطعة (الجاتوه) جانبًا، وهي تقول بخبث:

- آسفة يا جماعة مش هقدر اكل.. الرجيم بقى.

فاتن:

- الرجاله بيحبوا المقلوظين.

روحية:

- لا.. ده جوزي ناقص يوزني كل يوم.

قالت (وردة) بحدة:

- هو انتي يعني كنتي بتاكلي من أكله، وبعدين جوزك ده جبله.

سعاد:

- سيبيها في حالها.. معاها اتنين نسوان يشاركوها فيه.

ثم تناولت قطعة (الجاتوه) الخاصة بها، وهي تستطرد:

- هاكلها أنا.

سعاد.. جارة كرتونة..

فاتن.. عشيقة محروس..

استقبلتهن (وردة) بفستانٍ أنيق باهظ الثمن.. كانت تحب أن ترى نظرة الغيرة في عيون صديقاتها، نظرة امرأة إلى امرأةٍ ترتدي أفضل منها، أبشع من نظرة متحرشٍ في أتوبيس مزدحم.

بعد واجب الضيافة وشرب العصائر والمرطبات، وضعت (روحية) قطعة (الجاتوه) جانبًا، وهي تقول بخبث:

- آسفة يا جماعة مش هقدر اكل.. الرجيم بقى.

فاتن:

- الرجاله بيحبوا المقلوظين.

روحية:

- لا.. ده جوزي ناقص يوزني كل يوم.

قالت (وردة) بحدة:

- هو انتي يعني كنتي بتاكلي من أكله، وبعدين جوزك ده جبله.

سعاد:

- سيبيها في حالها.. معاها اتنين نسوان يشاركوها فيه.

ثم تناولت قطعة (الجاتوه) الخاصة بها، وهي تستطرد:

- هاكلها أنا.

ضحكت (وردة):

- بالهنا والشفا.

سألت (فاتن):

- أمال زينب مجتش ليه؟

كانت تقصد (زينب) العضو الأخير في مربع النميمة. قالت (روحية):

- تقريبًا حامل.

وردة:

- تقريبًا ولا أكيد؟

روحية:

- لا أكيد.

فاتن:

- ده العيل الكام؟

ردت (روحية):

- هيبقى الخامس.

وردة:

- وهتقدر عليهم؟

روحية:

- ومتقدرش ليه.. دي صحتها حديد.

وردة:

- الخوف تجيب بنت.. هتبقى البنت الخامسة.

روحية:

- ده ممكن تتطلق فيها.

سعاد:

- البنات رزقهم واسع.

روحية:

- البنات هم ما يتلم.

وردة:

- هو جوزها بيشتغل إيه؟

ردت (روحية):

- كان فاتح محل موبايلات وبعدين قفله وفتح مكانه محل بلايستيشن عشان العيال.

صاحت (وردة) بجزع:

- هو بتاع عيال.

روحية:

- آه.. أمال أنا بقول إيه من الصبح.

وردة:

- ده أنا ابن اخويا بيروح يلعب هناك.

روحية:

- لا.. أوعي تودوه هناك.. ده راجل نجس.

فاتن:

- حرام عليكي! ده راجل طيب وغلبان.

روحية:

- حرام ليه.. حرمت عليه عيشته.. ده أنا مرة معدية من قدام المحل بتاعه، قال لي يا صفيحة السمنة البلدي.. بقى أنا صفيحة.

ضحكت (فاتن):

- قولي بقى كدا.. انتي مغلولة منه.

قالت (روحية) باشمئزاز:

- من مين؟ من ده؟

قهقهت (وردة) و(سعاد) قبل أن تقول الأخيرة:

- سمعتوا عن المهندس الجديد.

وردة:

- أيوه وهيشتغل عند معتز جوزي.

سعاد:

- هو هيسكن في وش بيت عايدة، كرتونة صاحبه وهو اللي جاب له السكن.

روحية:

- حكايته إيه الجدع ده؟

سعاد:

- والله ما اعرف.. بس كرتونة بيقول انه ابن حلال وطيب قوي.

روحية:

- أنا الحق بقى اشبكه لأختي.

قالت (فاتن):

- أختك مش متجوزة وعايشه في بور سعيد، ولا انتي ليكي أخت تانية.

روحية:

- لا هي أخت واحدة، بس كانت متجوزة من واحد ابن كلب واتطلقت ورجعت.

فاتن:

- جوزها كان بيشتغل إيه.

روحية:

- كان شغال في محل بيبيع هدوم باله.

سعاد:

- بور سعيد دي أنا روحتها السنة اللي فاتت.. البحر هناك جميل.

وردة:

- لا جميل ولا حاجة يا أختي.. ده كله قناديل.. جربي تروحي بور فؤاد.. الميه هناك جميلة.. هتركبي معدية من بور سعيد لبور فؤاد.

سعاد:

- فعلًا أنا القناديل بهدلتني وبهدلت البنات، بس أنا فرحت في أخت جوزي.

ضحكت (فاتن):

- هي هتتجوز امتى عشان تحل عن دماغك؟

سعاد:

- مش لما تتخطب الأول.

وردة:

- هي عدت التلاتين ولا لسه.

سعاد:

- عدتهم من زمان.. عيبها انها جاهلة وعشان كدا أنا ناوية اعلم بناتي.

حركت (فاتن) شفتيها بامتعاض:

- العلام وحش للبنات.

سعاد:

- هو إيه اللي وحش.. الست المتعلمة أحسن من الست الجاهلة.

روحية:

- الست ملهاش غير بيتها وجوزها وبوتاجازها.. جدتي دايمًا تقول كدا.

(فاتن) باهتمام:

- هي جدتك لسه عايشه؟

روحية:

- لا.. ماتت من سنتين.. كانت ماشية على الترعة وعربية ربع نقل محملة جاموسة.. الجاموسة نطت من العربية وطاحت في الناس.. ودهست جدتي.. أنا مشفتش المنظر لكن اخويا قال لي أن دماغ جدتي بقى عجينة.

فاتن:

- الله يرحمها.. أنا لما جدتي ماتت منمتش لمدة أسبوع.

سألتها (وردة):

- من الحزن عليها؟

فاتن:

- لا يا حبيبتي.. كانت واخده مني خاتم ودورت عليه ملقتهوش.. خاتم تقيل من بتوع زمان.. 10 جرام.

روحية:

- يا خبر.. ده يعمل دلوقتي مبلغ محترم.. ممكن 6 آلاف جنيه.

قالت (وردة) وهي ترفع يدها كي يشاهدن خاتمها:

- أكيد.. ده أنا لسه شاريه دا ب 4 آلاف جنيه.

قالت (روحية) وهي تأكل الخاتم بعينيها:

- المفروض الأهالي يقللوا موضوع الذهب في الجواز والشبكة، الأسعار بقت نار.

وردة:

- هما الرجالة لازم يتعبوا ويطفحوا دم قلبهم عشان يحسوا بقيمة الست.

فاتن:

- مضبوط.. الراجل من دول لازم يتداس عليه.

روحية:

- أقسم بالله أنا بنت خالتي اتجوزت من غير شبكة وكانت طلباتهم بسيطة جدًّا، والحمد لله...

فاتن:

- الحمد لله، إيه..؟

ضحكت (روحية):

- اتطلقوا بعد سنة ورماها في الشارع وعلى كتفها عيل صغير.

فاتن:

- صنف نجس.

سعاد:

- المشكلة في التربية.. ولما تيجوا تدوروا هتلاقوا إن الست هي اللي بتربي, يعني الست هي اللي بتظلم الست اللي زيها.

تمتمت (روحية):

- آه والنعمة عندك حق.

هتفت (سعاد):

- انتي أول واحدة مدلعه ابنك المفعوص اللي مبيعرفش يقرا ولا

يكتب.

قالت (روحية) باستنكار:

- مفعوص!!

ثم أكملت بحدة:

- ده بكرة يقعد على البساط وينقي ست البنات.

قالت (سعاد) بسخريةٍ لاذعة:

- بكرة نقعد على الحيطة ونسمع الزيطة.

صاحت (روحية):

- فشر يا حبيبتي.. قولي انك غيرانة عشان معاكي 3 بنات.

هتفت (سعاد):

- وماله.. وابنك هيجري ورانا ولا هنعبره.

روحية:

- عليا النعمة ده لو كانت آخر بنت في الدنيا عمره ما اخليه يروح لها.

صاحت بهن (فاتن):

- بطلوا خناق يا شوية مجانين.

هتفت (سعاد):

- انتي مش شايفاها بتتكلم ازاي.

ضحكت (فاتن):

- سيبي روحية في حالها يا سعاد.. كفاية المصيبة اللي هي متجوزاها.

ثم التفتت إلى (روحية) وسألتها:

- جوزك عامل معاكي إيه؟

بصقت (روحية) في منديل، وهي تقول:

- قطيعه تقطعه.. أنا هقوم بقى عشان الوقت اتأخر.

وردة:

- لسه بدري.

نهضت (سعاد):

- لا.. فعلًا الوقت اتأخر وفيه حاجة مش مضبوطة بتحصل في البلد.

وردة:

- حاجة زى إيه؟

سعاد:

- انتي مسمعتيش عن موت سيد وأشجان.

وردة:

- آه سمعت.. بيقولوا ان السبب ديب.

(سعاد) باستنكار:

- ومن امتى الديابه بتنزل جوه البلد وتقتل الناس؟

- !

***

صوت عواء ذئب..

كان العرق يغرق وجه وصدر (كرتونة).. كأنه ملاكم في الجولة الأخيرة، وهو يقطع الشوارع ليلًا، حتى وصل إلى مبنى الوحدة الصحية المصمم على شكل حرف (L) الإنجليزي..

أمام باب الوحدة كان يقف شاب وسيم الملامح، حليق اللحية والشارب، يبدو كأحد نجوم أفلام الأبيض والأسود، وهو يقف في اعتــدال، ويـرفع كمـي قميصـه الأزرق، فتظـهر عضـلات ذراعيـه القويتين.

صافحه (كرتونة) وهو يقول بأدبٍ جم:

- معلش يا دكتور ياسر.. اتأخرت غصب عني.

قال الدكتور (ياسر):

- ولا يهمك.. أنا لسه واصل من خمس دقايق.

قال (كرتونة) وهو يزيل القفل من فوق باب الوحدة ثم يفتح الباب على مصراعيه:

- بصراحة مش عاوزك تاخد انطباع عني وحش.. صدقني هتلاقيني زي الساعة معاك.

قال الدكتور (ياسر):

- أنا سامع عنك كل خير.

صعد به (كرتونة) إلى الطابق العلوي وفتح له بابه، وهو يقول:

- دي الاستراحة بتاعة حضرتك.

أخرج الدكتور (ياسر) علبة سجائر أمريكية الصنع ثم أخرج واحدة وأشعلها قائلًا:

- زي الفل.

قال (كرتونة) وهو ينظر إلى علبة السجائر:

- وإن شاء الله كل اللي سمعته عني هتلاقي أكتر منه.. أنا أعجبك.

لاحظ الدكتور (ياسر) عيني (كرتونة) فابتسم وهو يمد له العلبة قائلًا:

- اتفضل.

سحب (كرتونة) سيجارة من العلبة بلهفة:

- يـدوم العز.. مسـتوردة دي.. شكلها أمريكاني.. الأمريكان دول ولاد حرام في كل حاجة.

وكاد أن يشعل السيجارة لكنه توقف واستطرد:

- أنا هخليها لكمان شوية.

غمغم الدكتور (ياسر):

- يا عم اشرب.. فيه غيرها.

قال (كرتونة) وهو يضعها في جيب قميصه بحرص:

- معلش.. دي عايزة رواقه.

ثـم سار والدكتور (ياسر) من خلفه ينقل بصره هنا وهناك في فضول..

وضع (كرتونة) الحقائب في منتصف غرفة الاستراحة وهو يقول بفخر جنديٍّ منتصر في الحرب:

- إيه رأيك في المكان؟

جـال الـدكتور (ياسر) ببصره في الإرجاء قبل أن يقول بصوتٍ خافت:

- مكان لا يصلح إلا للكائنات وحيدة الخلية.

قال (كرتونة) ببلاهة:

- هه.

- لا.. لا.. مفيش.. زي الفل.

كانت الاستراحة مكونة من غرفة نومٍ وبهوٍ وحمامٍ ومطبخ..

غرفة النوم كانت مستطيلة تحتوي على سرير بعرض 120 سم، بجواره (كومود) صغير تعلوه (أباجورة) قديمة لا يوجد بها مصباح، وفي مواجهته يوجد رف معلق، من الخشب السميك، فوقه الكثير من الكتب والمجلات والجرائد القديمة..

البهو حجمه صغير جدًّا أشبه بممر ضيق، وكان في الأصل جزء من غرفة النوم لكن تم اقتصاصها عن طريق بناء جدارٍ فاصل.

حاول عقل الدكتور (ياسر) أن يستوعب هذا الشيء الذي سيعيش فيه، هو لم يكن يتوقع أن تكون الإقامة فندقية والمكان خمس نجوم لكن أيضًا لم يتوقع أن تكون مقبرة.

بدأ (كرتونة) في نفض الأتربة عن الأثاث، وكنس الأرض، بينما سار الدكتور (ياسر) بالجنب داخل البهو الضيق حتى وصل إلى الحمام، وتوقف للحظات أمام بابه المغلق:

- الحمام شغال؟

قال (كرتونة) بثقة:

- كل حاجة شغالة يا دكتور، ادخل وانت مطمن.

فتح الدكتور (ياسر) باب الحمام، فانفجرت في وجهه قنبلة من الروائح والجراثيم القادرة على قتل نصف سكان الكرة الأرضية، وضع يده على أنفه وحاول ألا يفقد الوعي وهو يغلق الباب

بسرعة، ويقول في فزع:

- ده متفتحش من امتى؟

توقف (كرتونة) عن الكنس، ثم فرك منتصف رأسه وأخرج منها حشرة سوداء ورماها بعيدًا:

- بصراحة مش فاكر.. ليه؟

هتف الدكتور (ياسر):

- طيب أنا هسيبك تنضف براحتك، وهروح اقعد على القهوة اشرب كوباية شاي، ولما تخلص رن عليا.

غمغم (كرتونة):

- اللي تشوفه.

ولم يكد الدكتور (ياسر) يهم بالانصراف حتى أردف (كرتونة) بسرعة:

- قول لصبي القهوة انك دكتور الوحدة الجديد عشان يعمل معاك الواجب، ومتدفعش في كوباية الشاي أكتر من تلاته جنية، ولو عصير هما خمسه بس، وأوعى تأكل ساندويتشات من عربية الكبدة اللي واقفة جنب القهوة.

ابتسم الدكتور (ياسر) ساخرًا:

- ليه؟ بيعمل ساندويتشات لحم كلاب.

قال (كرتونة):

- يا ريتها كلاب أو حتى حمير، على الأقل نطمن شوية.. ده بيعمل لحم كائنات فضائية مجهولة.

- متتقلقش.. أنا مش جاي من سويسرا.

- انت منين يا دكتور؟ شكلك ابن ناس قوي.

- من المنوفية.

ردد (كرتونة) باستغراب:

- منوفي! مطلعتش ضابط ليه طيب؟ كان زمانك دلوقتي راكب العربية الجيب ومعلق الطبنجة والناس بتقولك يا باشا.

- أنا أبويا ضابط واخويا الكبير ضابط.. قلت اختلف عنهم.

تهلل وجه (كرتونة):

- يعني على كدا أنا لو اتسحبت مني رخصة العربية ممكن تكلم السيد الوالد أو السيد الأخ الكبير وترجع لي الرخص.

- انت عندك عربية؟

- لا.. بس عشان لو اشتريت في يوم من الأيام.

هز الدكتور (ياسر) رأسه في يأس، ثم غادر وترك (كرتونة) الذي تناول ممسحة وملأ دلوًا بلاستيكيًا كبيرًا بالماء و(الفنيك) وراح يمسح الاستراحة جيدًا.

بعد ساعةٍ من العمل.. (كرتونة) جعل الاستراحة نظيفة مثل جيب

- يا ريتها كلاب أو حتى حمير، على الأقل نطمن شوية.. ده بيعمل لحم كائنات فضائية مجهولة.

- متقلقش.. أنا مش جاي من سويسرا.

- انت منين يا دكتور؟ شكلك ابن ناس قوي.

- من المنوفية.

ردد (كرتونة) باستغراب:

- منوفي! مطلعتش ضابط ليه طيب؟ كان زمانك دلوقتي راكب العربية الجيب ومعلق الطبنجة والناس بتقولك يا باشا.

- أنا أبويا ضابط واخويا الكبير ضابط.. قلت اختلف عنهم.

تهلل وجه (كرتونة):

- يعني على كدا أنا لو اتسحبت مني رخصة العربية ممكن تكلم السيد الوالد أو السيد الأخ الكبير وترجع لي الرخص.

- انت عندك عربية؟

- لا.. بس عشان لو اشتريت في يوم من الأيام.

هز الدكتور (ياسر) رأسه في يأس، ثم غادر وترك (كرتونة) الذي تناول ممسحة وملأ دلوًا بلاستيكيًا كبيرًا بالماء و(الفنيك) وراح يمسح الاستراحة جيدًا.

بعد ساعةٍ من العمل.. (كرتونة) جعل الاستراحة نظيفة مثل جيب

موظف في نهاية الشهر، تذكر السيجارة التي أعطاها له الدكتور (ياسر) حين كان يقوم بغسل وجهه في الحمام، تناولها من جيبه وهو يحدث نفسه:

- كنت هنساكي يا حلوة.

ثم أشعلها وراح يتأمل ملامح وجهه في مرآة الحوض بإعجابٍ، وهو يتحدث مع صورته، فجأة سمع صوتًا:

- كرتونة.

وضع السيجارة على طرف الحوض، ثم جرى بسرعة للخارج، وقد ظن أن الدكتور (ياسر) قد عاد:

- حاضر يا دكتور.

لكنه لم يجد أحدًا، تعجب واندهش، نادى:

- دكتور ياسر.

صدى صوته هو من أجابه.

- يمكن بيتهيألي.

قالها لنفسه وهو يعود إلى الداخل وينقذ السيجارة قبل أن تسقط على الأرض.

- كرتونة.

شعر بتيارٍ كهربائي يسري في جسده هذه المرة مع تكرار النداء عليه، ثم هتف:

- مين ابن الهرمه اللي بيعاكس؟

وبقفزةٍ واحدة كان يقف في البهو، يتلفت حول نفسه ويقول بنفاد صبر:

- مين؟

- كرتونة.

هذه المرة جاء الصوت من الحمام من حيث خرج.

- لا.. كدا حد بيشتغلني.

قالها وهو يعود إلى الحمام.

- كرتونة.

تكرر النداء من الخارج مرة أخرى بطريقةٍ جعلته يصرخ بعنادٍ طفولي:

- عليا النعمة ما انا خارج.

ثم بحث عن السيجارة فوجدها ملقاة على الأرض وقد تحولت إلى أجزاء.. قال بضيق:

- يخربيت ده حظ.

ثم أخرج من جيبه ورقة (السلوفان) التي حصل عليها من (محروس) وغمغم:

- مبدهاش بقى.

كانت ورقة (السلوفان) تحتوي على بودرة بيضاء بها ذرات خشنة زرقاء..

أخرج علبة كبريت أشعل منها عودًا، ثم قربه من الخليط بحذر حتى التقط النار، فاحترق بسرعة مثل الألعاب النارية، نتيجة الاحتراق خرج دخان أبيض كثيف استنشقه (كرتونة).. فدار عقله عدة دورات بهلوانية وحلق وسبح في الهواء حتى لامس السقف، ترنح قليلًا وحانت منه التفاته سريعة إلى المرآة، كان انعكاس صورته في المرآة يبتسم له ابتسامة عريضة قاسية.

- !

***

منزل معتز..

بعد أن انصرفت (روحية، وسعاد، وفاتن) قبعت (وردة) في حجرتها تفكر في زوجها.. هذا العابث لا بد أنه الآن يضاجع سكرتيرته الشمطاء.

أجرت اتصالًا بأخيها (الحاج محروس).. تسمع صوت رنين الجرس ممتزجًا بأغنية دينية قبل أن يرد:

- الو.

قالت:

- أخبارك؟

قال هو يدرك أن هناك مصيبة وراءها:

- أنا تمام.. خير؟

قالت باقتضاب:

- معتز.

سألها بنفاد صبر:

- ماله؟

ردت:

- عماله اتصل بيه مش بيرد عليا.

هتف:

- طيب ده عادي.. تلاقيه بيشتغل.

صرخت:

- لا ده بيتعمد انه يهملني.

حاول أن يهدئها:

- لا إهمال ولا حاجة.. أنا كنت معاه الصبح في المصنع وكان فيه شحنة هتسافر الليلة دي، وأكيد هو قاعد بيخلص فيها دلوقتي.

صاحت:

- وقبل كدا.. كان فيه برضه شحنة.. أنا من ساعة ما شفت

السكرتيرة الجديدة وأنا مش مطمنة.

قال ضاحكًا:

- انتي طول عمرك مش مطمنة.

أحرقتها ضحكته، فقالت بضيق:

- قصدك إيه.. أنا مجنونة مثلًا.

هتف بجدية:

- بطلي أفكار المسلسلات التركي اللي لحست دماغك.. معتز محترم ومش بتاع الحاجات دي.

تهدج صوتها:

- انت بتعمل معايا كدا ليه.. ده بدل ما تروح تتكلم معاه.. انت خايف على الشراكة اللي بينكم.

تنهد:

- شوفي انتي عاوزه مني إيه وأنا هعمله.

خفضت صوتها:

- عاوزاك تكلمه.. تقوله يراعيني وبلاش الإهمال بتاعه ده.

- حاضر.. أوعدك هكلمه.. حاجة تانية؟

- آه.

قال بنفاد صبر:

- اتفضلي.

- عاوزة أشوفك.. انت بقالك فترة مبتجيش تزورني.

قال:

- ما أنا كنت عندك من أسبوعين.

هتفت:

- أفهم بقى يا محروس.. بابا وماما ماتوا من سنين، واختنا الكبيرة هاجرت، وأنا ماليش غيرك.

- عارف والله بس هي مشاغل مش أكتر و...

قاطعته:

- أقولك على حاجة.. هات مراتك وأولادك وتعالوا قضوا معانا يوم الجمعة.

- هشوف كدا.

- لا مينفعش تشوف.. انت تجيبهم وتيجي.. ولادك وحشوني.

- طيب حاضر.

قالت في نبرةٍ حازمة:

- هتيجي.

صاح:

- قلت لك حاضر.

حاولت أن تقول:

- طيب انا...

لكنه كان قد أغلق الخط.

***

الوحدة الصحية..

اقترب (كرتونة) من المرآة أكثر ليتأكد مما يراه حتى كاد وجهه أن يلتصق بها، وهو يغمغم:

- الصنف ده عالي قوي.

كان هناك اثنان منه.. الذي في المرآة، والحقيقي.. لا يفصل بينهما غير السطح اللامع المصقول..

ضرب (كرتونة) المرآة بقبضته فاهتزت صورته للحظة، وعادت إلى ثباتها وطبيعتها، لكن مع عودتها لطبيعتها ظهر في المرآة إناء نحاسي مملوء بالماء، التفت (كرتونة) ناحيته، لم يكن الإناء موجودًا في الحقيقة، عاد ينظر في المرآة، الإناء موجود، جالت بخاطر (كرتونة) فكرة مجنونة، ظل ينظر في المرآة ويستدل بها على مكان وجود الإناء الخفي حتى وصل إليه، مد يده وقبض عليه، بالرغم من أنه كان يقبض على الفراغ لكنه شعر بثقل وبرودة المعدن النحاسي في يده، ضحك في مزيجٍ من الدهشة

وعدم التصديق، ثم حمل الإناء وألقاه، في المرآة يظهر الإناء وهو يطير في الهواء ثم يصطدم بالحائط ويتدحرج، قبل أن يستقر بجوار عجوزٍ مرعبة لها شعر أسود طويل يخفي وجهها، بعد مدةٍ سقط (كرتونة) على الأرض وهو يشعر أنه يهوي داخل غياهب بئرٍ لا ينتهي، رفع جسده بصعوبةٍ وهو يستند إلى حافة حوض الماء وينظر إلى شيءٍ ضبابيٍّ يتشكل على هيئة عجوزٍ بشعة تقترب منه، ثم أغمض عينيه وترك الظلام يسحبه إلى الأسفل.

***

(٧)

ليلة الجمعة..

على مشارف (تل العبيد) كانت توجد أنفاق ومخابئ تحت الأرض لأسلحة دفاعٍ جوي تم استخدامها خلال حرب 73.. بمرور الوقت تم إهمالها وردم معظم الأنفاق ونقل المعدات إلى أماكن أخرى أكثر حصانة وأكثر أهمية..

بالقرب من هذا الموقع كان يوجد النادي الاجتماعي، مبنى مستطيل الشكل تحولت جدرانه العاجية إلى اللون الأصفر بفعل الزمن، تحيط به حديقة صغيرة يشقها طريق مرصوف، قام ببنائه منذ سنوات (الحاج محروس) وجعله حكرًا فقط على طبقة الأعيان وكبار البلد، اعتاد فقراء ومساكين البلد التندر على هذا المكان وإلقاء النكات البذيئة عنه، البعض كان يصفه بدار الحكمة التي كان يجتمع فيها (أبو جهل) وكفار قريش..

النادي من الداخل كان عبارة عن قاعةٍ واسعة للجلوس تتناثر فيها المقاعد والمناضد، يتفرع منها حجرات صغيرة، تم تخصيص كل حجرةٍ منها لغرضٍ ما..

كان يقوم على خدمة وحراسة المكان (عبده).. رجل كئيب الملامح يشبه أحدب نوتردام، له ساق خشبية يدب بها على الأرض باستمرار، وبالرغم من حالته الصحية السيئة كان متزوجًا من ثلاث نساء، لم يكن الحصول على أكثر من زوجة بالأمر الصعب في (تل العبيد).. الفقراء كانوا كثيرين، وما لا تستطيع أن تفعله بالحلال سوف تفعله بالحرام، لكن (عبده) لم يكن يتزوج

من أجل الجنس فقط.. كانت لديه رغبة في جمع ثروة من النساء لتعويض النقص البدني والنفسي الذي يعاني منه.. في المنزل كان هو الإله والحاكم والسيد، وفي النادي هو أحد الجوارب الذي فقد نصفه الآخر في الغسالة.

في هذا اليوم كان (عبده) قد انتهى من تدخين سيجارة البانجو المعتادة، وبدأ في تجهيز المكان استعدادًا لقدوم (محروس) والآخرين.. قام بنفض الأتربة عن المقاعد، ومسح المناضد بالمنظف جيدًا، ثم أحضر (فواحة بخار) ووضع فيها الماء وبعض العطر وانتظر حتى تأكد من خروج الرائحة منها ثم تركها، توقف للحظات أمام التلفاز الذي كان يعرض حلقة من مسلسل المال والبنون، ثم التفت إلى تمثالٍ برونزي عبارة عن تقليدٍ سيئٍ لتمثالٍ فرعونيٍّ شهير تتقاطع ذراعاه أمام صدره.. حدق في التمثال بعينين ثاقبتين، وهو يقول:

- انطق بقى.. الحاج محروس قال انك لو نطقت هيديني نص ثروته.

التمثال ظل على صمته، و(عبده) ينظر إليه في أملٍ قبل أن يصفعه:

- ولا عمرك هتنطق.

حين اقتربت الساعة من العاشرة مساءً، بدأ توافد الأعضاء، أسرع (عبده) يرحب بالقادمين، كان يعرفهم بالاسم ويعرف طلبات كل شخصٍ منهم ويضعها لهم مباشرة قبل أن يطلبوها..

معظم الحاضرين يتميزون بالصمت وقلة الكلام، المحادثات بينهم

كانت قليلة، جاءوا إلى هنا هربًا من ضجيج العمل والمنزل والناس وحتى ضجيج أنفسهم، بعد قليلٍ أصبح السقف مخزنًا كئيبًا لدخان السجائر والأحاديث الجانبية بين أصحاب النعمة، أشار أحدهم إلى (عبده):

- شغل لنا حاجة للست.

في لمح البصر وقبل أن يعتدل القائل في جلسته، كان صوت (أم كلثوم) يتردد من خلال السماعات الحديثة التي تم تركيبها منذ شهر على يد مهندسٍ متخصص في أنظمة الصوت..

ذهب (عبده) وقام بتغيير العطر في الفواحات، ثم اتخذ مجلسًا في الركن يراقب الموجودين دون أي تعبير على وجهه، لا تعرف هل هو سعيد، حزين، مهتم، غير مبالٍ.. كان فقط يجلس وينتظر.

بعد مدةٍ دخل (الحاج محروس) إلى النادي وهو متجهم الوجه، وما أن شاهده (عبده) حتى هب واقفًا من فوق كرسيه وأسرع لاستقباله والترحيب به:

- مساء الخير يا حاج.

رد عليه (الحاج محروس) باقتضابٍ، ثم جلس على كرسيٍّ ضخم في نهاية القاعة أمام نافذةٍ زجاجية تطل على الطريق، وأشعل سيجارة راح يدخنها في هدوءٍ وهو يتأمل أنوار السيارات التي تومض بين الحين والآخر على الطريق الدولي السريع..

بعد خمس دقائق كان (عبده) يضع أمامه فنجان قهوته المعتاد:

- قهوتك يا حاج.

سأله (الحاج محروس):

- سمعت عن موضوع سيد.

هز (عبده) رأسه بالإيجاب:

- آه.. ده البلد كلها بتتكلم عنه.. بيقولوا انه اتقطع.

- ديب ده ولا سلعوة؟

- محدش عارف.. بس بيتهيألي دي عملية انتقامية.. الواد ده كانت أخلاقة مش ولابد.. وسمعت انه كان بيجيب نسوان في البنزينة.

- يمكن...

انتظر (عبده) أن يكمل (الحاج) كلامه لكنه لم يفعل، فقال وهو يستعد للانصراف:

- تأمرني بحاجة تانية؟

- لا.

قالها (الحاج محروس) ثم انتظر حتى ابتعد (عبده) وتناول هاتفه المحمول وأجرى اتصالًا:

- انت فين؟

جاءه صوت (معتز) من الطرف الآخر:

- خمس دقايق بالضبط وهبقى عندك.

بعد ربع ساعة كاملة، كان (معتز) يدخل من بوابة القاعة وهو يضع يده اليسرى في جيب بنطاله ثم يتوجه مباشرة إلى حيث يجلس (الحاج محروس) قائلًا:

- آسف على التأخير.

سحب مقعدًا وجلس في مواجهة (الحاج محروس) الذي قال له:

- ولا يهمك.. عندي موضوعين عاوز أكلمك فيهم.

- قول.. أنا معاك.

- الموضوع الأول.. مشكلة التصدير لأمريكا عاوزين نلاقي لها حل.. كل شوية نتعطل.

قال (معتز):

- تبع اتفاقية الكويز اللي أبرمتها الدولة سنة 2004 لازم جزء من المنتج يكون إسرائيلي بنسبة 10.5%.. ملهاش حل تاني، وانت اعترضت عليه.

- أنا مش معترض على الحل ده، أنا مشكلتي معاه إن البلد هنا فيها شهداء كتير من أيام الحرب مع اليهود، والموضوع ده لو اتعرف هتحصلنا مشاكل.

هتف (معتز):

- ولا هيحصل أي حاجة.. انت مكبر الموضوع.. ما دام فيها فلوس كله بيتنسي.

عبث (الحاج محروس) بلحيته قائلًا:

- الناس هنا مش بتنسى ومبتتغيرش.

قال (معتز) بسخرية:

- قولي حاجة واحدة في البلد دي مينفعش الفلوس تغيرها.. وبعدين احنا هنستورد من إسرائيل جزء بسيط.. ممكن نستورد الإكسسوارات.. وأنا عارف ناس توصلنا لهم.. إيه رأيك؟

- شركة مين؟

- شركة اسمها القدس.. لها فرع أصلًا في مصر.. بس إحنا هنتعامل مع الفرع الإسرائيلي.

- طيب تمام.. خلص لنا الموضوع ده.

- اعتبره خلص.

جاء (عبده) وهو يحمل (شيشة) وفنجان قهوة.. وضع القهوة أمام (معتز) ثم ناول (مبسم الشيشة) إلى (الحاج محروس) وانصرف في صمت.

سأل (معتز):

- إيه الموضوع التاني؟

أشار (الحاج محروس) إلى فنجان القهوة قائلًا:

- اشرب قهوتك الأول.

أمسك (معتز) فنجان القهوة، ورشف منه رشفة صغيرة ثم وضعه على الطاولة:

- خير؟

أجاب (محروس) بعد أن سحب نفسًا عميقًا من (الشيشة) ونفثه على دفعات:

- وردة بتشتكي منك.

تنهد (معتز):

- وهي من امتى مش بتشتكي؟

- اسمعني بس.. لما الست تكرر شكوتها من الراجل يبقى الموضوع كبير.

- وردة عامله زي اللي على راسها بطحة وبتحسس عليها.. طول الوقت حاسة اني هاسيبها وهتجوز.. والنعمة ما هتجوز.. والقرآن ما هتجوز.. والإنجيل ما هتجوز.. مش عارف اعمل إيه عشان تصدق.

رد (محروس) بهدوء:

- كلمها بالراحة.. بلاش تتعصب في وشها.. اقضي وقت معاها بدل ما انت طول الوقت في المصنع.

رفع (معتز) كلتا يديه:

- انت شايف الشغل عامل ازاي.

- ما انا عشان شايف الشغل عامل ازاي، بقولك اقضي وقت معاها.

- أخلص موضوع شركة القدس والتصدير، وهاخد وردة ونقضي يومين في إسكندرية.

- كمان السكرتيرة اللي عندك.

زفر (معتز):

- مالها دي كمان.

- بلاش سكرتيرة.. هات راجل مكانها أحسن.

قال (معتز) بضيق:

- لاااا.. كدا الموضوع زايد عن حده، أنا...

قاطعه (محروس):

- أنا معنديش اعتراض، المهم هي تكون مزاج بس، مش نظام زوجة تانية.

فجأة اقتحم القاعة رجل أعمى، وهو يصرخ:

- هنموت كلنا.

صوت أزيزٍ حاد يتردد في آذان الجميع.

***

قبل ذلك...

منزل الشيخ (عرفة)..

تقريبًا لا يوجد أحد من أهالي البلد إلا ودخل هذا المنزل مرة أو مرتين، المنزل كان متين الجدران، له بوابة حديدية ضخمة، ورصيف صغير من الرخام المصقول، لم يكن المنزل ذو ارتفاعٍ شاهق كما قد يتخيل البعض لكن على العكس كان متوسط الارتفاع مكونًا من طابقين فقط.. الطابق الأول كان معدًّا لاستقبال الزبائن والضيوف، أما الطابق الثاني فقد كان مخصصًا للمعيشة..

تحركت بوابة المنزل الحديدية وعبر منها رجل كهل وسار حتى وصل إلى الشيخ (عرفة) الذي كان يفترش الأرض فوق سجادةٍ بسيطة، ويستند على وسادةٍ متوسطة الحجم ويمسك في يده مسبحة طويلة ذات مئة حبة، يتمايل معها يمينًا ويسارًا وهو مندمج في التسبيح والتهليل والتكبير..

كان الشيخ (عرفة) في الثلاثينات من العمر، نحيف الجسد، خفيف شعر الرأس، له زبيبة صلاة كبيرة في منتصف جبهته، ولحيته بيضاء قصيرة.

(كان رجل بركة) كما يقال..

شهرته الدجل والسحر وفك الأعمال.. وأحيانًا صناعتها.. ورث العلم عن والده، والذي بدوره ورثها عن والده، وهكذا دواليك حتى نصل إلى الأصل وهو ساحر قديم من المغرب، كان الشيخ (عرفة) أعمى البصر، لهذا يمكن تفسير سر النظارة السوداء قبيحة الشكل التي يرتديها، حين يسأله البعض عمَّ إذا كان يرى

سوادًا أم ماذا؟ كان يخبرهم أنه لا يرى شيئًا على الإطلاق، الحقيقة هو أنه لم يكن يكذب فلقد ولد أعمى ولم يكن يفهم معنى الرؤية، لا يعرف ما هو اللون الأسود أو الأبيض أو الأحمر، حين يتحدث أحد أمامه عن تفاحة مثلًا هو لا يرسمها في مخيلته كشيءٍ أحمر أو أخضر، كل ما يعلمه عنها طعمها فقط، أحلامه كانت مثل المسلسلات الإذاعية مجرد أصوات بدون صورة.

قال الرجل الكهل:

- السلام عليكم.

رد الشيخ (عرفة) بلهجةٍ ثقيلة ورثها عن والده:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- إزيك يا شيخ عرفة.

قال الشيخ (عرفة) وهو يدرس الصوت جيدًا:

- مين.. إبراهيم أبو (بديعة)؟

قال الرجل وهو يجلس بجواره:

- أيوه يا شيخ.. كويس انك لسه فاكرني.

قال الشيخ (عرفة) وهو يمد يده ليصافحه:

- وهوا في حد ينسى الناس الطيبة اللي زيك.. اقعد يا حبيبي.

جلس (أبو بديعة) بجوار الشيخ (عرفة) على الأرض، وزفر زفرة

طويلة تنم عن أشياءٍ كثيرة.. تعب، يأس، حزن، ضيق.

أسرع الشيخ (عرفة) يقول:

- خير يا حبيبي.

قال (أبو بديعة) بوجهٍ عبوس:

- والله أنا مش عارف أبدًا إزاي يا شيخ ولا عارف أقول إيه.

كان بجوار الشيخ (عرفة) صحفة فوقها زجاجة عصير وبعض الأكواب الزجاجية، تناول الزجاجة وصب منها في أحد الأكواب، ثم ناول الكوب لـ (أبي بديعة) قائلًا:

- اشرب الأول وبعدين قول اللي يجي على بالك.. أنا كلي آذان مصغية.

شرب (أبو بديعة) نصف الكوب قبل أن يقول:

- انت عارف ان بنتي (بديعة) متجوزة من (رضوان) وان بنتهم وفاء ضاعت من حوالي شهرين ومش عارفين لها أثر.

- أيوه عارف.

- ده اللي الناس عارفاه، لكن اللي احنا مقلناش عليه ان (بديعة) حاولت تنتحر من كام يوم ولولا ستر ربنا كانت ماتت، مقلناش كدا عشان منوقفش سوق أخواتها البنات.. المهم ان الندل جوزها رماها عندنا، وسمعنا انه راح يتجوز بنت من بلد جنبنا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- أنا قلت بنتي تقعد عندي ملكة لغاية لما أموت.

- يديك طولة العمر يا حبيبي.. كمل.

- لما (بديعة) قعدت عندنا، نفسيتها بدأت تتحسن شوية.. وبدأت تتكلم وتقول كلام أول مرة نسمعه منها.. كانت بتقول ان قبل ما بنتها تختفي كانت بتشوف واحدة ست عجوزة ضهرها محني وعينيها مشقوقة بالطول.

انتبه الشيخ (عرفة) جيدًا عند تلك النقطة، فسأل (أبا بديعة):

- ظهرت لها مرة واحدة؟

-لا.. في الأول بقت تسمع خبط على الباب بالليل، وبعدين بقت تشوفها.. مرة في الصالة، مرة في الحمام.

- كانت بتتكلم معاها.

- معرفش.. وبصراحة أنا كنت واخد كلام (بديعة) انه تخاريف أو أوهام بسبب الزعل ومحطتش في دماغي.. وفي يوم أنا كنت نايم، فتحت عيني على صوت حد بيهمس جنب مني.. بصيت حواليا لقيت جنب مني واحدة ست عجوزة نفس الأوصاف اللي قالت عليها (بديعة).. كانت مربعة إيديها ورجليها، شعر جسمي كله وقف من الخوف.. لسه جاي اقرأ آية الكرسي لقيت ضرب شديد في جسمي، ضرب كأن حد ماسك سكينة أو حجر وعمال يضرب في ظهرى وبطني.. ومن قوة الضرب والألم فقدت الوعي.

تـوقف (أبـو بـديعة) عـن الكـلام ثـم أمسـك يـد الشـيخ (عرفـة) ووضعها على بطنه بعد أن كشفها قائلًا:

- عملت كدمات كبيرة في جسمي.

- لا إله إلا الله.. ده شيء مؤذي ملعون.

غطى (أبو بديعة) بطنه، وعاد يقول:

- لسه الموضوع مخلصش.

- طيب كمل يا حبيبي.

- أنا طبعًا مرضتش أقول لحد في البيت على اللي حصل عشان محدش يخاف وعشان برضه (بديعة) حالتها متتدهورش.. المهم بعد كام يوم أنا كنت داخل الحمام شفت آثار رجلين زي رجلين الغنم أو الخرفان.. طبعًا احنا مفيش عندنا حاجة من دي.. فجأة سمعت صوت جاي بينادي عليا.. كان صوت (بديعة).. رحت على أوضتها وفتحت الباب ودخلت.. أول لما دخلت، الباب اتقفل ورايا، والأنوار كلها انطفت.. حسيت بشيء تقيل فوق صدري واني مش قادر أتنفس، وبعد لحظات حسيت بإيدين بتتحرك فوق ضهرى لغاية رقبتي، وبتلف زي الثعبان.. رميت نفسي بسرعة ووقعت على الأرض.. النور رجع، بصيت لقيت شيء فوق سرير (بديعة) ومتغطي بالبطانية.. البطانية كانت عمالة تتهز، صوت (بديعة) جاي من تحتها، لكن صوتها كان بطيء وخشن.. مديت إيدي ناحية الغطاء وكشفته.. شفت وفاء بنت (بديعة) ملفوفة في كفن أبيض، وعلى جبينها منقوش كلام مقلوب، وكانت فيه دبابيس مغروزة في عينيها وخدودها.. مستحملتش وجريت بره الأوضة، وولعت كل أنوار الشقة وشغلت إذاعة القرآن الكريم وجيت لك جري.

انتهى (أبو بديعة) من كلامه وانتظر تعقيب الشيخ (عرفة) لكن لا تعقيب..

كان الشيخ (عرفة) يتصرف بغرابةٍ شديدة.. يهتز يمينًا ويسارًا مثل بندول الساعة، وهو يتصبب عرقًا ويجاهد من أجل تحريك حبات مسبحته، حين صرخ في الهواء:

- ابعدي...

- !

***

بعد ذلك...

النادي الاجتماعي..

الجميع يحيط بالشيخ (عرفة) في قلقٍ وتوترٍ وارتباك.

- بتقول إيه يا شيخ؟

أصغى الشيخ (عرفة) إلى الصوت، ثم قال:

- أنت الحاج محروس.. مضبوط.

قال (الحاج محروس):

- أيوه.. خير.. بالراحة كدا.

تحدث الشيخ (عرفة) بسرعة:

- البلد حل عليها غضب من ربنا.. ربنا نزل علينا العذاب زي قوم لوط وصالح.

هتف (معتز):

- ربنا بعد قوم سيدنا يونس مبقاش ينزل عذاب على حد.. سمعت ده في خطبة الأسبوع اللي فات.

أصغى الشيخ (عرفة):

- أنت بتشكك في كلامي يا باشمهندس.. وما أمر سيد وأشجان منكم ببعيد.

زجر (الحاج محروس) (معتزًّا) بنظرةٍ حادة حتى يصمت، ثم عاد يقول للشيخ (عرفة):

- الشرطة بتقول إن فيه ديب في البلد.

صرخ الشيخ (عرفة):

- لاااا.. هي اللي قتلتهم.. الملعونة قتلتهم.

صاح (الحاج محروس) بغلظة:

- هي مين.. اسمها إيه؟

دار الشيخ (عرفة) بوجهه بين الجميع كأنه يراهم قبل أن يثبت وجهه تجاه (الحاج محروس) قائلًا:

- اسمها...

- !

***

قبل ذلك...

منزل الشيخ (عرفة)..

المشهد كالتالي.. (أبو بديعة) مندمج تمامًا في سرد حكايته بينما الشيخ (عرفة) يصغي إليه بإنصاتٍ شديد..

حولهم كانت توجد هالة خضراء على هيئة قوسٍ تحيط بهم، أسفل السجادة التي يجلسون عليها كانت توجد دائرة واسعة تمتلئ بالطلاسم، هذه الدائرة هي مصدر تلك الهالة الخضراء والتي هي في الأصل حصن من صنيع الشيخ (عرفة) كي تحميه هو ومن معه من إيذاء الجن، خارج تلك الهالة الخضراء كانت تجلس المرأة العجوز تحدق فيهم وتبتسم في قسوة، مع استمرار (أبي بديعة) في روايته، زحفت على ركبتيها واقتربت منهم، توقفت على حافة الهالة، ثم مدت يدها ببطءٍ، ارتعشت الهالة وتغيرت ألوانها، الألم ظهر على وجه العجوز، استشعر الشيخ (عرفة) اقترابها، راح يحرك حبات مسبحته، لم تكن مسبحة عادية، كل حبةٍ كان مكتوب فوقها اسم ملك من الملائكة، يحرك حبات المسبحة بسرعة حتى يصل إلى نهايتها لتقوية الهالة التي تحيط بهم، تبرز عروق العجوز في عنقها ثم تعبر برأسها، لحظة وصارت في المنتصف بين الشيخ (عرفة) و(أبي بديعة).. ثم قبضت على يد الشيخ (عرفة).. تصبب العرق على وجهه وهو يشعر بسخونة أصابعها، دماؤه تتجمع تحت قبضتها، كاد أن يفقد

التحكم في نفسه ويفقد الوعي، بصعوبةٍ استجمع آخر طاقته ثم حرك آخر حبة في المسبحة وصرخ بها:

- ابعدي...

- !

قذفتها صرخته في الهواء ثم تلاشت كالسراب..

قال (أبو بديعة):

- خير يا شيخ عرفة؟

تنفس الشيخ (عرفة) الصعداء حين قال:

- الحمد لله.. خير إن شاء الله.

ثم صمت للحظةٍ قبل أن يقول:

- اسمعني كويس يا حبيبي.. أنت معاك أثر لبنتك، صح؟

هز (أبو بديعة) رأسه وأخرج من جيبه منديلًا أخضر اللون، ووضعه بين يدي الشيخ (عرفة) وهو يقول:

- مضبوط.. قلت ممكن تحتاجه، لأن بيني وبينك أنا حاولت اجيبهالك لكنها مرضتش، بس أنت عرفت ازاي؟

قال الشيخ (عرفة) بتجهمٍ وهو يأخذ منه المنديل:

- مش مهم عرفت ازاي.. اعمل حسابك أنا بكره هجي لك البيت.

- ياااااه.. أنت بنفسك يا شيخ عرفة.

أحرق الشيخ (عرفة) المنديل، فقال (أبو بديعة):

- ليه كدا؟

- أنا عارف أنا بعمل إيه.. المنديل خلاهم يدخلوا معاك بيتي.

- هما مين؟

قال الشيخ (عرفة) بغلظة:

- مش مهم تعرف حاجة دلوقتي.

ثم نهض مستندًا على عكاز كان بجواره:

- أنا هدخل أجيب لك حجاب تدية لبنتك تلبسه.

حاول (أبو بديعة) أن يعاونه:

- طيب أساعدك في حاجة.

ابتسم الشيخ (عرفة):

- يا حبيبي أنا بشوف أحسن منك.. خلي بالك عشان مش تدوس على الصينية.

لاحظ (أبو بديعة) أنه كان على وشك أن يضع قدمه فوق (الصينية).. فقال:

- ربنا ينور بصيرتك.

سار الشيخ (عرفة) تجاه غرفةٍ صغيرة بابها مغلق، تحسس مقبض

الباب النحاسي ودخل، كانت الحجرة تغرق في الظلام لكن هذا لم يكن يشكل فارقًا عنده، من ورائه، ومن وسط الظلام انفصل جزء، تجمع هذا الجزء واتخذ هيئة آدمية، رأس وجذع وساقين، الملامح غير واضحة لكن العينين كانتا تثقبان الظلام وبشدة، الشعيرات الدقيقة التي في جسد الشيخ (عرفة) انتصبت واقفة كإبرٍ صغيرة، الظل تشكلت له يد طويلة جدًا، واقتربت من منتصف عنق الشيخ (عرفة).. تكونت أصابع لليد، ثم خرجت منها أظافر حادة، انتفخ الوريد الأيسر لعنق الشيخ (عرفة) وارتفعت نبضات قلبه فالتفت للوراء، وقال بحدة:

- عارف انك موجودة لسه.

تراجع الظل إلى الخلف كأنما تمت مباغتته..

للحظات ظل كلاهما في مواجهة الآخر..

الشيخ (عرفة) والظل..

صوت همس..

صوت نبضات..

- انتي مين؟

قالها الشيخ (عرفة) فتلوى الظل قليلًا، قبل أن يتشكل على هيئة العجوز مرة أخرى..

دارت حول الشيخ (عرفة) ببطءٍ، لمست خصلة من لحيته، ونتفت منه شعرة بيضاء فاحترقت في يدها، ثم قالت بصوتٍ مبحوح:

- (الدويس).

وغاصت داخل ظلام الغرفة كأنها حية رقطاء.

***

بعد ذلك..

النادي الاجتماعي..

- اسمها الدويس.

قالها الشيخ (عرفة) وصمت للحظةٍ قبل أن يستطرد:

- وناس بيقولوا عليها السوداء.

صاح (عبده):

- يعني دي إيه.. شيطانه ولا جنية ولا إيه بالضبط؟

أخرج الشيخ (عرفة) مخطوطة قديمة من طيات ثيابه قائلًا:

- اقرأ اللي فيها وسمع اللي موجودين.

تناول (الحاج محروس) المخطوطة، وبدأ يقرأ:

- روي أن نبي الله (سليمان بن داوود) عليه السلام، بينما كان مع جماعةٍ من أصحابه ذات يوم، فإذا بعجوزٍ ملعونة، ناشرة شعرها، فاتحة فمها، رافعة يديها، مصفرة أسنانها، ومن أنفها دخان ونار، تبحث الأرض بأنيابها، وتقطع الشجر بأصواتها ،عيناها كالبرق الخاطف، وصوتها كالرعد القاصف..

تعجب النبي (سليمان) منها وقال لها:

- من أنت؟ من الجن أم من الأنس أم من الشياطين؟

قالت:

- أنا سخرني ربي وسلطني على بني آدم، ندق عظامهم ونأكل لحومهم ونشرب دماءهم.

قال:

- إنا نسجنك تحت الأرض في سبع طبقاتٍ ونذيب عليكِ النحاس والرصاص، ولأذيقنك عذابًا شديدًا وشرابًا صديدًا.

قالت:

- يا نبي الله، لا تعذبني بهذا العذاب فإنني مأمورة فيما أفعل، ولا أفعل إلا فيمن ظلم نفسه.

قال:

- فما اسمك؟

قالت:

- لي أربعة وعشرون اسمًا: جلوش، غبروش، حراش، حواش، هيموش، فمروش، قوش، شعوش، مرتلوش، هربقوش، حربعوش، أم بصيل، أم ملدم، سلوهموش، نقوس، برقوس، بردم، بنت الريح، بنت الرياح، بنت الهمام، بنت الوهيم، التابعة، السوداء، الدويس.

قال:

- لا أتركك حتى تعطيني عهدًا وميثاقًا على أنكِ لن تؤذي أحدًا من مخلوقات الله تعالى.

قالت:

- حبًّا وكرامة خذ مني هذا العهد.. بسم الله الرحمن الرحيم، وحق الله الذي لا إله إلا هو، الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيءٍ عليم، أنني لن أقرب بني آدم، والله على ما أقول وكيل وشهيد وكفيل.

طوى (الحاج محروس) المخطوطة بعدما انتهى من قراءتها، وهو يقول بحدة:

- كلها إسرائيليات، ملهاش أساس من الصحة، وخرافات ألف ليلة وليلة، وحرام نفتري بيها على أنبياء الله.

اتفق كل الموجودين مع كلام (الحاج محروس) ووصفوا الأمر بالهراء، نحن في القرن الحادي والعشرين ولا مجال للجن أو العفاريت، إن خبرًا مثل ارتفاع أسعار المحروقات كان ليسبب ذعرًا أكثر من ذلك.

صاح الشيخ (عرفة):

- افضلوا اضحكوا لغاية لما تظهر لكم.

هتف (معتز):

- طيب وبفرض ان الحكاية دي حقيقية.. هي خدت على نفسها عهد.. إيه اللي حصل بعد كدا بقى.

قال الشيخ (عرفة):

- بعد لما مات سيدنا سليمان، الجن أخفوا العهود اللي خدوها على نفسهم، ومن ضمنهم العهد ده.

خرجت بعض الضحكات المكتومة، فصاح الشيخ (عرفة) وهو يغادر:

- أنا أنذرتكم.

هتف به (الحاج محروس):

- تحب أبعت معاك حد يوصلك.

- لا.. (أبو بديعة) ينتظرني في الخارج.. هو اللي وصلني هنا.

بعد أن انصرف قال (الحاج محروس) مخاطبًا الجميع:

- الراجل ده مجنون متصدقهوش.. أنا عارف شغل الدجالين والغجر.

قال (معتز) وهو يعود إلى مقعده مثل الجميع:

- آه والله شوية نصابين.

ابتسم (الحاج محروس) في سخرية:

- بس ظريف.. عمل شوية إثارة.

ثم نادى (عبده) وطلب منه فنجان قهوة قبل أن يعود ليقول وهو يقترب من النافذة:

- لازم بعد كدا نجيب بواب يقف على النادي عشان مش أي حد يدخل كدا والسلام.

ثم أزاح ستار النافذة لينظر إلى الطريق..

لكنه لم يرَ الطريق..

بل على العكس تراجع إلى الوراء وهو يشهق..

كانت (الدويس) تلصق وجهها بزجاج النافذة من الخارج، وتنظر له في ثباتٍ دون أن ترمش عيناها.

***

(٨)

أيام كثيرة مضت بعد تلك الليلة..

(معتز)

انتهى من توقيع اتفاقية استيراد مواد خام من إسرائيل، وبعدها قام بتوقيع اتفاقية تصدير منتجات المصنع إلى أمريكا، وانتظر الانتهاء من إرسال أول شحنة والتأكد من جودتها، ثم سافر مع (وردة) إلى الإسكندرية، اختار أحد الفنادق الشهيرة التي تمتلئ بالأجانب أكثر من المصريين، لسببٍ ما كانت (وردة) تشعر بالغربة وعدم الألفة في هذا الفندق، رغم ذلك حاولت أن تمضي الأيام..

في النهار كانا ينزلان إلى البحر، أو يجلسان على الشاطئ يستمتعان برائحة اليود والشمس الدافئة، الليل كانا يقضيانه في التنزه والذهاب إلى المطاعم والتسوق.. قامت (وردة) بشراء أشياءٍ لا فائدة منها، كانت إجازة مثالية يحلم بها الكثيرون، لكن (معتز) سرعان ما أصابه الملل، حاول أن يخفي ذلك بقدر ما يستطيع، لكن (وردة) شعرت به جيدًا، ولأنها شخصية صدامية فلم تحاول أن تتجاوز الأمر، لتنتهي الرحلة بشجارٍ بينهما قبل أن يعودا إلى الديار..

بعد العودة ازداد (معتز) انعزالًا وانشغالًا في العمل، وحتى يثبت لـ (وردة) أنه لا يعبأ بها، وأنه لا يستطيع أحد أن يلوي ذراعه أو يفرض عليه أمرًا حتى لو كان أخاها، قام بإحضار سكرتيرة إضافية لتصبحا اثنتين..

كان هذا كفيلًا بتحويل (وردة) إلى كائنٍ متوحش هائج، وأخيرًا اتخذت قرارًا جريئًا ثوريًا، سوف تترك له المنزل، وقد كان.

(كمال)

تأقلم على العمل الجديد، وبمرور الوقت استطاع أن يكتسب الثقة، لم يكن العمل شاق وكان زملاؤه على قدرٍ من الطيبة والود، حيث شعر أنه يعرفهم منذ أعوامٍ طويلة..

كان الفراغ يأكل (محمدًا) من الداخل والخارج، ومع استمرار الأيام بدأت تظهر مشاكله، لاحظ (كمال) أن (محمدًا) لم يعد يشتكي من بقائه وحيدًا، السبب جارتهم (عايدة).. كان (محمد) يذهب إليها بعد الظهيرة ليجلس معها، المسكين كان يفتقد الأم وتقريبًا هو قد عثر على أقرب شبيهٍ لها، لم يمانع (كمال).. بل على العكس حاول أن يوطد علاقته بـ (عايدة).. كانت على طبيعتها وغير متصنعة، علم أنها غير متزوجة، ثم بعد فترةٍ تجرأ وطلب منها أن يجلسا سويًا في مكانٍ هادئٍ للحديث، فوافقت..

ثم كان اللقاء بينهما متوترًا والكلام من نوع (لأن، وهذا، وأعتقد، وسوف) مزيج من العبارات المليئة بالحرج ومحاولة كسر الصمت، بعد لقاءين آخرين تكونت لدى (كمال) رغبة قوية، كان يريد الزواج من (عايدة).

(كرتونة)

بعد أن عثر عليه الدكتور (ياسر) فاقدًا الوعي في الحمام، شعر بالخجل من نفسه، وأقسم بالله على ألا يقرب المخدرات مرة أخرى..

لحسن الحظ لم يكن لدية خيار آخر، فقد كانت نقوده قليلة ولا يستطيع الشراء..

خلال تلك الأيام ولسببٍ ما لم يفصح عنه، بدأ في الاكتئاب والصمت والجلوس وحيدًا، الوحيدة التي انتبهت له كانت (سعاد).. وذات يومٍ طلبت منه إحضار مدخراتها التي لديه، لم يكن يتوقع أنها ستطلبها بمثل تلك السرعة، لكنه لم يتأخر ولم يسألها عن السبب وإن كان قد توقع أن يكون زوجها هو السبب..

قام بجمع كل النقود ووضع عليها أيضًا كل مدخراته وأعطاها لها عن طيب خاطر..

في اليوم التالي فوجئ بها تزوره وتأخذه من يده كطفلٍ صغير إلى منزل والد (هدى) وتطلب زواجه منها، شعر بالصدمة والفرح في آنٍ واحد، لكن من أين يحصل على نفقات الزواج؟

كانت المفاجأة هي النقود التي ادخرتها (سعاد).. لقد أعطتها لأهل العروس كمهر، ثم طلبت منهم شراء الأثاث والأجهزة، وتم الاتفاق على الزواج بعد سنة ريثما ينتهي هو من تجهيز شقته..

بعد أيامٍ من الخطبة فاض الكيل بـ (سعاد) من زوجها، واستطاعت أن تحصل على الطلاق منه بعد مشوارٍ قصير في أروقة المحاكم، وبعد أن قام (كرتونة) بالحديث مع زوجها رجلًا لرجل، ونكزه في معدته بمطواة قرن غزال.

الدكتور (ياسر)

أصبح لا يغادر الوحدة الصحية إلا فيما ندر، وكان المرضى لا

يتوقفون عن المجيء والذهاب..

في البداية كان هناك انطباع مبدئي عنه أنه مغرور وشخص لزج، لكن بمرور الوقت وبعد الكثير من التعامل بينه وبين الأهالي، أصبحوا يقولون عنه أنه طبيب ماهر ويتسم بالطيبة والأخلاق القويمة..

أيضًا وسامته كانت سببًا في جذب فتيات البلدة، تقريبًا صار فتى أحلام كل الفتيات، كن يذهبن للكشف عنده بحججٍ مختلفة..

- دكتور أنا أشعر بصداع، ولدي ألم في سن العقل. ماذا؟! لا يوجد ما يسمى سن العقل وإنما ضرس العقل، إذًا لنجعله سن القلب حتى تسمع دقاته.

- دكتور لا أستطيع السير سوى لمسافة 20 كيلومتر فقط ثم أشعر بالتعب.. هل هذا طبيعي؟

- دكتور، أعتقد أنني مصابة بالسكر، الجميع يقول لي أن دمي شربات.

- دكتور، هل يوجد لديك دواء لجلب الحبيب؟

الشيخ (عرفة)

ربما كان هو الوحيد الذي ظل يعيش في حالةٍ من الخوف.. صحيح أن هناك هدوءًا يسود المدينة ولم تحدث أي حوادث جديدة، لكن كان لديه اعتقاد أن هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة..

ذهب إلى (بديعة) وجلس معها أكثر من ساعتين، وحاول الوصول إلى تفسيرٍ أو سببٍ لظهور (الدويس) لكنه فشل.. بحث طويلًا في كتب السحر التي لديه، ثم حاول اللجوء إلى بعض الشيوخ الآخرين الأكثر منه باعًا في هذا العالم وأخبرهم بما جرى.. كان هناك شبه اتفاقٍ منهم أن لا يتدخل في هذا الأمر وأن ينأى بنفسه عنه، كلامهم كان دليلًا قويًا على أن هناك شيئًا خطيرًا سيحدث، لكن ما هو؟ رفضوا جميعًا الإفصاح عنه، ذهب إلى (الحاج محروس) الذي لم يخبر أحدًا أنه رأى (الدويس) وأقنع نفسه أنه مجرد وهم أو خيال، عرض عليه مخاوفه وطلب منه تنبيه أهل البلد من الخطر الذي يحيق بهم، لم يكن الرفض أو الاستنكار هو ما قابله من (الحاج محروس).. كان الرفض والاستنكار وأيضًا التهديد بالقتل في حالة نشر الخبر وإثارة الذعر في البلد.. كان التهديد جادًّا جدًّا، والجميع يعلم أن (الحاج محروس) لا يلقي تهديدات جزافية، وأنه يقصد وقادر على تنفيذ كل كلمةٍ ينطق بها..

فيما بعد وبالصدفة البحتة قام الشيح (عرفة) بالتواصل مع أحد الروحانيين المستنيرين الذين يعرفون في علم الرمل، لمن لا يعرف (علم الرمل) هو تقنية سحرية لاستقراء الغيب وحفظ الأسرار، وسمي بـ (علم الرمل) لأنه كان يستعمل على الرمل، ويتم عن طريق رسم خطوطٍ في الرمال بالقدمين أو بقطعة زجاج، كانت وجهة نظر الرجل المستنير أن هناك من أحضر (الدويس) وأطلقها على أهل البلدة، ثم أعطى للشيخ (عرفة) حجابًا ولوح زجاجٍ شفاف، وأخبره بطريقةٍ يستطيع من خلالها معرفة من قام بتحضيرها، كما طلب منه أن يقوم بحرق جثة (سيد، وأشجان)

وشــدد علـى هـذا الطلـب بالـذات، وبـالفعل قـام الشـيـخ (عرفـة) بمعاونة بعض الرجال الذين يدينون له بمعروف، بنبش قبر (سيد، وأشــجان) ثـم سـرقوا الجثـتين وأحرقوهمـا داخـل أحـد أفـران الطوب.

***

[illegible]

(٩)

على مساحة خمسة أفدنة كاملة كانت توجد مقابر (تل العبيد) التي تقع على الجانب الشرقي، وبعيدة كل البعد عن طريق المسافرين، في الأصل كانت المقابر بحجم فدانين، وكانت على المدخل الرئيسي للبلدة، لكن منذ عامٍ صدر قرار بنقلها إلى الجانب الشرقي في محاولةٍ من أصحاب المصالح لفك الحصار المضروب من حولهم، فليس هناك طريق يمر بهم.

طبعًا استلزم تنفيذ هذا الأمر الكثير من الموافقات والإجراءات، وأيضًا الشجارات، كانت البلدة وقتها ما بين منقسمٍ ومعارض، فكرة نقل جثث الآباء والأجداد وحتى من لهم أبناء، في وقتها كانت فكرة صعبة الهضم والاستساغة، لكن ذات يومٍ حدث انفجار في مواسير الصرف الصحي وغرقت المقابر في بحرٍ من المياه السوداء القذرة، بسرعة قام الأهالي بفتح المقابر وتم نقل الجثث والعظام، كان يوم ملحمي ما زال العديد يذكرونه.. البعض قال أن اللعنة ستصيب البلد وأن انتهاك حرمة الموتى لن تمر مرور الكرام..

بسبب هذا تم تداول حكاية شعبية قديمة عن مخلوقٍ يتغذى على جثث الموتى، وبما أن الجثث تم نقلها، فإنه سوف يصبح حرًّا طليقًا ويتغذى على الأحياء.. طبعًا كانت مثل هذه الحكايات تبعث على الضحك والسخرية وخاصة من الشباب المتعلمين؛ من ضمن الحكايات التي ترددت أيضًا كانت عن أحد الدراويش الذي يسكن المقابر، والذي راح يصرخ كل ليلةٍ ويجري في الشوارع ويحذر من موتٍ قادم.. لم يستمع له أحد، الدراويش أشخاص لا

يمكن الاعتماد على كلمتهم، البعض يقول أنهم أحباب الله لكن الحقيقة أنهم أشخاص مصابين بأمراضٍ عقلية..

ثم اختفى هذا الدرويش ذات يوم..

لم يلفت هذا انتباه أحد..

كل إنسان مشغول في عالمه وطبعًا هذا الدرويش لا يحتل أي جزءٍ في عالم أي أحد.

بعد مرور شهرٍ على اختفاء الدرويش عاد اسمه للظهور، حدث هذا حين حدثت حالة وفاة لدى إحدى العائلات.. كان من المعتاد أن يـذهب أقـارب المـيت برفقـة (التـربي) لفتـح مقبـرة العائلـة وتجهيزها للميت الجديد، أحضروا الرمل الذي سيقومون بفرشه على أرضية التربة والجبس والإسمنت اللازم لإغلاق بابها بعد ذلك.. فتحوا باب المقبرة وكانت الصدمة أنهم عثروا على جثة الدرويش بالداخل، كانت الجثة بكامل ملابسها وتجلس القرفصاء في مواجهة من يفتح باب القبر.. لقد أصيب (التربي) بحالةٍ من الصرع حين رأى ذلك، ثم رقد بعدها في الفراش مريضًا بالحمى، وتنـاقص وزنـه بطريقـةٍ رهيبـة إلـى أن مـات وهو يشبه الهيكل العظمي..

أما جثة الدرويش فقد كانت محط خوفٍ من الجميع.. لا أحد يجرؤ على تحريكها من مكانها، وتركوها كما هي في المقبرة، وتم طمس اسم صاحب المقبرة من عليها!

في النهاية هذه حكاية شعبية متداولة.. ربما تكون حدثت وربما لا.. المهم أن تحذير الدرويش موجود وما زال صداه يتردد..

لكن الآن..

وحتى الوقت الحالي كان فقط الصمت والهدوء هما المسيطران على المقابر..

صمت وهدوء ثقيلان..

على منتصف الليل انكسر هذا الصمت والهدوء حين تحركت قدمان وسط المقابر.. كانت القدمان تنتميان لشخصٍ يرتدي عباءة سوداء وغطاء رأس.. أضواء المصابيح الصفراء كانت تبدد أجزاءً من الظلام لكنها لم تكن كافية كي تظهر ملامحه، واصل الشخص السير حتى وصل إلى مقبرةٍ لها شاهد كبير ومطموس من عليها اسم صاحبها! صعد الشخص إلى سطح المقبرة وعباءته تتطاير حوله كأجنحة خفاشٍ أسود.. تأمل المقابر من هذا الارتفاع لمدةٍ طويلة من الوقت كمن يقوم بعدها، والتأكد من أنه في المكان الصحيح، ثم أخذ نفسًا عميقًا وطويلًا.. وبدأ يؤذن.

أثناء ذلك كان الدكتور (ياسر) يتقلب فوق فراشه ذات اليمين وذات الشمال كأنه ينام على جمر نار قبل أن يستكين ويحدق في السقف..

(كمال) يقف في نافذة منزله ينظر إلى الفراغ البعيد وهو شارد الذهن..

(محمد) يغط في نومٍ عميقٍ وهو يحتضن لعبته بينما نسمة هواءٍ تتسلل من تحت عقب بابه، فتصدر صفيرًا..

(الحاج محروس) يجلس أمام التلفاز بجوار زوجته يشاهدان مسرحية قديمة، ويبدو مستمتعًا بينما في الحقيقة أن عقله كان شاردًا ويفكر في (فاتن) وأمها..

(معتز) في مكتبه منغمسًا حتى أذنيه في العمل..

الشيخ (عرفة) يجلس في مكانه يتمايل يمينًا ويسارًا وهو يعدد حبات مسبحته، ثم وصل إليهم جميعًا صوت الآذان.. لكنه لم يكن آذانًا عاديًّا.. كان يقال بالمقلوب.. من النهاية إلى البداية..

الشخص الواقف فوق القبر ظل يردده بلا كللٍ وبصوتٍ جهوريٍّ خشن.. لم يكن صوته طبيعيًّا.. كان ينخر عظامهم وأرواحهم، جميعًا وبلا استثناء خرجوا إلى الشارع مثل الممسوسين.

***

(١٠)

ليلة باردة..

- بابا.. بابا.

استيقظ (كمال) على هلوسة (محمد)..

كان الفتى يتقلب في فراشه، ووجهه أحمر اللون كالجمر، والعرق يتصبب من جبينه فصنع بقعة ماءٍ كبيرة على الوسادة..

تحسس (كمال) رأس (محمد) بقلقٍ، وهو يقول:

- محمد.. مالك؟

على الناحية الأخرى وفي المنزل المقابل كانت تجلس (عايدة) في فراش غرفتها وهي لم تنم بعد.. التفكير في (كمال) كان يؤرقها بشدة، منذ عرفته وهو يشغل بالها، تعلم أنه يحبها، صحيح أنه لم يخبرها بشكلٍ مباشر لكنها تدرك ذلك من خلال تصرفاته ومن خلال عينيه اللتين تفضحانه.. بالنسبة لها يبدو كشخصٍ مناسب، هادئ، رصين، على قدر من المسؤولية، أسبلت جفونها وراحت تسترجع لقاءاتهما سويًّا قبل أن يجول بخاطرها ذكريات أخرى مؤلمة.. فجأة يقطع كل ذلك صوت طرقات على باب شقتها، في عجالةٍ وتوترٍ وقلق.. نهضت مسرعة ووضعت فوقها غطاء رأسٍ ثقيلًا، وهي تسأل نفسها عن طبيعة الطارق..

هناك مصيبة بالتأكيد.

قالت قبل أن تفتح الباب:

- مين؟

ثم أصغت السمع..

يأتي صوت (كمال) من الناحية الأخرى يقول في اضطراب:

- أنا كمال.

تفتح له الباب بسرعة، وهي تقول:

- خير؟

شرح لها باختصار حالة (محمد) ثم ختم كلامه:

- محتاج دواء خافض حرارة.

ردت:

- موجود عندي جوه.. لحظة وأجيبه لك.

ذهبت إلى الداخل، وغابت لثوانٍ قليلة، وعادت تحمل زجاجة دواءٍ لونها بني.

- اتفضل.

اختطفها منها بلهفة، وهرع إلى منزله وقد نسي أن يشكرها..

تابعته لبرهةٍ كأنها تفكر، ثم أغلقت باب منزلها، وجرت وراءه دون أن يشعر أنها خلفه.. انتظرت حتى انتهى من إعطاء (محمد) جرعة دواء ثم قالت:

- هو على الحالة دي من امتى؟

انتبه لها في تلك اللحظة، وقال:

- هو كان نايم كويس.. فجأة صحيت لقيته كدا وعمال يهلوس.

جلست على حافة السرير، ووضعت يدها على رأس (محمد) وقالت:

- درجة حرارته عالية جدًّا.

طلبت من (كمال) إحضار ماءٍ وقطعة قماش..

ذهب وعاد يحمل المطلوب..

قامت بتقطيع القماش إلى ثلاث قطعٍ صغيرة وصنعت منها ثلاث كمادات..

كانت تضع الكمادة في الماء، تعصرها وتضعها على جبين (محمد) وتضغط عليها برفق، قبل أن تقوم باستبدالها بالثانية ثم الثالثة، وهكذا دواليك..

بعد نصف ساعة، قالت بقلق:

- درجة الحرارة مبتنزلش.. شكلها حمى.. لازم تاخده وتروح الوحدة الصحية حالًا.. الدكتور الجديد ممتاز.

فكر للحظةٍ قائلًا:

- طيب ارجعي انتي وأنا هخده واروح.

صاحت بإصرار:

- أنا جايه معاك.. لازم اطمن على محمد.

في تلك اللحظة بدأ المطر يتساقط، ووصل إلى آذانهم صوت القطرات وهي تقرع زجاج النوافذ.

***

نفس الليلة..

خارج تل العبيد..

وتحديدًا على الطريق الزراعي الذي يمتد إليها، كانت الريح تعوي مثل ذئبٍ متوحش بينما في أعلى السماء، ظهرت ظلال لسحبٍ سوداء يتخللها بعض وميض البرق..

على جانب الطريق كان هناك شيءٌ غير آدمي يقبع في صمتٍ بين الشجيرات.. ثمة أنين مكتوم يخرج من هذا الشيء، وعينان تومضان مثل قطع من الجمر الملتهب.. خلال هذا الوقت كانت هناك أصوات حثيثة تقترب، أصوات حوافر تضرب الأرض بقوة، مختلطة بفرقعة سوط، ونهيق حمار، ثم يظهر (رضوان) وهو يركب حمارًا، ويضع فوق رأسه كيسًا بلاستيكيًا ليحمي نفسه من المطر الذي ينهمر، كان يمسك في يده سوطًا من الجلد المجدول يلهب به ظهر حماره حتى يسرع الخطى، الحمار كان هزيل الجسد مرتعش الأقدام ويسير بصعوبةٍ وسط الطين ووحل البرك..

كان (رضوان) قد تجاوز حادثة اختفاء ابنته، ومن بعدها محاولة

زوجته الانتحار، وها هو يكمل حياته كما ينبغي وكأن شيئًا لم يحدث، عما قريب سوف يتزوج من واحدةٍ أخرى وينجب فتاة أخرى، لا يوجد ما يدعو للحزن والاكتئاب، كان عائدًا من زيارةٍ لأحد أقاربه من أجل خطبة امرأة على صلة قرابة بها، تحديدًا هي ابنة خالته، كان يعرفها قبل أن يتزوج (بديعة) لكنه لم يفكر فيها يومًا ما، ربما لأنها ليست بالجمال الكافي، أو ربما لأن والدته ذات يوم أرادت أن تزوجها له، وشعر أنها فرض عليه فابتعد، في كل الأحوال لقد فاتها قطار الزواج وصارت عانسًا، يتمنى أهلها أن تغادرهم بلا رجعة، كانت بالنسبة إلى (رضوان) هي الإنسانة المناسبة له بعد تلك الظروف التي مر بها، صحيح أنه ما زال يشعر نحوها بكثيرٍ من الفتور، لكنها على الأقل ستكون خادمة جيدة في المنزل، وفي الفراش سوف يقوم بتعليمها بعض الأشياء اللازمة لإسعاده.. كان من المفترض أن يعود قبل المغيب، لكن حدثت مشادة كلامية بينه وبين زوج خالته، لقد طلب منه مهر بقرتين لكن (رضوان) استنكر بشدة وقال: "كيف أعطيكم بقرتين وآخذ أنا بقرة واحدة؟!"

كاد الوضع أن يصبح معركة، ويرتكب زوج الخالة جريمة لولا أن تدخل الجالسون، البعض أقنع زوج الخالة أن (رضوان) خشن الكلام، لكنه أبيض القلب، ويخشى بعض الشيء على أمواله لكنه قطعًا ليس بالبخيل، وأن ابنتهم تساوي وزنها ذهبًا.. انتهت الجلسة، وبصعوبةٍ أقنعوا (رضوان) بأن يدفع المهر بقرة وماعز، قرأوا الفاتحة على هذا، ثم غادرهم على وعدٍ بالعودة خلال أسبوع لإتمام الزواج..

ظل (رضوان) طوال طريق العودة يستمع إلى الأغاني من خلال

هاتفه المحمول، كان منظره مضحكًا وهو يركب حمارًا، ويضع (سماعات الهيد فون) في أذنيه..

لم يلاحظ أن الليل دخل سريعًا إلا حين بدأت حركة الحمار في التباطؤ.. بمرور الوقت وبسبب الظلام والمطر والطريق الفارغ، شعر (رضوان) بسكينٍ من الخوف يخدش قلبه..

فجأة تردد نداء:

- رضواااااان.

تلفت ناحية مصدر الصوت..

بين الشجيرات لمح ما يشبه امرأة عجوز تلتحف بالسواد وتجلس القرفصاء على الأرض، حاول أن يدقق النظر فيها لعله يعرفها لكنه لم يستطع تبين ملامحه جيدًا..

عاد صوتها:

- (رضوان).

إذًا هي تعرفه..

قرر أن يتوقف لها..

نزل من على الحمار وسار تجاهها، قفز من فوق الترعة وهو يقول:

- نعم

- خدني معاك يا بني.

قالتها بصوتٍ واهنٍ متوسل، سألها:

- انت إيه اللي مقعدك في المكان ده بس؟

اقترب منها بينما أجابته بصوتٍ خافت:

- النصيب يا بني، نصيبك ونصيبي.

غمغم:

- طيب قومي معايا.

قالت بوهن:

- مش قادرة، رجلي مش قادرة أحركها.

قال وهو يضع يده على كتفها، ويحاول أن يرى وجهها الذي يختفي تحت القماش:

- ألف سلامة عليكي.

قالت:

- شلني يا بني، ربنا يبارك في صحتك.

أعطاها ظهره وطلب منها أن تعتليه، قالت وهي تضع كلتا يديها على كتفيه:

- يخليك ليا.

- تسلمي يا رب.

ثم حملها فوق ظهره وسار بها وهو يترنح من ثقلها..

في الحقيقة كانت ثقيلة.. ثقيلة جدًا.. ثقيلة أكثر مما يفترض أن تكون..

مررت العجوز يدها بين فروة رأسه، فشعر بأظافرها، وقال:

- بتعملى إيه يا أمي؟

هتفت:

- شعرة بيضاء في راسك.

قال:

- من كتر الشقاء.

- بيقولوا أن الشعر الأبيض بيبعته ملك الموت للإنسان عشان يعرفه أن موته قرب.

غمغم:

- أول مرة اسمع الكلام ده.

قالت بغموض:

- أنت مبتخافش من الموت؟

وضعها على ظهر الحمار، وهو يلهث من التعب، ثم قال:

- أنا مبخافش غير من اللي خلقني.

ضحكت العجوز ضحكة قصيرة ولم تعقب على كلامه.

ركب (رضوان) أمامها ونكز الحمار بقدمه:

- شي يا حمار.

لم يتحرك الحمار.. ظل واقفًا كتمثالٍ قديم لا قيمة له في أحد الميادين العامة، صرخ (رضوان):

- شي يلا.

ثم أحرق ظهر الحمار بالسوط فأطلق نهيقًا عاليًا، وتحرك على مضض، ظلا يسيران وسط الطريق المظلم دون كلام، بين الحين والآخر كان (رضوان) يلتفت ينظر إلى العجوز، ثم يعود ينظر إلى الطريق..

لماذا هي صامتة هكذا؟

***

خرج (كمال) من المنزل في عجالة، وهو يحمل (محمدًا) على كتفه ويلفه في (بطانية) ومن ورائه (عايدة) تسرع الخطى، على مسافةٍ كان يقف (توكتوك) يجلس على عجلة قيادته (كرتونة).. كان (كمال) قد اتصل به وشرح له الموقف، ثم طلب منه القدوم وإحضار (توكتوك) من على الطريق..

(كرتونة) لم يتأخر..

ظل يبحث عن (توكتوك) لكنه لم يعثر على واحدٍ بسبب الأحوال الجوية السيئة لتلك الليلة، فما كان منه إلا أن اقتحم مرأب أحد

الجيران، وسرق منه (توكتوك) وجاء به.

- عشر دقايق بالكتير وهنبقى في الوحدة.. الدكتور ياسر صاحبي وحبيبي.. أنا كلمته في التليفون، وبيستنانا دلوقتي.. مش عاوزك تقلق يا صاحبي.

قالها (كرتونة) وهو يصطدم بقطةٍ سوداء كانت تعبر الطريق ويسويها بالأرض، لاحظ (كمال) أن ضفيرة (التوكتوك) مقطوعة، ولاحظ كذلك عدم وجود مفتاح التشغيل، قال:

- كرتونة.. التوكتوك ده بتاع مين؟

- بتاع واحد حبيبي.. هو نايم دلوقتي.. متحطش في بالك.

هتف (كمال) بشك:

- إوعى تكون سارقه.

التفت إليه (كرتونة) قائلًا بتأثر:

- أنا بتاع الحاجات دي برضه؟

ثم أوقف (التوكتوك) بجوار باب الوحدة، وقال:

- وصلنا.

نزلوا جميعًا من (التوكتوك) وتوجهوا مباشرة إلى غرفة الكشف حيث كان الدكتور (ياسر) يجلس في انتظارهم بالفعل.. أشار لهم أن يضعوا (محمدًا) على منضدة الفحص، وبدأ في جس نبضه بكل اهتمام، وسأل (كمال):

- اديته مضاد حيوي أو أي دواء؟

أجاب (كمال):

- خافض للحرارة بس.

قام الدكتور (ياسر) بالنقر على جسم (محمد) بأطراف أصابعه، وهو يسأل من جديد:

- عنده حساسية من حاجة معينة؟

كمال:

- على حد علمي.. لا.

قال الدكتور (ياسر) وهو يقوم بتركيب محلول في ذراع (محمد):

- خير إن شاء الله.

ثم كسر (أمبول) دواء، وسحب محتواه بـ (سرنجة) صغيرة وحقنه في المحلول.

ردد (كمال) وهو ينظر إلى (محمد) والسائل النصف شفاف الذي يدخل في عروقه:

- سلامتك يا بني.

ربتت (عايدة) على كتفه بحنانٍ، وحاولت أن تبتسم كي تطمئنه لكنها عجزت، فقالت:

- هيقوم بالسلامة.. متقلقش يا كمال.

تربع الدكتور (ياسر) على أقرب مقعد، وأرخى رأسه على المسند، ثم أغمض عينيه وهو يقول لهم:

- استريحوا.. لسه الليلة دي طويلة.

أحضر (كرتونة) إناءً وملأه بالماء والشاي والسكر، وهو يقول:

- هعمل شاي عشان نفوق.

بعد مدة ازداد عصف الريح، وبدأت الأنوار ترتعش وتوشك على الموت، قال (كمال) بتوتر:

- الكهرباء شكلها هتقطع.

لم يكد يقولها حتى انطفأت الأنوار كلها.

فتح الدكتور (ياسر) عينيه ثم أشعل كشاف هاتفه، فبدد جزءًا من الظلام بينما قالت (عايدة):

- تلاقي كبل اتقطع دلوقتي.

ثم نظرت إلى الخارج حيث أصبح الظلام شديد الحلكة، وشعرت بالخوف.

***

ما زال (رضوان) يسير على الطريق وهو فوق الحمار، ومن ورائه تجلس العجوز.. فجأة يسقط أمامهم كبل كهرباء على الأرض بفعل الهواء.. الكبل يتلوى مثل أفعى طويلة تبصق لهيبًا مرعبًا..

قال (رضوان) وهو يحاول الابتعاد عنه:

- ربنا يستر في الليلة دي، بسم الله، اللهم وصلنا سالمين.

لم يكد يذكر اسم (الله) حتى شعر بارتعاشةٍ قوية في جسد العجوز، وارتخت قبضتها التي تمسك كتفه..

التفت إليها بعصبية:

- انتي بخير.

هزت رأسها دلالة على الإيجاب..

تنهد وهو يقول:

- قربنا خلاص من البلد، نص ساعة بالكتير وهنبقى هناك، مقولتيش أنت رايحة لمين هنا، حاكم أنا عارف أهل البلد نفر نفر.

ردت باقتضاب:

- الحبايب كتير، أنا هدور عليهم بيت بيت.

لم يسترح لكلامها، عاد يحث الحمار على إسراع الخطى..

دون أن يدري كانت يدا العجوز تستطيل وتتحول تدريجيًّا.. الشعر الأسود الذي يشبه الإبر يكسوها.. الأصابع أصبحت مخالب سوداء طويلة..

تذكر (رضوان) حادثة العثور على (سيد) مقتولًا.. كانت هناك بعض الأقوال التي تواترت من الشيخ (عرفة) حول وجود شيءٍ ملعون اسمه (الدويس).. سمع أنها تظهر على هيئة أمرأةٍ عجوز.. لا.. لا يمكن.. من تركب معه مجرد امرأة ضعيفة..

بعد قليل سمع حشرجة من وراء ظهره، لا يفترض أن يسمع هذا..

- في حاجة يا أمي؟

قالها بصعوبةٍ وهو يحاول أن يتمالك أعصابه، لا يريد أن يبدو كالمجنون، أو الطفل الجبان ويقفز من فوق الحمار ويجري.. ماذا لو كانت فعلًا مجرد عجوز جاءت لزيارة بعض معارفها!! سوف تصبح سمعته وحكايته علكة تلوكها النساء، ويضحك عليها الرجال..

ظل ينتظر ردها..

لم يسمع منها غير صوت أنفاسها الثقيلة.. وقبل أن يقرر ما يجب عمله تعالت من خلفه زمجرة مرعبة.. أدار رأسه ببطءٍ نحوها، ونظر من فوق كتفه وهو يقول:

- مبترديش ليه؟

بتر عبارته وهو ينظر إلى وجهها البشع الذي أزاحت عنه الغطاء..

لم يشعر بنفسه إلا وهو يسقط على الأرض..

ظل يزحف على ظهره وهو يتراجع إلى الوراء دون أن يستطيع تحويل بصره عنها..

اعتدلت هي في جلستها ناحيته..

أدارت رأسها بزاوية 180 درجة..

اتسعت ابتسامتها لتملأ ثلاث أرباع وجهها، ولتصل من الأذن إلى

الأذن، صرخ (رضوان) من الخوف، ضربت (الدويس) يدها في بطن الحمار، ثم انتزعت أمعاءه ومزقتها بأسنانها، جرى الحمار وهو مبقور البطن وأمعاؤه تتدلى خلفه، قفزت (الدويس) فوق (رضوان).. بحركةٍ لا إرادية رفع قدمه ثم ضربها فطارت في الهواء، ثم عادت لتنقض عليه، ضربت مخالبها في عينيه فانفجرتا، صرخ (رضوان) وقد صار كفيفًا والدم ينزف على وجهه، الرياح تهز فروع الأشجار التي تحيط بهما.. مدت (الدويس) مخالبها وقبضت على حنجرة (رضوان) ثم انتزعتها من رقبته.. للحظةٍ ووسط الألم الرهيب تذكر ابنة خالته.. كانت لا تستحق سوى بقرة واحدة.

***

(١١)

يا هادي كل هدية.

يا عالم بالروضة والأسية.

يكفيك يا ابني.

شر العين الرضية.

وهي جاية من البرية.

تعوي عوي الدياب.

تنبح نباح الكلاب.

قابلها سيدنا سليمان.

قالها رايحة فين يا ملعونة.

قالت له رايحة للخالة الطاحونة.

قالها إوعي تفوتي على ابن آدم.

لأطلق عليك الرصاص.

ونزلك بحر غطاس.

لا يبان لك جتة ولا رأس.

الله أكبر عليكي.

لم يكن أحد يعلم سر هذا المنادي الذي ظهر فجأة في المدينة، وراح يطوف شوارعها، وهو يردد هذه الأنشودة..

كان المنادي رجلًا هزيل الجسد، يحاول أن يضخم نبرة صوته حتى ينتبه إليه الناس، يرتدي جلبابًا أبيض اللون قصيرًا، ويمسك في يده (رق) يهزه من وقتٍ لآخر، الأطفال كانوا يسيرون خلفه وهم يكررون أنشودته.. بمرور الأيام بدأ الناس ينتبهون له، البعض سار يسأل عما يقصد بالضبط، عجائز القرية قالوا أنه يحذرهم من شيءٍ ما.. حاول الأهالي عبثًا أن يفهموا منه ماذا يعني إلا أنه لم يخبرهم عن شيءٍ مطلقًا، هناك من عرض عليه أموالًا.. طعامًا.. شرابًا.. المبيت في منزلٍ نظيف.. لكن لا فائدة منه.

على نهاية اليوم وقرب المغيب كان ينهي جولته ويعود ليبيت داخل منزلٍ مهجور على أطراف البلدة، تكاد الرطوبة فيه أن تقضي على جدرانه، المنزل المهجور كان عبارة عن طابقين؛ الطابق الثاني سقفه منهار وتسكنه الغربان التي تظل تنعق بين الحين والآخر، والطابق الأول كان مجرد جدران تصنع ثلاث غرف خاوية تمتلئ بالغبار والشقوق، تعيش في داخلها قبيلة من الفئران الضخمة، كان المنادي يعود وهو محمل بكيسٍ ممتلئ بالطعام الذي أخذه من أصحاب الفضل والإحسان، وبعد أن يستريح قليلًا كان يشعل موقد كيروسين قديم كي يدفئه ثم يقوم بفض الكيس وانتقاء الطعام منه والأكل.. بعد أن يأكل كان يفترش قطعة (خيش) وينام على الأرض وبجوار رأسه موقد الكيروسين المشتعل، لو تقلب قليلًا لسقط الموقد فوقه وأحرقه.. ثم ذات ليلةٍ كئيبة كعادة ليالي الشتاء دخل رجلان يتدثران

بالظلام إلى حيث ينام، لم ينتبه لهما، ربما كان السبب هو أنه يغط في النوم، أو ربما صوت الموقد الذي يطغى، أو ربما لأنهما كانا يتسللان بحذرٍ بالغ، قام أحد الرجلين بهز المنادي من كتفه برفق، فتح المنادي عينيه، ثم قال بصوتٍ متقطع بسبب النوم، وهو يتأمل قسمات هذا الرجل:

- شيخ عرفة!

أشار له الشيخ (عرفة) بأن يخفض صوته، وقال:

- مش عاوز صوتك يعلى يا حبيبي.

قال الرجل الآخر:

- العين علينا واحنا مش قد الحاج محروس.

كان هذا هو (أبو بديعة) الذي صار يلازم الشيخ (عرفة) في الآونة الأخيرة.

اعتدل المنادي في مكانه ثم قال:

- أنا بعمل زي ما قولتوا لي، الناس هتتجنن ويعرفوا معنى الكلام.

قال الشيخ (عرفة):

- هنقول لهم.. بس مش دلوقتي.

ثم أخرج من جيبه رزمة نقود، وناولها له وهو يستطرد:

- دي فلوسك اللي اتفقنا عليها.

وضع المنادي النقود في صدرية جلبابه دون أن يحصيها، وهو يقول:

- أنا بعمل كدا مش عشان الفلوس.. أنا عاوز أساعد.

قال الشيخ (عرفة):

- أنا عارف يا حبيبي.. بس دي حاجة بسيطة.. اعتبرها هدية مش أجرة.

هز المنادي رأسه قائلًا:

- اللي تشوفه.

ووضع إناء به ماء فوق الموقد وانتظر حتى يغلي، ثم صب الشاي في ثلاثة أكواب ووزع الأكواب بينهم، قبل أن يسأل:

- انتوا ليه خايفين من محروس ده.. هو كان ربنا؟!

قال الشيخ (عرفة) وهو يرشف الشاي:

- في فرق بين الشجاعة والتهور.. أنا عن نفسي مش خايف لكن أنا عاوز كل شيء بأوانه، وبدل ما يبقى محروس ضدنا يبقى معانا، وده مش هيجي غير بالصبر.

قال المنادي:

- نفسي اعرف الدويس عاوزة إيه من أهل البلد.

قال الشيخ (عرفة):

- دي حاجـة زي المـرض.. جايـة تاخـد الصـالح فـي الطـالح.. مبتفرقش.. واللي ناوية تقتله هتقتله مهما عمل.

قال المنادي:

- مش ممكن تكون هي بتعمل كدا بسبب نقل المقابر.

- احتمال كبير.

تردد المنادي ثم قال:

- أنا سمعت إن كان مدفون راجل دجال وانها كانت من الخدام بتوعه.

- الدجال ده أنا وعيت عليه.. كان اسمه قريش.. ومات مقتول على إيد التلميذ بتاعه.

أنهى الشيخ (عرفة) كلامه ثم غادر هو و(أبو بديعة).. لبرهةٍ ظل المنادي يتابعهما ببصره حتى اختفيا، ثم عاد يحاول استكمال نومه، ظل يتقلب في فراشه دون أن يغمض له جفن، لم يعد بمقدوره النوم، أو بعبارةٍ أخرى، طار النوم من عينيه، حين يئس من النوم مجددًا، اعتدل ووضع إناء الشاي من جديد فوق الموقد، كان بالإناء بقايا شاي، فقام بتزويدها ببعض الماء والسكر فقط، ثم انتظر حتى يغلي، وصب لنفسه كوبًا يشبه الحبر الأسود، راح يشرب الشاي على مهل وهو يردد الأنشودة، ثم فجأة سمع صوت أحدٍ يتحرك خلفه، التفت بسرعة، وفي الصباح تم العثور على جثته بدون رأس.

***

(١٢)

الأيام التالية كثرت حوادث الموت، بلغ عدد من قتلتهم (الدويس) تسعة قتلى، من بينهم (أشجان، وسيد، ورضوان) والمنادي..

رغم محاولات التكتم على عدد القتلى من قبل المسؤولين إلا أن الأقـاويل والتخمينـات أخـذت فـي الانتشـار، ثـم بـدأ بعـد ذلـك التهويل، التسع ضحايا تحولوا بقدرة قادر إلى خمسين ضحية علـى لسان النـاس، بعدها انفجـرت قنبلة مـن الشائعات حـول مـا يحدث، كانت الشائعات تبدأ من وجود حيوانٍ مفترس وتنتهي عند وجـود مخلوقاتٍ فضائية تختطف البشر، لكن أكثر شائعة نالت حظًّا من الانتشار والصيت هي شائعة أطلقها أحد الرجال كبار السن ممن تخطوا الثمانين، حول لعنة نزلت على أهل البلد بسبب نقل مقابر الأجداد، وأن هناك شيطانه قديمة كانت تسكن تلك المقابر وتتغذى على جثث الموتى، وحين تم نقل الجثث لم تجد ما تقتات عليه، فلجأت إلى أكل الأحياء..

كلام هذا الرجل كان مقنعًا لدرجةٍ كبيرة، خاصة أن هناك موروثًا شعبيًّا متعلقًا بعقوبة انتهاك حرمة الموتى..

وظـهر الشـيخ (عرفـة) علـى السـاحة، راح يحكـي للنـاس عـن (الدويس) ويحذرهم، كلامه كان مقنعًا جدًّا، الخلاصة أنه لم يعد أحد يشعر بالأمان، بسبب ذلك نشط خطباء وأئمة المساجد في الـدعاء وطلـب العفـو مـن اللـه.. حـاول بعـض الأهـالي تحصـين منازلهم من خلال الدجل والسحر ورش الملح ولبس الأحجبة، الأكثر إيمانًا من الأهالي لجأ للحج في هذا العام، وهناك من أخرج

زكاة أمواله لأول مرة..

فيما بعد حدثت موجات هجرة من البلدة، كان المشهد مؤسفًا، المؤسف أكثر أن بعض الذين غادروا تم قتلهم بنفس الطريقة البشعة، لكن الأمور هدأت فجأة، هدأت تمامًا كأنها لم تكن، ومرت شهور.. ولأن ذاكرة العوام تشبه ذاكرة السمك فقد عادت الحياة إلى طبيعتها، ثم قامت الدولة بمد طريقٍ جديد إلى البلدة، وعاد النشاط الاقتصادي، لكن على استحياء..

بعد مدةٍ تم إنشاء منطقةٍ صناعيةٍ جديدة، أصبحت قبلة لمعظم الشباب الراغبين في بناء مستقبلهم، وتم توسعة الرقعة العمرانية وتغير شكل وديموغرافية البلدة إلى الأبد.. نال التغيير من كل شيءٍ هناك، بعض التغيير كان للأفضل، والبعض كان للأسوأ، وحدث أن عاد الرجل العجوز - الذي أطلق شائعة اللعنة - للظهور من جديد..

هذه المرة عودته كانت مدوية وقوية جدًّا.. ما حدث أنه صعد إلى المنبر خلال خطبة يوم الجمعة، ثم اختطف (المايكروفون) من الخطيب، وأقسم ثلاثة أيمان مغلظة على أن (الدويس) لا تزال موجودة في البلدة، وأنها زارته وتوعدته بالموت خلال أسبوع على الأكثر..

طبعًا حدث هرج ومرج كبير بعد كلامه، وبصعوبةٍ أقنعه بعض الرجال الطيبين بالنزول من فوق المنبر، وأن يتوقف عن نزع وإلقاء ملابسه على المصلين.. حاول الإمام بعد ذلك أن يتجاوز الأمر وغير مسار الخطبة من الإعجاز العلمي في القرآن إلى طاعة ولي الأمر.

مـر أسـبوع علـى هـذا المـوقف ولـم يمـت الرجـل ولـم تظـهر لـه (الدويس).

في الجمعة التالية وبينما الخطيب يصرخ فوق المنبر بحماسٍ منقطع النظير ويقول خطبة جديدة بعنوان (عقوبة الكذب).. كان الرجل يقف فوق مئذنة المسجد وقد تجرد من ثيابه، ثم ألقى بنفسه ومات حتى يبر بقسمه.

***

(١٣)

السبت..

في الصباح الباكر بدأ المرضى يتوافدون إلى الوحدة الصحية بمجرد عودة الدكتور (ياسر) من إجازته..

راح الدكتور (ياسر) يمارس عمله بكل إخلاصٍ وتفانٍ وهو يوزع ابتسامته واهتمامه على الجميع..

مساءً كان قد خرج آخر مريض من الوحدة، وكان هو قد انتهى بدنيًّا ونفسيًّا وذهنيًّا، تنهد في إرهاقٍ والصداع يقتله، نظر في ساعته، كانت السابعة، تذكر أنه لم يتناول الطعام منذ أن جاء، صعد إلى السكن الخاص به وقام بتغيير ثيابه، ثم ذهب إلى المطبخ وتناول بضع لقيمات من (صينية) لحم بالبطاطس كان قد أحضرها له (كرتونة) وقت الظهيرة.. تناول قرص أسبرين، وصنع كوب شاي ثقيل، رشف منه بضع رشفات، قبل أن يجلس على السرير ويتصفح إحدى الجرائد الحزبية القديمة..

كانت الجريدة تتحدث عن أن المصريين سيشعرون بتحسنٍ غير مسبوق في أحوال المعيشة بعد قرار تعويم الجنيه، للأسف لقد تم إغلاق هذه الجريدة بعد مدةٍ بسيطة من قرار التعويم بسبب إفلاسها.

حين انتهى الدكتور (ياسر) من تناول كوب الشاي، شعر بثقلٍ في جفونه وبالخمول يغزو جسده، دون أن يشعر نام، كان نومه خاليًا من الأحلام، فجأة وبدون سابق إنذار استيقظ، استيقظ على

صراخٍ هائلٍ وحالة هرجٍ ومرج تحدث وراء الوحدة الصحية، نظر في ساعته بسرعة، فوجدها الواحدة صباحًا، اتجه نحو النافذة وفتحها على مصراعيها، كان الأهالي يحملون المشاعل ويفتشون عن شيءٍ ما، من بعيدٍ لمح مجموعة من النسوة يفترشن الأرض وينتحبن ألمًا ولوعة، على الرغم من أنه شعر بالخوف لكنه نزل من الاستراحة كي يقدم يد المساعدة، شاهد (كرتونة) يقف وسط الناس، فناداه:

- إيه اللي بيحصل؟

أجاب (كرتونة) بتوترٍ والمشعل الذي يمسكه يلقي بظلالٍ كئيبة على وجهه:

- الدويس رجعت.

- مين؟

ردد (كرتونة):

- الدويس.. انت مسمعتش عنها.

قال الدكتور (ياسر):

- أنا سمعت عنها أول ما جيت هنا، لكن بعد كدا كل الكلام عنها مات.

تنهد (كرتونة):

- الأسبوع اللي أنت أخدته أجازة حصل فيه كتير.. اتنين لقناهم مقتولين.

- طيب والشرطة؟!

قال (كرتونة):

- بيقولوا انه ديب متوحش اللي بيعمل كدا، لكن كلنا عارفين إنها الدويس.

وأشار إلى امرأةٍ تنتحب على الأرض:

- الست دي ابنها بيشتغل مزارع في الغيط اللي وراء الوحدة.. اتصل بيها من شوية وهو بيصرخ وبيقولها إن الدويس ظهرت له.

- وبعدين حصل له إيه؟

- محدش عارف.. احنا عمالين ندور عليه.

- أنا هدور معاكم.

- بلاش.. اطلع أنت يا دكتور استريح.

قال الدكتور (ياسر):

- ممكن اقدر أساعده لو كان مجروح.

صاح (كرتونة) بحدة:

- لو احتجناك أنا هاجي أنادي عليك.. مش عاوزك تتدخل في المواضيع دي.

عقد الدكتور (ياسر) حاجبيه، وهو يسأل:

دودة الكتب حرامية

- طيب وهي بتختار ضحاياها على أساس إيه؟

غمغم (كرتونة):

- العلم عند الله.

ومد يده وأخرج من جيبه مطواة (سوسته) قدمها للدكتور (ياسر) قائلًا:

- خلي دي معاك.

اعترض الدكتور (ياسر):

- لا.. لا.. أنا ماليش في الحاجات دي.

وضع (كرتونة) المطواة في جيب الدكتور رغمًا عنه، وهو يصيح به:

- اسمع مني.. أنا خايف عليك.

ثم تركه وابتعد حتى يقطع حبل الكلام، وذهب كي يبحث مع الآخرين.

بعد ساعةٍ من البحث، والكثير من الصراخ، لم يتم العثور على أي أثرٍ للمزارع الشاب..

بعض الرجال اقترحوا الاتصال بالشرطة لكن أحد الواقفين أخبرهم أنه لا يمكن الإبلاغ عن اختفائه إلا بعد مضي 24 ساعة على الأقل.. قرروا أن يذهبوا للبحث في منطقةٍ أخرى والأمل يحدوهم في أن يكون المزارع الشاب نائمًا في مكانٍ ما، وأن الأمر

دودة الكتب حرامية

لا يعدو مجرد دعابة ثقيلة منه.

الدكتور (ياسر) ظل يتابع كل ما يحدث بفضولٍ وقلقٍ متزايد، وهو يتحسس المطواة بين الحين والآخر، إلى أن أخذ الناس في الانصراف والابتعاد، ظل لمدةٍ بسيطة يقف وحيدًا في المكان والريح الباردة تصفر في كلتا أذنيه، ثم قرر العودة إلى الوحدة، لم يصعد إلى الاستراحة مباشرة، جلس في غرفة الكشف وهو يفكر، صوت صراخ النساء وهن ينتحبن لا يزال يتردد صداه داخل أذنيه بلا انقطاع، تناول هاتفه المحمول ثم فتح تطبيق الراديو على محطةٍ إذاعية مختصة بالموسيقى، كانت مقطوعة موسيقية حالمة جعلت أوتار أعصابه المشدودة ترتخي قليلًا، لكن بعد قليل كان يدقق النظر في زجاج نافذة الغرفة، كان هناك ضوءٌ أزرق يتسلل من خلالها، فجأة احتل ظلٌ أسود مكان الضوء، ظل على هيئة امرأةٍ تقف وراء الزجاج، لم تكن تتحرك، كانت تلتصق بالزجاج من الخارج، تابع الظل وهو يهز رأسه ببطءٍ، ثم رأى يد الظل تتحسس الزجاج كأنها تبحث عن منفذٍ للدخول.

- مين؟

قالها بصوتٍ مرتفع نسبيًا، وهو يتقدم نحو النافذة ليفتحها..

قبل أن يلمس المزلاج توقفت يده في الهواء، كلام (كرتونة) يرن في أذنيه كالأجراس:

- الدويس رجعت...

سحب يده إلى الوراء ببطءٍ.. الظل على الناحية الأخرى يهتز ويتلاشى بهدوءٍ وبحركةٍ ملتوية.

فجأة شعر بالغضب من نفسه، كيف يحدث ويخاف من مجرد أسطورة تم ابتكارها لإخافة الأطفال والناس الجهلاء محدودي الذكاء، نحن في عصر العلم ولا مجال لمثل تلك الخرافات، ثم وبكل غضبه فتح النافذة على مصراعيها وهو يهتف:

- مين؟

لا أحد..

فقط مجرد ظلام وسماء رمادية ومساحة فارغة من الأراضي التي تبدو بلا نهاية..

ظل لدقائق يحدق فيما أمامه، في داخله نبت شعور بالانتصار، الانتصار لنفسه وللعلم.. تنفس الصعداء، ثم أغلق النافذة وعاد إلى الداخل، ألقى نفسه على السرير، كان يتوقع أنه سيظل مستيقظًا حتى الصباح لكن الغريب أنه نام مرة أخرى وبسرعة، لكن وبنفس السرعة استيقظ، استيقظ وهو يشعر بشيءٍ يخدش وجهه، فتح كلتا عينيه، كانت الغرفة غارقة في الظلام الدامس بسبب انقطاع التيار الكهربائي، تحسس وجهه، شعر بآثار خدوش، شعر أيضًا بقشعريرة تغزو عموده الفقري وتصعد إلى عنقه، انتابه إحساس رهيب بأنه ليس بمفرده، هناك أحد موجود معه الآن في الغرفة، صحيح أنه لا يراه لكن صوت أنفاسه الثقيلة تصل إليه، هتف:

- مين موجود؟

لكن لم يأته رد، صرخ:

- مين؟

نهض من مكانه في حذرٍ وهو يبحث عن هاتفه في طيات ملابسه، فلم يعثر عليه، تذكر أنه قد تركه في الأسفل، في غرفة الكشف، تحرك في الظلام وهو يمد كلتا يديه أمام صدره، ارتطمت يده بجسدٍ متخشب، تراجع إلى الوراء بذعر، اصطدم من جديدٍ بنفس الجسد المتخشب، لكن هذه المرة بظهره، كأن هذا الجسد قد انتقل في لمح البصر وأصبح وراءه، شعر الدكتور (ياسر) أنه محاصر من كل الاتجاهات، حرك كلتا يديه بعشوائية، لمست يده جزءًا من السرير، بحسبة بسيطة داخل عقله استطاع تخمين مكان الباب بالضبط، ثم وبكل قوته اندفع تجاهه، اصطدم بخشب الباب فتحطم تحت ثقله، بقفزاتٍ سريعة بهلوانية أصبح خارج الوحدة، التفت حول نفسه، إنه الآن بمفرده، من ورائه سمع صرخة بشعة، لم يلتفت، ثم أطلق ساقيه للريح..

على امتداد بصره كانت توجد حقول القصب، فكر أن يختبئ داخلها لكنه تذكر أن هذا هو اختيار الضحايا في أفلام الرعب، استدار مسرعًا إلى الطرف الآخر من الطريق، كان جزءًا صحراويًا يمتلئ بالتلال والكثبان الرملية، إنه مخيف، عاد يهرول بلا لحظة تفكير إضافية، شعر بيدٍ قاسية تقبض على رأسه من الخلف، تذكر المطواة التي أعطاها له (كرتونة).. سحبها بسرعة ثم ضربها بعشوائية وهو يغمض عينيه، شعر أنه يطعن شيئًا رخوًا، سمع أبشع صرخة في حياته، اليد القاسية تركت رأسه فانطلق هاربًا، كان لا يزال يحمل المطواة في يده ويقبض عليها باستماتة، وفوقها سائل لزج يشبه المخاط، عرقله شيءٌ ما وهوى على وجهه أرضًا، الرمال ملأت وجهه وعينيه، تاهت الرؤية تمامًا

دودة الكتب حرامية

أمامه، مسح التراب من على عينيه في فزع، بدأت الرؤية تتضح، يلمح صورة ضبابية لعجوزٍ بشعة تقترب منه، حاول أن ينهض لكنها كانت قد أصبحت أمامه وأمسكته من عنقه ثم رفعته عاليًا بامتداد ذراعها، رأى الموت يحلق، وفجأة أفلت منها، سقط على الأرض، راقبـها وهـو مـذهول بينما راحـت تتـراجع إلـى الخلف بظهرها وتصرخ في غضبٍ كأن هناك آلة امتصاص هواء تجذبها بعيدًا عنه.

كيف هذا؟

***

خلال ذلك..

كـان الشيـخ (عرفـة) يجلـس داخـل منزلـه وتحـديدًا في المكان المحصن الذي يحميه من هجمات الجن، كانت الهالة الخضراء تحيط به وهو يضع أمامه حجرًا متوسط الحجم، غريب الشكل، هـذا الحجـر يسـمى حجـر العقيق، منقوش فوقه كتابات باللغة السريانية القديمة، اللغة التي يتحدث بها الجن، الشيخ (عرفة) كان يسخر أشخاص من الجن الموكلين على هذا الحجر لجلب (الدويس)..

يمكـن الآن فـهم كـيف نجـا الـدكتور (ياسـر).. الحجـر يجـذب (الدويس) كما يجذب المغناطيس قطعة الحديد.

الشيخ (عرفة) يهتز في مكانه وقد أوشك لسانه أن يلتصق بحلق فمه من كثرة ترديده:

- الله.. الله.. الله.. الله.

بعـد قليـلٍ تختلـط أمامـه بعـض الظـلال ثـم تتجسـد وتظـهر (الدويس)..

لم يكن يراها لكنه شعر أنها قد حضرت، قال بصوتٍ حاول أن يكون جهوريًا:

- رجعتي ليه؟

ضحكت ضحكة شريرة، صرخ فيها:

- رجعتي ليه؟

حاولت أن تخترق الهالة التي تحيط به..

كانت الهالة هذه المرة أقوى من المرة السابقة، كان الشيخ (عرفة) قد قام بتقويتها بمزيدٍ من الأحجبة والطلاسم، كما أنه كان يرتدي حجابًا أعطاه له الرجل المستنير ليحميه..

صرخت (الدويس) بقسوة..

مدت يدها خلال الدائرة، كانت الدائرة تحرق يدها وتذيبها لكنها تحملت حتى وصلت إلى وجه الشيخ (عرفة).. نتفت شعرة من ذقنه فشعر بالألم، ضحكت وهي تسحب يدها بينما الشعرة تحترق وتتبخر في الهواء..

ثم اختفت..

انتظر الشيخ (عرفة) بعض الوقت ثم نهض..

فتح باب غرفة مكتبه وهو يرتجف مما حدث..

توجـه إلـى خزانـة حـديدية ضخمة مـن النـوع القـديم ثـم أدار مزلاجها، فأصدرت صوتًا حين فتحها، لم يكن يحتفظ في الخزانة بنقودٍ أو مجوهرات كما قد يعتقد البعض، بل كان يحتفظ في داخلها بمجموعةٍ من كتب السحر القديمة وبعض المخطوطات النادرة التي ورثها عن أجداده.. كانت الكتب ذات أحجامٍ متنوعة؛ منها الضخم الذي يشبه المجلدات، ومنها الصغير في حجم كتب الجيب، أما المخطوطات فقد كانت مطوية ومربوطة بالورق المصمغ و(الدوبار)..

وسط كل هذا كان يوجد اللوح الزجاجي الذي أعطاه له الرجل المستنير، تحسس اللوح الزجاجي، السلاح الأخير الذي يملكه في مواجهة (الدويس).. أغلق الخزانة ثم جلس يفكر.

***

(١٤)

على التاسعة صباحًا قامت (عايدة) بفتح الصيدلية ثم جلست تمارس عملها، حركة العمل في الصيدلية كانت ضعيفة في هذا اليوم، وتقريبًا كانت نسبة الزبائن صفرًا، لم يشغل هذا بال (عايدة) التي قضت وقتها في القراءة، وقت الظهيرة جاءت (سعاد) لتشتري دواءً لابنتها، ثم جلست معها بعض الوقت، وتحدثا عن (الدويس) والشائعات التي تقتل البلدة، كان حديثهما قصيرًا لكنه كان يوضح حالة الخوف التي صار يعيشها الجميع..

بعد انصراف (سعاد) بقليلٍ، اتصل (كمال) بـ (عايدة) وأخبرها أنه سيمر عليها بعد عودته من المصنع، عند منتصف النهار وبينما هي تنتظره، تحرك باب الصيدلية إلى الخارج، ثم دخلت امرأة بسيطة في بداية الثلاثينات من العمر، كانت المرأة تحمل على كتفها طفلة صغيرة، وجهها شاحب، خالٍ من الدماء، ثم قالت بصوتٍ ضعيف:

- صباح الخير.

ردت (عايدة):

- صباح النور.. اتفضلي.. تحت أمرك.

قالت المرأة في قلق:

- بنتي من امبارح وهي بترجع وعلى صرخة واحدة، ومش عارفة مالها، قولت اجي اشتري لها دواء يمكن تهدى.

سألتها (عايدة) باهتمام:

- هي عندها كام سنه؟

- 9 شهور.

- دي صغيرة قوي، الأفضل تكشفي عند دكتور ويقولك على العلاج اللي يناسبها.

- بس أنا.. أنا...

فهمت (عايدة) أن المرأة لا يوجد معها نقود كافية، فقالت:

- بصي هي تقريبًا عندها نزلة معوية، بسبب أنها أكلت حاجة ملوثة، أنا هديكي مطهر معوي ومحلول معالجة جفاف، وهتبقى كويسه إن شاء الله.

- يا رب.

ذهبت (عايدة) ثم أحضرت زجاجتين من العلاج ووضعتهما داخل كيس:

- اتفضلي ازازتين الدواء دول، هتديلها مرة الصبح ومرة بليل.

سألتها المرأة:

- طيب دول بكام؟

- يا ستي خديهم دلوقتي ولما الفلوس تتوفر معاكي ابقي هاتيهم.

أخرجت المرأة جنيهات قليلة وحاولت أن تضعهم في يد (عايدة):

- طيب أنا ممكن اديكي اللي معايا دلوقتي والباقي اجيبهولك بعدين.

أعادت (عايدة) النقود إليها، وهي تهتف:

- لا خلي الفلوس معاكي عشان تشتري شوية فاكهة لها تساعدها مع العلاج.

قالت المرأة بامتنان:

- أنا مش عارفة أقولك إيه، متشكرة قوي، وصدقيني أول ما هيجيلي فلوس هجيبلك حق الدواء على طول.

ابتسمت (عايدة):

- متقوليش كدا، الناس لبعضها وربنا يشفي بنتك وتتطمني عليها.

سألتها المرأة قبل أن تنصرف:

- سمعتي عن الدويس؟

- آه بس دي إشاعات.

- لا مش إشاعات، بصي أنا ليا واحدة قريبتي كانت بتشتغل مغسلة أموات وأكدت لي الموضوع ده.

ابتسمت (عايدة):

- صدقيني دي تخاريف.

- على العموم ابقي خلي بالك لأنها عماله تاخد الصالح في الطالح،

وانتي شكلك طيبة وبنت حلال.

خرجت المرأة من الصيدلية، في نفس الوقت الذي وصل فيه (كمال) مع (محمد) وقال:

- معلش.. اتأخرت.

ابتسمت:

- متقولش انك رحت جبت (محمد) وجيت.

صاح (محمد):

- الراجل ده تعبني معاه قوي.

نكزه (كمال) في كتفه، وقال:

- أنا قلت نروح نتغدى سوا في مكان هادي.

ورفع كيسًا يمتلئ بالعلب:

- اشتريت أكل الغداء جاهز.

هتفت (عايدة):

- وليه التكلفة دي بس.

- ولا تكلفة ولا حاجة، المهم نبقى مبسوطين.

ساعدها في إغلاق أبواب الصيدلية، وسار ثلاثتهم تجاه مزارع القصب..

اختار (كمال) منطقة تبتعد عن طريق المارة، ثم فرش ملاءة على الأرض، وجلسوا ومن حولهم كانت الرياح تعزف بنعومةٍ على أوراق القصب الخضراء..

بعد مدة تسلل (محمد)..

(كمال) و(عايدة) لاحظاه لكنهما فضلا أن يتركا له مساحة كافية من الحركة كي يمرح.. سار (محمد) قليلًا بين الزرع، كان يمكنه سماع ضحك والده و(عايدة).. بمرور الوقت لم يعد يصل إليه صوتهما، كان قد ابتعد بمسافةٍ كبيرة، لقد سرقه الوقت واللهو دون أن يشعر، حاول أن يعود أدراجه، لكن أين طريق العودة؟ تبدو كل الدروب متشابهة لا اختلاف بينها، مجرد ممرات ضيقة غير ممهدة تتقاطع وتتباعد وسط غابات القصب، فكر (محمد) أنه لو كان أطول قليلًا، ربما كان قد استطاع أن يرى من فوق عيدان القصب، فجأة تباعدت بعض الأفرع ثم ظهر من ورائها مبنى الطاحونة القديمة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهدها فيها..

اقترب منها..

في الأعلى حلق غراب فوق رأسه وابتعد، لمس (محمد) بيديه أحجار جدار الطاحونة التي تآكلت بفعل الزمن وعوامل التعرية، وهو يسير حتى وصل إلى بابها الخشبي..

بفضولٍ شديد حاول النظر داخلها من خلال الشقوق الطويلة التي تتخلل الباب والتي تشبه ضربات فأسٍ قديمة..

دون سابق إنذار تحرك الباب للخارج وكانت مفصلاته تصدر

فحيحًا معدنيًّا مزعجًا..

من جديد ظهر الغراب فوق رأس (محمد) وحلق، ثم توقف على نافـذة الطاحونـة العلويـة وراح ينقـر فيـها، نظـر (محمـد) إلـى الداخل..

كان يوجد فقط ظلام.. ثم ظهرت نقطتان لامعتان في الظلام تشبهان عيني قطة..

أجفل (محمد) وتراجع خطوتين إلى الخلف حين سمع صوتًا خشنًا ينادي عليه من داخل الطاحونة:

- محمد.. ادخل.

***

أدار (معتز) مفتاح الباب ودخل..

كانت زوجته (وردة) تجلس في انتظاره تضع يدها على خدها، وهي واجمة، مكفهرة الوجه، كأنها نموذج للشقاء الأبدي، على الرغم من أنهما كانا قد تصالحا منذ أيامٍ قليلة، قالت في أسلوبٍ عدواني:

- أنت جيت؟

ألقى سلسلة مفاتيحه على أقرب منضدة، وهو يجيب ساخرًا:

-لا.. خيالي هو اللي جه.

- أنت بتتريق عليا.

- أصلك بتسألي سؤال سخيف.. وبعدين مالك قاعدة كدا زي البومة؟

نهضت متربصة:

- طبعًا دلوقتي بقيت بومة ومبقاش كلامي يعجبك.

سألها في ضيق:

- انتي عاوزة إيه دلوقتي؟

قالت محتدة:

- عاوزه اعرف امتى هتبطل العك بتاعك مع السكرتيرة.

هتف مستنكرًا، وهو يحاول السيطرة على أعصابه:

- لا انتي اتجننت خلاص، انتي ازاي تفكري كدا.

أمسكت يده:

- معتز.. بص لي كويس.. أنت متغير معايا قوي الأيام دي، أنا زهقت من تأخيرك كل يوم، زهقت من كتر ما بتصل ومبتردش، زهقت من قلة اهتمامك بيا.

سحب يده:

- يوه انتي مبتزهقيش من كتر النكد...

ثم أعطاها ظهره واتجه إلى غرفة النوم، وهو يستطرد:

- كل يوم نفس الاسطوانة.. أنا داخل أنام أحسن.

جذبته من كتفه:

- رايح فين.. أنا مش بكلمك؟

- انتي عاوزة تتخانقي وأنا مفيش عندي طاقة للكلام ده.

وقفت في وجهه:

- كنت فين؟

هتف بنفاد صبر:

- كنت في نادي الكاراتيه.. أسئلة تانية ولا خلاص كدا استريحتي.

قالت بنعومة، وهي تفك أزرار قميصه:

- لسه.

حاول أن يبتسم ليرطب الأجواء:

- انتي ماسكه فيا ولا في القميص.

قالت وهي تلتصق به:

- لا فيك.

- طيب سيبي القميص.

وضعت رأسها على صدرها قائلة:

- افهمني يا معتز.. أنا محتاجاك.

مرر يده على شعرها، وهو يقول:

- أنا عارف.. بس انتي بقيتي عصبية قوي في الأيام الأخيرة.

قالت:

- أنا خايفة واحدة تخطفك مني.

- تخطفني إيه.. هو أنا بلحق أتنفس من كتر الشغل.

ثم أحاطها بذراعيه، وهو يقول:

- بصي أنا مش قليل الأصل، ومش ناسي انك وافقتي تكملي حياتك معايا بالرغم من أني مبخلفش.

قالت له في حرارة:

- لأني بحبك.. أنا بحبك يا معتز أكتر من نفسي.

غمغم:

- وأنا كمان.. صدقيني بحبك.

ترددت وهي تقول له:

- إيه رأيك نتبنى طفل؟

أبعدها عنه في حدة:

- لا.

صاحت:

- لكن نفسي أحس بالأمومة، نفسي حد يقولي يا ماما، نفسي لما اكبر يبقى في حد معايا، أنت مش نفسك تسمع كلمة بابا.

صاح في وجهها:

- 100 مرة قلت لك لا.. مش معنى إن العيب مني انك تجبريني أربي حد مش من لحمي.

حاولت أن تقنعه:

- طيب وأنت إيه اللي هيضرك.. بالعكس هتاخد ثواب كبير، وهنلاقي حد يونسنا لما نكبر.

قال في غضب:

- برضه لا، أنا مش هجيب عيل من الشارع واربيه في بيتي وأشيله اسم عيلتي وأنا مش عارف أصله من فصله، انتي عاوزة أهل البلد يقولوا عليا إيه.

مالت نحوه:

- وهما هيعرفوا ازاي بس؟

- نعم هيعرفوا ازاي إيه، لما يلاقوا طفل عندنا فجأة، هيظهر 100 سؤال وسؤال.

- ما احنا هنقول انه ابننا.

ضرب كفًّا بكف، وهو يقول:

- ابننا ازاي، وقع من السماء ولا كسبناه في البخت.

قالت محتدة:

- خليك كدا اتريق من غير ما تحاول تفهمني.

- ما انتي اللي بتقولي كلام غريب جدًّا، انتي عاوزة إيه يا وردة؟

- عاوزاك تفهمني، احنا هنقول للناس كلها إنى حامل، وهسافر كام شهر وارجع أقول إنى ولدته، إيه رأيك؟

قال في صرامة:

- مقدرش.. صدقيني الموضوع بالنسبة لي مرفوض شكلًا وموضوعًا.

هتفت في استجداءٍ بالغ:

- طيب والحل؟

أولاها ظهره منهيًا النقاش:

- معنديش حل.. وانا سبق وخيرتك وانتي اختارتيني، وللمرة التانية اهو بخيرك.. أنا مش بجبرك تعيشي معايا.. عاوزة نتطلق نتطلق، وكل واحد فينا يشوف مصلحته.

ثم تركها تبكي ودخل غرفة مكتبه، وأغلق عليه الباب.

***

وقف (محمد) أمام باب الطاحونة وهو متردد، جاء الصوت من

الداخل يسأله في ودٍّ زائف:

- بابا وعايدة قاعدين دلوقتي مع بعض.

غمغم (محمد):

- انت عرفت ازاي؟

ضحك الصوت:

- أنا بعرف كل حاجة.. أنا حتى كنت بتفرج عليكم وانتم قاعدين على الأرض.. على فكرة ريحة الأكل كانت جميلة جدًّا.

- كنت واقف فين؟ احنا كنا لوحدنا.

قال الصوت بسرعة:

- كنت وسط الزرع.

- لوحدك؟

قال الصوت بلهجة حزنٍ زائفة:

- أيوه.. أنا طول عمري لوحدي وماليش أصحاب زيك.. تحب تكون صاحبي؟

تجاوز (محمد) الإجابة عن سؤاله، وسأله:

- مين اللي جابك هنا؟

قال الصوت بطريقةٍ مستكينة:

- ناس أشرار جم خطفوني ورموني في الطاحونة.

- أشرار! أشرار شكلهم إيه؟

قال الصوت بحدة:

- شكلهم مرعب قوي يا محمد.

ارتعش (محمد):

- هما لسه موجودين عندك؟

- لا دول مشوا من زمان.

هتف (محمد):

- طيب ما تخرج بسرعة قبل ما يجوا.

ردد الصوت:

- مقدرش.

تعجب (محمد):

- ليه؟

- أصلهم ربطوني ومش قادر أتحرك.. أرجوك ساعدني.. أنا خايف.

هم (محمد) بالابتعاد، وهو يقول:

- أنا هرجع أروح أجيب بابا ونخرجك.

قال الصوت متلهفًا:

- مفيش وقت.. الأشرار ممكن يرجعوا.. الموضوع مش هياخد غير ثانية واحدة عشان تحررني.

- أنت متأكد؟

- آه متأكد.. تحب احلف لك بالنبي سليمان.

اقترب (محمد) من الباب حتى لم يعد يفصله عنه سوى خطوة واحدة، وهو يقول:

- لكن أنا خايف.

- لا متخافش.. فكني وهنهرب سوا.

عبر (محمد) الباب ودخل..

سمع صوتًا يشبه طنين النحل، ثم دارت رحى الطاحونة ببطءٍ وراح الغبار يتناثر من حوله، نادى بتوترٍ وهو يدير بصره:

- أنت فين؟

جاء الصوت خافتًا:

- امشي في خط مستقيم.

سار في خطٍّ مستقيمٍ مستعينًا بالنور البسيط الذي يتسلل من الباب المفتوح..

بجوار جدار الطاحونة، لمح (الدويس) وهي تجلس القرفصاء على الأرض، لكنه لم يعرفها، قالت:

- قرب يا محمد.

وأشارت إليه بإصبعٍ خالٍ من اللحم.

***

(كمال) و(عايدة) لاحظا اختفاء (محمد)..

حاولا البحث في الأرجاء والقلق ينهشهما كوحشٍ كاسر من الداخل، صاح (كمال):

- أنا اللي غلطان.. مكانش لازم أخليه يغيب عن عيني.

قالت (عايدة):

- متقلقش.. هتلاقيه هنا أو هنا.

قال (كمال) بقلقٍ وخوفٍ بالغين:

- انتي مسمعتيش عن موضوع الديب اللي داير يقتل في أهل البلد.

لم تشأ أن تخبره عن (الدويس) حتى لا تثير فزعه أكثر.. قالت:

- طيب أنت تدور من ناحية وأنا هدور من ناحية تانية.

بسرعة انطلق كلٌّ منهما في اتجاهٍ عكس الآخر..

كان (كمال) يخترق الزرع وهو ينادي (محمدًا) باستمرار ودون توقف، أما (عايدة) فحاولت أن تتبع آثار خطوات (محمد) قدر ما تستطيع.. صحيح أنها لم تكن تجيد تقفي الأثر لكن لحسن الحظ

أن (محمدًا) خلال طريقه، كان يقوم بدهس الزرع فترك من ورائه بعض الدلالات..

أخيرًا انتهى المطاف بـ (عايدة) أمام مبنى الطاحونة ووقفت أمامها وهي تلهث من التعب.

***

في الداخل كانت (الدويس) تنتصب واقفة بينما (محمد) يتراجع إلى الوراء بذعرٍ وهو يرتجف من منظرها المرعب..

حرك (محمد) بصره سريعًا وهو يفكر، ثم انحنى على الأرض وزحف تحت رحى الطاحونة.. كانت المسافة صغيرة وبالكاد اتسعت لجسده الضئيل.. فوق رأسه كانت الطاحونة تهدر بقوةٍ كموتور هائل عملاق..

جزء من شعر (محمد) لامس الحجر الذي يدور.. ما يفصل بينه وبين السحق بضع سنتيمترات.. قبع في مكانه للحظات قبل أن يقرر الزحف إلى الناحية الأخرى..

بهدوءٍ قاتل دارت (الدويس) حول حجر الطاحونة كي تكون في انتظاره حين يخرج من الجهة المعاكسة..

(محمد) كان يشاهد ساقيها وهي تخدش الأرض أثناء مشيها..

قام بتغيير اتجاهه وخرج من الناحية الأخرى ثم تسلق الطاحونة متشبثًا بالبروز الحجرية الموجودة على الجدران.. كان خفيف الحركة وسريعًا جدًا..

نجح في الاقتراب من النافذة التي يقف فوقها الغراب ثم مد كلتا يديه وتشبث بحافة النافذة كي يصعد إليها..

على نحوٍ مفاجئٍ راح الغراب ينقره في يده نقرات سريعة ومؤلمة.. صرخ (محمد) من الألم ومن رؤية الدم الذي تدفق من مكان النقر.. حاول أن يضرب الغراب بيده لكنه طار بعيدًا وهو يطلق نعيقًا غاضبًا.. ومع طيرانه أفلتت يد (محمد) اليمنى، فصرخ.

***

في الخارج وصل إلى (عايدة) صوت صراخ (محمد).. ودون لحظة تفكيرٍ واحدة انطلقت نحو الطاحونة، ثم عبرت الباب وهي تنادي بعصبية:

- أنت فين؟

- أنا هنا.

جذبها مصدر الصوت..

كان (محمد) يمسك حافة النافذة بيدٍ واحدة وجسده يتأرجح في الهواء وبينه وبين الأرض مسافة 10 أمتار على الأقل.. لو سقط لتهشم جسده.

هتفت (عايدة) وهي تهرع ناحيته:

- امسك جامد يا محمد، أنا طالعه لك.

دون أن تشعر ومن ورائها تحركت (الدويس).. صرخ (محمد) الذي

يتابع الموقف من أعلى:

- بصي وراكي.

التفتت (عايدة)..

وبشجاعةٍ بالغة أخرجت من جيبها كومة من الملح الأبيض ونثرتها في وجه (الدويس)..

مجرد أن اصطدم الملح بـ (الدويس) حتى اخترق جسدها وراح يحرق فيها ويذوب مثل ماء النار، فصرخت صرخة هائلة وطوحت يديها في الهواء، ثم اختفت بسرعة..

بنفس السرعة راحت (عايدة) تتسلق الجدار حتى استطاعت الوصول إلى (محمد) ونزلت به إلى الأمان ثم حملته وجرت.

***

خرجت (فاتن) وهي ترتدي نقابًا أسودًا لا يظهر منها سوى عيناها العسليتان اللتان حددتهما بالكحل الأسود..

كانت تمشي بطريقةٍ أقرب إلى الهرولة منها إلى المشي، على الرغم من أنها تحمل حقيبة ثقيلة ممتلئة..

بين الحين والآخر كانت تلتفت وراءها ربما لتتأكد أن لا أحد يتعقبها..

عبرت فوق كوبري القرية ثم وصلت عند الضريح الأخضر..

لفت انتباهها وجود زينة حول الضريح والكثير من الخيام التي

تشبه خيام السيرك لكنها أصغر..

مـرت أمـام مجموعـة مـن الـدراويش، الـذين وقفـوا فـي منتصـف الطريق بالملابس البيضاء الداخلية، يغتسلون بواسطة خرطوم يسـحب المـاء مـن الترعـة باسـتخدام مـوتور صـغير، تـم سـرقة وصلته الكهربائية من عمود الشارع..

صعدت إلى رصيفٍ مرتفع، حتى لا تمر خلال مباراة لكرة القدم تدور بين مجموعة من الأطفال المشردين، الذين قل عددهم إلى النصف بعد انتشار موجة الاختطاف من أجل تجارة الأعضاء.. كانت الكره التي يلعبون بها متهالكة وممتلئة بالثقوب ولا تصلح، ومع ذلك كانوا مستمرين في ركلها والاستمتاع بها..

تجاوزت (فاتن) كل هذا، وبمرور الوقت بدأت تبتعد عن منطقة العمران، وتراجعت المنازل خلف ظهرها..

من بعيد لمحت (كمال، ومحمد، وعايدة) وهم يخرجون من وسط عيدان القصب كأنما يهربون من الموت..

كـانت (فـاتن) تعـرف (عـايـدة) جيـدًا، واشـترت منهـا حبـوب منـع الحمل أكثر من مرة..

تساءلت في قرارة نفسها: "ما الذي أدخلها القصب مع (كمال).. إنها لا تبدو كفتاةٍ سهلة أو رخيصة؟!"

لم تعد النساء شريفات كالسابق، فخلف كل نقابٍ أسود يوجد قميص نوم ملون، هذا التخمين أراح (فاتن) وخفف من إحساسها بعقدة الذنب، ونفخ فيها الكثير والكثير من الارتياح..

تمهلت في خطاها قليلًا حتى لا يلمحونها إلى أن تواروا عن نظرها، ثم أزاحتهم من تفكيرها حين وصلت إلى منطقةٍ مهجورة تمتلئ بمحلات صغيرة مغلقة تشبه علب الكبريت، متلاصقة..

مرت (فاتن) وسط هذه المحلات والريح تعوي فيما بينهم..

كانت هذه المنطقة في الأصل عبارة عن مشروعٍ لنقل بائعي سوق الخضروات، الذي يتوسط البلدة، لكنه فشل بسبب سوء التخطيط وبعد المسافة..

راحت (فاتن) تقرأ أرقام المحلات باهتمامٍ شديد، وهي تسير بحذرٍ بالغ..

بعض المحلات كانت أبوابها مفتوحة وقد استخدمها بعض الناس كدورات مياه..

وصلت إلى محلٍّ بابه الصاج مغلق، ومكتوب فوقه بالطلاء (414).. وقفت أمامه لثوانٍ ثم طرقته ثلاث طرقات خفيفة وأصغت السمع جيدًا..

لوقتٍ ليس بالقصير بدا أن كل شيءٍ لن يتغير، لكن سرعان ما سمعت صوت خطواتٍ ثقيلة وراء الباب قبل أن يتحرك مصدرًا أنينًا معدنيًّا، ثم يظهر خلفه شاب مشعث الشعر، غائر الوجنتين، معدته تلتصق في ظهره من الجوع..

جذبها إلى الداخل بتوترٍ وهو يغلق الباب من جديد، ويقول بصوتٍ مبحوح:

- اتأكدتي إن مفيش حد ماشي وراكي.

قالت بثقة:

- متتقلقش.

نظر إلى الحقيبة التي تحملها، وسألها:

- جبتي اللي قلت لك عليه؟

ألقت الحقيبة تحت قدميه، وهي ترد:

- اتفضل.

جثم على الأرض وفتح الحقيبة.. كان يوجد بها ماء وطعام وملابس نظيفة..

تناول زجاجة ماء وتجرع منها في نهمٍ شديد لدرجة أن الماء راح يغرق صدره.. شهق ثم لهث وقد ارتوى تمامًا.. لم يرفع بصره نحو (فاتن) وانقض على الطعام وراح يلتهمه كالمسعور..

ظلت (فاتن) على حالها واقفة وهي تضع يدها على وجهها محاولة منع الروائح الكريهة التي تملأ المكان من التسلل إليها، لكن بلا فائدة..

أخرجت منديلًا معطرًا وألصقته في فتحتي أنفها..

الشاب لاحظ ذلك بعد أن هدأت معدته، قال بسخرية:

- بقيتي تقرفي بسرعة.

نظرت له باشمئزازٍ ولم ترد..

كان هذا الشاب هو زوجها أو طليقها بمعنى أصح.. كان قد هرب من السجن واتصل بها كي تقابله في هذا المكان.. فكرت أن تبلغ الشرطة لكنها خشيت منه ومن انتقامه، قالت بحدة:

- أنا جبت لك اللي قلت عليه.. حاجة تانية؟

قال في سماجة:

- فلوس.

مدت يدها إلى صدريتها وأخرجت كومة نقود كبيرة وألقتها في وجهه..

نظر إلى النقود التي تناثرت على الأرض ثم نهض، وقال بسخرية:

- لسه برضه بتخبي الفلوس في نفس المكان.

اقترب منها ومد يده ليتحسس صدرها، فأمسكتها وهي تنظر إليه في صرامة:

- أنت عاوز إيه دلوقتي؟

قال بغضب:

- أنا عملت كل ده عشانك.. ودخلت السجن بسببك.

صاحت:

- بلاش كلام فاضي.. أنت اللي حمار.

- انتي اللي طلباتك مكانتش بتخلص، وأنا كنت عاوز ارضيكي

بأي طريقة.

- محدش قالك روح تاجر في المخدرات.

قال محتدًّا:

- بصي.. انتي لسه مراتي على ذمة الله ورسوله.

ضحكت:

- على ذمة الله ورسوله، أنا خدت حكم بالطلاق من المحكمة من زمان.

- باطل.. أي طلاق من المحكمة باطل.

ضربت كفًّا بكف:

- أنت يا بني مجنون.. السجن أثر على عقلك.

هتف:

- تعالي معايا نسيب البلد دي.

صاحت باستنكار:

- أنا مالي ومالك.. أنا جبت لك اللي أنت قلت عليه.. خلاص كدا أنا دوري انتهى.

- اسمعيني بس.. أنا وصلت لناس ممكن يهربوني ليبيا عن طريق السودان.. تعالي معايا.

- مقدرش أعيش هربانة زيك.

أخرج (جوازي سفر) مزورين قائلًا:

- عملت جوازين نهرب بيهم.

ضربت يده فسقطت جوازات السفر على الأرض، وهي تقول بحدة:

- سافر أنت مع نفسك.

التصق بها، وهو يقول:

- مقدرش أعيش من غيرك.

دفعته في صدره، وهي تهتف:

- تعيش ولا تموت.. أنا مش فارقة معايا.

وأرادت أن تغادر لكنه جذبها من ذراعها بقسوةٍ، فصاحت:

- ابعد عني.

كبل حركتها وأسقطها أرضًا.. صرخت بوهن:

- لا بلاش.

لم يعبأ بمقاومتها.. انقض على عنقها وصدرها يقبلهما في جوع..

أغمضت عينيها وتركته يفعل بها ما يشاء عملًا بالمثل الذي يقول: "إن لم تستطع المقاومة، فالأفضل أن تستمتع."

بعد ربع ساعة كان باب المحل يفتح ثم تخرج منه (فاتن) وهي لا

تزال تهندم ملابسها..

في الداخل ارتمى طليقها على الأرض وأشعل سيجارة مسترجعًا الدقائق اللذيذة التي مضت منذ قليل، بعد مدة سمع صوت خدش على الباب.. اعتقد في البداية أن هذا هو الهواء أو ربما شخص مشرد يمر بالجوار..

التزم الصمت والسكون..

عاد الخدش من جديد على الباب..

ثم وبقوةٍ هائلة، شيءٌ ما انتزع الباب من مكانه..

تراجع للوراء وهو يشهق من الفزع..

اقتربت منه (الدويس)..

صرخ.. وصرخ.. وصرخ..

ضربته (الدويس) في معدته فمزقتها..

جزء من أمعائه تدلى بين ساقيه..

سقط على الأرض وهو يتألم.. رفع يده اليمنى أمام وجهه، وصاح:

- استنى.

الغريب أنها استجابت لكلامه وتوقفت، قال:

- أنا مش عاوز اموت.

ضربت عنقه بسيف يدها، فطارت رأسه في الهواء، ثم ارتطمت

بالجدار وتركت فوقه بقعة دموية حمراء قبل أن تتدحرج على الأرض وتستقر بجوار جواز السفر الخاص بـ (فاتن).

***

(١٥)

صـرخ (معـتز) وهـو يضـغط على نواجـذه وقـد تصلبت عضلاته وبرزت عروقه حتى كادت أن تنفجر..

ثم وبكل قوةٍ رفع ثقل الحديد من فوق صدره، وانتصب واقفًا..

صاح المدرب وهو يحمسه:

- عاش يا بطل.

في الآونة الأخيرة دأب (معتز) على الذهاب إلى نادي الكاراتيه كل يومٍ على عكس السابق، حين كان لا يأتي سوى مرة أو مرتين في الأسبوع..

بعدما انتهى من الإحماء، توجه برفقة المدرب إلى منتصف صالة التـدريب.. تجمع كـل المـوجودين فـي دائرةٍ حولهم للاستمتاع بالقتال الذي سوف يدور بعد قليل..

الجميع يعلم أن القتال سيكون قويًا..

وقف (معتز) في مواجهة المدرب وعلى وجه كلٍّ منهما الجدية البالغـة.. كلاهمـا كـان يرتـدي حلـة الكاراتيـه البيضـاء والـحزام الأسـود، المدرب كـان في نفس طول قامة (معتز) لكنه أضخم وأكثـر شبابًا.. باعـد (معتز) بـين سـاقيه وأطلـق صـيحة قتاليـة معروفة ثم انقض على المدرب بركلةٍ قوية..

استقبل المدرب الركلة على ساعده بمهارة، ثم طوح يديه في وجه (معتز) الذي انحنى للأسفل ودار حول نفسه في رشاقة،

ولكم المدرب لكمة هائلة فأسقطه أرضًا..

انفجر الموجودين بتصفيقٍ حار إعجابًا بتلك الحركة.. ابتسم (معتز) ابتسامة ودود ثم مد يده ليعاون المدرب على النهوض قائلًا:

- عاش يا كابتن.

أمسك المدرب يد (معتز) الممدودة نحوه وقفز واقفًا:

- تسلم يا بطل.

سار بجوار (معتز) وعاد يقول:

- الحركة بتاعة النهاردة جديدة.. انت كل يوم بتفاجئني.

قال (معتز):

- امبارح كنت بتفرج على فيلم أكشن ولقيت البطل بيعملها، قلت أجربها معاك.

ضحك المدرب، وهو يتحسس مكان الضربة:

- لا بس حركة قوية.

وصمت قليلًا قبل أن يقول:

- أنت فعلًا كنت وصلت لنهائي الجمهورية.

أومأ (معتز) برأسه:

- أيوه.. بس خسرت.

سأله المدرب:

- ومكملتـش ليـه؟ أنـت عنـدك اسـتعداد، وواضـح انـك مـوهوب بالفطرة.

تنهد (معتز):

- الظروف بقى.

- لاعبت مين في النهائي؟

- لاعب من كلية الشرطة.

قال المدرب بمكر:

- أكيد التحكيم كان معاه.

- لا.. التحكيم كان عادل جدًا.. هو كسب بمجهوده.. وعلى فكرة اتصاحبنا بعدها وجه زارني هنا، وأنا رحت زرته.

- ولسه بتكلموا بعض؟

ظهر الضيق جليًا على وجه (معتز) وهو يقول:

- الله يرحمه.. مات.

رفع المدرب حاجبيه، قبل أن يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. مات ازاي؟

أجاب (معتز) بضيق:

- مات أيام الثورة.. خد رصاصة في دماغه.

وقبـل أن يعلـق المـدرب بشـيءٍ آخـر، قـام (معـتز) بتغـيير دفـة الحديث الذي حرك الحزن الراكد داخله، وقال:

- بقالي فترة حاسس بوجع في جنبي اليمين من ساعة ما اخدت حقن تضخيم العضلات.

هز المدرب كتفيه:

- الطبيعي إنه تاخد حقنة كل يومين، لكن مع الكورس اللي أنا عامله ليك، حقنة كل يوم مع بودرة الأحماض الأمينية، هتحس شوية بنغزة بسيطة، وده راجع لأنك مبتحرقش كل حاجة في التدريب.. من بكرة هزود ليك الحمل التدريبي.

زوى (معتز) ما بين حاجبيه:

- بص.. أنا سمعت ان الحاجات دي بتأثر على الكبد.

احتقن وجه المدرب:

- لا طبعًا.

سأله (معتز) باهتمام:

- أنت متأكد؟

أجابه المدرب بلهجةٍ تدل على الثقة:

- متأكـد جـدًّا.. متصـدقش كل اللي بتسمعه.. يعني مثلًا الناس عماله تقول إن فيه مخلوق اسمه الدويس.. طبعًا كل ده كلام

مش حقيقي ومستحيل يحصل.

قطب (معتز) جبينه:

- عندك حق.. ده كلام محدش يصدقه.

***

على عكس كل يوم، فوجئ (عبده) بـ (محروس) يدخل النادي وعلى وجهه شقاء الدنيا والآخرة.. قام محروس بتعليق عمامته الحريرية على المشجب القريب من باب الدخول، ثم ألقى بنفسه على أقرب مقعد، وهو يتمتم ببعض الجمل الغير مرتبة..

فهم (عبده) بسرعة ما يحدث وما المطلوب الآن.. بسرعة ذهب وغاب لدقيقةٍ واحدة، قبل أن يعود وهو يحمل (الشيشة) المذهبة الخاصة بـ (محروس)..

غاب مرة أخرى ثم عاد بصحفة فوقها زجاجات بيرة وطبق يمتلئ بتشكيلة من المكسرات المقشرة..

جلس (عبده) تحت قدمي (محروس) الذي لم يبدُ أنه انتبه حتى لوجوده، ووضع حجر المعسل المختلط بالحشيش المغربي، ثم رصف فوقه قطعة فحمٍ صغيرة، ونفخ فيها بخبرة واضعًا كفه حولها حتى تشتعل بسرعة..

بدا (محروس) يسحب النفس تلو الآخر بينما أحجار الدخان وماء (الشيشة) يصدران قرقعة قوية.. كان كلما فرغ من حجرٍ قام (عبده) باستبداله على نحوٍ سريع..

بعد قليلٍ تكونت سحابة من الدخان الأزرق فوق رأسيهما.. رفع (الحاج محروس) زجاجة بيرة إلى حلقه وتجرع نصفها دفعة واحدة بينما سأله (عبده) باهتمام:

- مالك؟

قال (الحاج محروس) بعد لحظةٍ من الصمت، وقد احمر وجهه:

- دماغي.. دماغي هتنفجر من كتر التفكير في الموضوع ده.

- موضوع إيه؟

تنهد (محروس):

- موضوع الدويس.

قال (عبده) بغباءٍ مصطنع:

- دويس إيه؟

صاح (محروس) بنفاد صبر:

- أنت عايش في كوكب تاني ولا إيه، مش شايف اللي بيحصل، كل شوية نلاقي جثة حد مقتول، آخرهم من يومين لقوا جثة واحد هربان من السجن.

ضحك (عبده) في سماجه:

- ولا في الدماغ كل ده.. ويوم ما الموت يجي أنا اللي هختار ميعاد وطريقة موتي.

- فـي حـد برضـه بيختـار ميعاد موتـه.. طـول عمـرك دمـاغك ملحوسة.

ضحك (عبده) وهو يشير بيده إلى ساقه المقطوعة، ويقول بلهجةٍ ذات مغزى:

- خدنا إيه يعني من الدماغ النضيفة غير ده.

نزل (محروس) من على المقعد، وافترش الأرض بجوار (عبده) وهو يقول بخبث:

- يعني كله اتقطع؟

هتف (عبده):

- عيب عليك، الباقي سليم حتى اسأل التلت نسوان اللي على ذمتي.

أشاح (محروس) بيده وهو يضحك:

- هما اللي علـى ذمتـك دول نسـوان.. دول زي الغفـر اللي كانوا بيشتغلوا عند جدي الحاج داغر.

شاركه (عبده) الضحك قبل أن يقطع ضحكته، ويقول بجدية:

- التمثال نطق النهارده.

قال (محروس) بتهكم:

- طب احلف.

- آه والنعمة.. امبارح كنت بقوله انطق فنطق.

ضحك (الحاج محروس):

- ها.. وقالك إيه؟

قال (عبده) بجدية:

- نادى عليا باسمي.

جلجلت ضحكة (الحاج محروس) حتى وصلت إلى الدخان الأزرق الذي التصق في السقف:

- الدماغ دي متكلفة.. قولي التعميرة كنت جايبها منين؟

قال (عبده):

- أنت قلت لي لو التمثال نطق هتديني نص ثروتك.

ربت (محروس) على كتف (عبده):

- طيب قوم روح دلوقتي ونام.. أنا هقعد مع نفسي شوية.

نهض (عبده) من على الأرض، وهو يستند على كتف (محروس) ويقول:

- طيب وحياة رجلي اللي راحت التمثال نطق.

لم يعقب (محروس) على كلامه، وراح يتجرع البيرة على مهل، وهو يتلذذ بالطعم..

نظر له (عبده) لوقتٍ ليس بالطويل ثم غادر النادي مثل كلبٍ

أجرب..

أسند (الحاج محروس) رأسه على حافة المقعد، وأسبل عينيه بعد أن أنهى زجاجة البيرة الأخيرة..

بشكلٍ مفاجئٍ تردد نداءٌ محموم:

- محروس.

انتفض (الحاج محروس) وفتح عينيه، وهو يستدير نحو مصدر الصوت بسرعةٍ بطريقةٍ جعلت المقعد يكاد أن ينقلب به، هتف:

- مين؟

لم يسمع إجابة..

رغم ذلك كان واثقًا أن مصدر الصوت جاء من عند التمثال الذي يتوسط البهو..

نهض من مكانه وكلام (عبده) يتردد صداه داخل ذهنه (التمثال نطق النهارده.. نطق النهارده.. النهاااااردة)

ظل ينظر إلى التمثال كأنه شخص من لحمٍ ودمٍ يريد أن يسبر أغواره، لكن التمثال ظل جامدًا ووجهه البرونزي يلمع بطريقةٍ غريبة.. وضع (الحاج محروس) يده على التمثال وقلبه ينبض سريعًا في صدره متأهبًا للهروب.. شعر ببرودة المعدن تتسلل من التمثال إلى أطراف أصابعه وتصل إلى قلبه، ثم تغرز فيه كمخالب حادة.. خفض يده ببطءٍ وكاد أن يعود إلى مقعده لولا أن حدث شيءٌ أغرب من الخيال..

تحرك التمثال إلى الأمام..

تحرك خطوة واحدة..

تراجع (محروس) إلى الخلف بضع خطوات..

تقدم التمثال نحوه نفس عدد الخطوات..

لاحظ (الحاج محروس) أن التمثال لا يسير.. هناك من يحمله ويختبئ وراءه.

ببطءٍ أمالت (الدويس) رأسها قليلًا، وظهرت من خلف التمثال.. صرخ (الحاج محروس) في فزعٍ قبل أن يعرقله أحد المقاعد ويهوي به.. رفعت (الدويس) ساقها وأرادت أن تطحن بها رأس (الحاج محروس) لكنه تدحرج على بطنه، ثم نهض واقفًا، وركض بسرعة.. انقضت عليه (الدويس) وأمسكت به من ظهر جلبابه لكنه تمزق في يدها.. (الحاج محروس) ظل يركض دون توقفٍ حتى خرج من النادي، وركب سيارته وانطلق بها.. عندما وصل إلى منزله دخل إلى غرفة مكتبه مباشرة وأغلق الباب، ظل يرتجف في مكانه غير مصدق، قبل أن ينهار على ركبتيه ويرمي بجبينه على الأرض، يبكي في هستيريا.

***

وصل (معتز) إلى منزل (الحاج محروس) بناءً على مكالمةٍ هاتفية من زوجته التي كانت في استقباله، فسألها بقلق:

- إيه اللي حصل؟

أجابت:

- قافل على نفسه باب مكتبه من جوه بقاله يومين وعمال يعيط.

قال (معتز) في دهشةٍ وتعجب:

- انتي متأكدة انه بيعيط؟

أومأت برأسها:

- صوته كان واضح قوي.

انعقدا حاجباه بقلقٍ وسألها:

- حاولتي تكلميه؟

قالت:

- آه لكن مش راضي يرد أو حتى يفتح الباب.

سألها:

- طيب هو متعود لما يزعل يعمل كدا؟

هزت رأسها نافيه:

- أبدًا.. أول مرة.

هتف:

- متقلقيش.. خشي انتي أوضتك وأنا هتصرف معاه.

ثم توجه إلى غرفة مكتب (محروس) وطرق الباب بروية:

- محروس.. محروس.

جاءه صوته من الداخل:

- امشي دلوقتي يا معتز.

- طيب فهمني فيه إيه؟

- مفيش حاجة.. عاوز اقعد مع نفسي شوية.

صاح (معتز):

- افتح عشان اعرف أكلمك.. مش هينفع الكلام بالطريقة دي.

مضت لحظات ظن خلالها (معتز) أنه لن يفتح له الباب، لكنه سمع صوت المزلاج يتحرك من مكانه، وجاء صوت (محروس) خافتًا:

- ادخل واقفل الباب.

تقدم (معتز) إلى الأمام بضع خطوات، كانت الغرفة مظلمة تمامًا، سمع من جديد صوت (محروس) يقول بحدة:

- اقفل الباب وراك.

أغلق (معتز) الباب خلفه، وهو يقول:

- أنت قاعد في العتمة ليه كدا يا راجل؟

ثم مد يده إلى مفتاح النور وأضاء المكان..

أصابته نوبة من الدهشة ممتزجة بالخوف حين رأى (الحاج

محروس) وهو منكمش حول نفسه وراء مكتبه يرتجف بشدة، وقد اصفر وجهه وزاغت عيناه.

قال (معتز):

- مالك.. أنت عيان؟

هتف (الحاج محروس) والزبد يتطاير من فمه:

- الدويس جت زارتني.

شعر (معتز) بانقباضة في قلبه، رغم ذلك أخرج منديلًا من قميصه وناوله للـ (حاج محروس) كي يمسح فمه، وقال في سخط:

- أنت برضه بتصدق في الخرافة دي.

مسح (الحاج محروس) فمه:

- عشان أنت مشفتهاش.. هي والموت واحد يا معتز.. أنا لازم أروح للشيخ عرفة.. الراجل ده هو الوحيد اللي كلامه كان صح.

لم يعجب (معتز) هذا الكلام، فقال:

- أنت متأكد إن ده مش تأثير حاجة شربتها.

- ما طول عمري بشرب.

- يمكن المرة دي كنت تعبان.

أمسك (محروس) ذراعه بقوةٍ وقال:

- أنا متأكد من اللي شفته.

ثم ترك ذراعه، وعاد يقول:

- ودي مش أول مرة تظهر لي.

سأله (معتز) باهتمام:

- هي ظهرت لك قبل كدا؟

أومأ (الحاج محروس) برأسه:

- فاكر لما الشيخ عرفة جه يحذرنا منها.

- أكيد فاكر.. وهو ده يوم ممكن يتنسي.

ابتلع (الحاج محروس) ريقه:

- بعد لما مشي بفتح الشباك شفتها واقفة وراء الإزاز وبتبص لي وبعدين اختفت.

- وليه مقلتش الكلام ده قبل كدا.. دماغك كان فيها إيه بالضبط.

ارتعشت يد (الحاج محروس) وهو يقول:

- أنا.. أنا مش عارف.. ده اللي حصل و...

فجأة قطع كلامه حين سمع صوت طرقٍ على الباب. تراجع إلى الوراء وهو يضم يده إلى صدره في خوف:

- جاية عشان تقتلني يا معتز.

قال (معتز):

- متخافش.. دي مراتك.

توجه كي يفتح الباب، حينما قال (الحاج محروس) بصوتٍ خفيض:

- بلاش تفتح.

لكن (معتز) فتح الباب..

زوجة (الحاج محروس) كانت تقف على عتبة الباب وعيناها تسبحان في الدموع مما سمعته.. (معتز) قال لها:

- أنا مش طلبت منك ترجعي أوضتك.

هتفت:

- مش قادره اسيبه كدا.

تنهد (معتز):

- كمان شوية هيهدا.. اطمني.

ثم التفت إلى (الحاج محروس) الذي يرتعش، وشعر نحوه بالأسف الشديد.

***

(١٦)

حاول (كمال) أن يكسر حالة الخوف التي يعيشها (محمد) بعد لقائه بـ (الدويس).. كان قد علم من (كرتونة) عن وجود مولدٍ شعبيٍّ مقام عند الضريح الأخضر الموجود على مدخل البلد، وقرر أن يصطحب معه (محمد).. للأسف كانت (عايدة) مصابة بالبرد ولم تكن تستطيع القدوم معهما، ولقد رفض (محمد) الذهاب، كان خائفًا جدًّا ويشعر بعدم الأمان في الخارج، لكن (كمال) صمم وطلب منه بحزمٍ أن يرتدي ملابسه بسرعة، وبعد نصف ساعة استطاع إقناعه وخرجا من المنزل.. استقلا سيارة أجرة أنزلتهما على مسافةٍ غير بعيدة من المولد، كان المولد يبدو من تلك المسافة كخلية نحلٍ هائلة، مركزها عند الضريح الأخضر حيث تختلط هناك كل الأصوات والأشكال والألوان.. برقت عينا (محمد) وقفز في الهواء، وكاد أن يجري لولا أن منعه (كمال):

- بلاش تجري.. خليك في إيدي علطول.

تحركا سويًّا..

أصوات الأراجيح وضحك الأطفال لا ينقطع..

أمام مدخل المولد شاهدا عجوزًا تمد يدها وتطلب الإحسان..

- لله يا بني.. يخلي لك ابنك ويحفظه لك من شر العين وشر الناس اللي مش بيصلوا على النبي.

مد (كمال) يده في جيبه ثم ناولها ما جادت به نفسه..

وضعت النقود في صدرها، وعادت تمد يدها لغيره بطريقة سيدة أعمال لا تملك رفاهية إضاعة الوقت.

مر أمام (كمال، ومحمد) موكب دراويش طويل يحملون الأعلام الملونة والمزركشة بكتاباتٍ مختلفة مثل: (لا إله إلا الله) و (الله أكبر) و (محمد رسول الله)..

كان الدراويش يترنحون يمينًا ويسارًا كالسكارى منتشين بذكر الله، وهم يرددون بصوتٍ جهوري:

- الله حي.. الله حي.

راح (محمد) يتمايل بطفوليةٍ، ويقول:

- الله حي.. الله حي.

سأله (كمال) وهما يسيران:

- تحب تركب المراجيح ولا الساقية القلابة؟

أجاب (محمد) بسرعةٍ ولهفة:

- المراجيح طبعًا.

في طريقهما كان يوجد رجل ذو لحيةٍ متسخة، يرتدي جلبابًا أبيض اللون حافلًا بالبقع، يضع فوق رأسه عمامة كبيرة، ويمسك بيده مقصًا حادًا طويلًا، وبجواره دلو معدني به قطع تشبه الجلد الأبيض.. كان هناك زحام حول هذا الرجل، زحام عبارة عن نساءٍ يرتدين ملابس رثة، ويحملن أطفالًا صغارًا..

ناولت امرأة ابنها للرجل، وهي تقول:

- سم الله.

صاح الرجل بصوتٍ جهوري:

- بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ثم كشف عما بين ساقي الطفل، وكبر عاليًا:

- الله أكبر.

زغردت الأم وزغردت نساء أخريات حين انتهى الرجل من ختان الطفل، ثم رفع جلدة الختان وألقاها في الدلو.

وضع (كمال) يده أمام وجه (محمد) حتى لا يرى ما يحدث.

- عاوز أشوف.

قالها (محمد) وهو يحاول أن يرفع يد والده من على وجهه، لكن (كمال) أحكم وضع يده حتى وصلا إلى منطقةٍ تحتوي على كافة الأراجيح بأشكالٍ وأنواعٍ مختلفة..

اختار (كمال) أرجوحة صغيرة تشبه القارب ووضع فيها (محمدًا) ثم وقف يراقبه.. دون أن يدري جذبه صوت شخصٍ يقرأ قرآنًا، كان رجلًا أعمى، يرتدي نظارة ذات عدسات سوداء، يجلس القرفصاء على سجادة، ويشبك كلتا يديه فوق صدره، وهو يرتل القرآن ترتيلا..

من حوله تجمع الرجال والنساء.

- الله أكبر عليك يا شيخ.

يهتفون ثم يلقون في حجر جلبابه ما تجود به أنفسهم من نقود، نوع من أنواع التسول المغلف بورقة الدين والإيمان، رغم ذلك كان صوته رخيمًا يجعلك تشعر بقشعريرةٍ في قلبك وروحك..

فجأة انتبه (كمال) إلى (محمد).. التفت بسرعة..

كانت الأرجوحة تدور في الهواء وهي خالية..

دار حول نفسه كالمجنون..

أين ذهب محمد؟

أصابه الرعب من فكرة ضياعه..

جرى بسرعة..

جرى كما لم يجرِ من قبل..

كان يخترق حشود النساء والرجال..

- محمد.

يصرخ باسمه لكن لا أحد يسمعه..

لا بد أن تكون هناك طريقة للعثور عليه.. يعلم أن هناك طريقة، عقله متوقف ولا يستطيع التفكير..

فجأة يتذكر..

يجري مسرعًا..

وصل إلى الرجل الذي يقوم بختان الأولاد..

- بابا.

وصل إليه نداء (محمد).

تتبع الصوت حتى عثر عليه وهو يرتعش كورقة شجرٍ في فصل الخريف..

احتضنه بقوةٍ وهو يقول:

- إيه بس اللي جابك هنا؟

انهمرت الدموع من عيني (محمد) ولم يجب، حمله (كمال) على كتفه وهو يربت على ظهره، ويقول:

- طيب خلاص متزعلش.. أنا الغلطان.

قال (محمد) وهو يغمض عينيه:

- أنا عاوز اروح.

- هنروح دلوقتي.

ثم خرجا من المولد.

***

مضت مدة من الوقت و(كمال) في انتظار أي وسيلة مواصلات للعودة، إلى أن قال وهو يحدث (محمدًا) ويتنهد:

- شكلنا هناخدها مشي.

لم يرد (محمد)..

كان (كمال) يشعر بإرهاقٍ تام، ورغم ذلك حمل (محمدًا) وسار في طريق العودة بينما الرياح تعصف..

بعد قليلٍ كان (محمد) قد نام على كتفه وارتخت أطرافه، أثناء سيره شعر (كمال) أن الشوارع صامتة أكثر من اللازم، فكر أن يختصر الطريق ويمر خلال المقابر، المسافة من هناك أقل وسيصل بسرعة، لحسن حظه أن (محمدًا) نائم ولن يعترض، انحرف يسارًا تجاه المقابر حتى وصل إلى بابٍ خشبي، دفعه بيده فأصدر صليلًا مخيفًا ثم دخل.. بالرغم من أن (كمال) ليس بالرجل الجبان لكنه لم يستطع أن يمنع ارتجافة باردة سرت في جسده، وقد أحاطته ظلمة لا يكسرها غير شعاعٍ ضعيفٍ من القمر.. دون سابق إنذار تحركت سحابة سوداء وغطت القمر، فازداد الظلام حول (كمال).. وفي الظلام تحرك شيءٌ ما، لم يكن (كمال) يراه لكنه استشعر وجوده، راح يحاول استكشاف طريقه وقد شعر أنه يدور داخل دوائر لا تنتهي، نصف ساعة قضاها وفي كل مرةٍ يجد نفسه يسير في نفس الطريق، كان يشاهد أنوار الطريق من بعيد، رغم ذلك كان لا يستطيع الوصول إليه كأن المقابر تدور به، شعر بتشويشٍ حادٍّ في ذهنه، هز (محمد) رقبته كأنه على وشك الاستيقاظ، فسقطت قبعته من فوق رأسه، مد (كمال) يده وأعادها مكانها حتى لا يبرد، وبينما هو يفعل ذلك سمع حركة، ثم رأى شيئًا لا يعرف ما هو، لكن هذا الشيء اختفى بسرعةٍ هائلة في الظلام..

هنا دوى صوتٌ أجش:

- بتعمل إيه هنا؟

التفت (كمال) إلى صاحب الصوت، رأى أمامه مباشرة رجلًا كهلًا طويل القامة، يضع (بطانية) صغيرة فوق كتفه، ويمسك في يده عكازًا خشبيًا له مقبض معدني، قال (كمال):

- الظاهر إني تهت.

ضحك الكهل، فبدت نواجذه:

- في حد يتوه هنا.. ده الجبانة كلها شبر ونص.

قال (كمال):

- طيب لو ممكن تدلني أخرج منين؟

قال الكهل وهو يتحرك:

- تعال ورايا.

سار (كمال) خلفه دون كلمةٍ أخرى زائدة.. طريقة سير هذا الرجل وحركته لم تكن مريحة، تذكر (كمال) حكايات جن المقابر وعمار المكان، قال الرجل الكهل:

- الإنسان بيتولد وهو شبرين بس، ولما بيموت بيكون 7 شبر.. يعني كل القتل والظلم اللي في الدنيا دي عشان 5 شبر زيادة، هيدفن فيهم.

لم يسمع ردًّا من (كمال) فاستدار نحوه فلم يجده.

في تلك اللحظة كان (كمال) يهرول مبتعدًا..

تلونت عينا العجوز واسودت بطريقةٍ بشعة ثم انحنى ظهره وتقوس، وجرى على يديه وقدميه مثل الحيوانات.. لم يجد (كمال) حلًّا أمامه غير الاختباء داخل أحد القبور المفتوحة، استعاذ بالله من الخبث والخبائث ثم دخل القبر، مكث في الظلام غير بعيد عن المدخل وهو يحتضن (محمد) بقوة، كان يستطيع أن يرى شواهد القبور من مكانه، قطع مستوى الرؤية أمامه ظهور (الدويس).. كانت هي الرجل العجوز الذي ظهر له، ظلت تتجول بين المقابر حتى توقفت أمام القبر الذي يختبئ فيه، مرت الثواني القليلة التالية كالدهر، ارتجافة قوية تملكت رأس (كمال) حتى أخمص قدميه، لكنه تمالك نفسه وراح يدعو الله ألا تراه..

أخيرًا انصرفت..

وساد بعدها سكونٌ عميق.

***

(١٧)

اندلعت مشاجرة حامية الوطيس بين (فاتن) وأمها (نوال).. عندما أقدمت الأخيرة على أخذ ألف جنيهًا من نقود (فاتن) دون إذنها.. كان انقطاع (الحاج محروس) عن زيارتهما سببًا رئيسيًّا في حدوث ما يشبه أزمة مالية لديهما.. بصقت (نوال) كتلة دم من فمها بعدما صفعتها (فاتن) بقسوة، لم تجد ما تنطق به أو تفعله بعد ذلك سوى أنها خرجت من الشقة في صمت، أغلقت (فاتن) الباب خلفها وهي تصرخ:

- أنا بكرهك.

ثم اتكأت بظهرها على الجدار، ودفنت وجهها بين كفيها في ألم..

لدقائق ظلت على هذا المنوال، المشهد كان أشبه بلقطةٍ ثابتة من فيلمٍ تراجيدي قديم ينتهي بانتحار البطلة والبطل والمؤلف والمخرج والمشاهدين جميعًا، اليوم وللمرة الأولى في حياتها تستشعر إلى أي درجة وصلت من انحطاط، وأخيرًا تحرك المشهد.. انفجرت (فاتن) بالبكاء وظلت تصفع نفسها وتمزق شعرها فتحولت لشيءٍ يشبه الزومبي في أفلام هوليود منخفضة الميزانية..

بعد أن أفرغت كثيرًا من شحنة مشاعرها السلبية، اتجهت ناحية الحمام بخطواتٍ متثاقلة مهمومة مع مئات من المشاحنات والأحاديث الصاخبة التي تدور في مخيلتها.

باب الحمام المكتسي بطبقة دهانٍ زرقاء، كان نصف مفتوح،

أمالت (فاتن) جسدها إلى الجنب قليلًا وتسللت خلاله دون أن تفتحه بالكامل في حركةٍ غير مفهومة، وأغلقته خلفها في حركةٍ أخرى غير مفهومة أيضًا.. من الداخل كانت رائحة فواحة عطر الياسمين قوية ونافذة، الأرضية بلون السماء الصافية، على الأرض توجد سجادة صغيرة كانت تقوم بغسلها منذ أسبوع لكنها تكاسلت وتركتها، بجوار السجادة كانت توجد سلة بها ملابسها الداخلية، جمعت الملابس ثم ألقتها في الغسالة النصف أتوماتيك ذات فتحتي الغسيل والعصر، وضغطت زر التشغيل، صوت دوران موتور الغسالة كان أشبه بهمهمة مكتومة، في الواقع هو لم يكن يدور، لقد كان يحترق وخرجت منه رائحة تدل على ذلك، عرفتها (فاتن) على الفور، فأسرعت تفصل الكهرباء لكن الوقت كان قد فات، أطلقت سبة بذيئة مكونة من ثلاثة حروف بمعنى أحتج، وركلت الغسالة في غضب.. انقلبت الغسالة على الأرض بدويٍّ مزعج وامتلأ الحمام بالمياه الممزوجة بسائل الغسيل ذي القوة الثلاثية الجبارة الفتاكة، قررت (فاتن) أن تنسى كل شيءٍ وتسترخي، وضعت سدادة جلدية في فتحة صرف حوض الاستحمام، ووقفت تراقبه وهو يمتلئ بالماء، جلست على حافة حوض الاستحمام ثم أضافت سائل غسل الجسم المفضل لديها برائحة الفانيلا، كان أمامها وقت حتى يمتلئ، تناولت علبة سجائرها، علبة لم يفض غشاء بكارتها بعد، سحبت سيجارة من العلبة بعد أن أزاحت الورقة (السلوفان) عنها، وضعت العلبة بجوارها على حافة حوض الاستحمام الذي أوشك على الامتلاء، أشعلت السيجارة وسحبت منها نفسًا عميقًا وأخرجته، راقبت الدخان وهو يتجسد أمامها على هيئة وجه (الحاج محروس) وهو يغمز لها بعينه، نفخت في الدخان، فتشت في الهواء

وتلاشى الوجه والغمزة.. انتبهت فجأة لامتلاء حوض الاستحمام وللمياه التي فاضت منه وعبرت من فوق الحواف الرخامية، أغلقت الصنبور ثم راحت تنزع عنها ملابسها قطعةً قطعة، المرآة العريضة التي في ظهرها كانت تعكس النمش الذي يملأ ظهرها، وشعرها الذي أسدلته تمامًا، فلامس طرف مؤخرتها من أعلى، بهدوءٍ غاصت بكامل جسدها تحت الماء وأغمضت كلتا عينيها، شعرها يسبح فوق الماء، لم تعد تشعر بشيءٍ وذهبت إلى عالمٍ آخر خيالي وهدوءٍ نسبيٍّ مؤقت.. لم يكن يقطع الهدوء والسكون سوى صوت قطرات الماء التي ما زالت تتسرب من الصنبور، كانت تشبه دقات رتيبة ومشوقة لفيلم رعب، بعد نصف دقيقة وصل إلى أذني (فاتن) صوت حركة مفصلات باب الحمام وهو يتحرك، شعرت بتيارٍ كهربائي يسري في جسدها، أخرجت رأسها بسرعةٍ من تحت الماء وهي تشهق وتملأ رئتيها بكل الأكسجين الموجود، صوبت عينيها إلى باب الحمام المفتوح على مصراعيه، دارت بهما سريعًا في الأرجاء، لا وجود لشيءٍ إلا صورتها التي في المرآة..

لكن من فتح الباب؟

حاولت أن تقنع نفسها أنه تيار الهواء القوي الذي يأتي من نافذة المطبخ الذي تركته مفتوحًا، نهضت عارية، ثم خرجت من الماء وأغلقت باب الحمام، هذه المرة تأكدت أنه مغلق بإحكام، ووضعت المفتاح في القفل، عادت إلى حوض الاستحمام وهي تمني نفسها بوقت استرخاءٍ طويل..

للأسف هي لم تكن قوية الملاحظة كي تلمح آثار الأقدام

الموجودة على الأرض، والتي تدل على وجود شيءٍ ما..

لكن أين هو الآن؟

ربما كان يختبئ خلف ذلك الستار الأخضر الذي يهتز.

***

اهتزت لوحة إعلانية بجوار (نوال) وهي تقف على زاوية مفترق طرق.

الشوارع شبه فارغة في هذا التوقيت الليلي، قط أسود كبير الحجم يتدحرج على الإسفلت، عبر من تحت قدمي (نوال) لكنها لم تشعر به، كانت تفكر في تلك النقطة التي وصلت إليها، بمرور الوقت ودون أن تشعر، أصبحت تحدث نفسها بصوتٍ مرتفع، جذب فضول امرأةٍ تعبر الطريق، اقتربت منها المرأة وقالت لها بعطف:

- سلامتك يا حبيبتي.

انتبهت لها (نوال) فقالت بحرج:

- الله يسلمك.

سألتها المرأة:

- حد مزعلك؟

أجابت باقتضابٍ حتى تنهي هذا الحوار:

- لا.

قالت المرأة كأنها لم تسمعها:

- تلاقيه جوزك.. هما الرجالة لما يكبروا بيتهبلوا.

غمغمت (نوال):

- آه هو جوزي.

ابتسمت المرأة إعجابًا بنفسها، وقالت:

- على العموم روقي.. مفيش راجل يستاهل انك تزعلي عشانه.

وترددت للحظةٍ قبل أن تسألها:

- محتاجة فلوس.. أجيبلك؟

- انتي تعرفيني؟

أجابت المرأة وهي تضع يدها في حافظة نقودها:

- لا.. بس شكلك منكسرة قوي.. أجيب لك فلوس؟

- ماشي هاتي.

لم ترد المرأة، قالت (نوال):

- مالك؟

أغلقت المرأة حافظة نقودها:

- لا.. أصلك فاجئتيني.. المفروض اقولك محتاجة فلوس، تقولي لي لا شكرًا.

ثم انصرفت وهي تلعن النقود، وزوجها الذي يجلس في المنزل بلا عمل، وحماتها التي تعايرها لأنها أنجبت ثلاث بنات، وجارتها التي تسببت في نفوق الأرانب التي تقوم بتربيتهم حين نظرت لهم ولم تصلي على النبي.

سارت (نوال) في الطريق الذي يقود إلى موقف سيارات الأجرة المسافرة، ثم ركبت واحدة وانطلقت في رحلةٍ دون رجعة، كان ما حدث بينها وبين (فاتن) أكبر من احتمالها، تعلم أنها أخطأت حين توددت إلى (الحاج محروس) وأنها السبب فيما آلت إليه الأمور من تصرفاتٍ شاذة يرفضها الإنسان الطبيعي.. تذكرت آخر مرة زارهما فيها حين ألقى لهما بعض النقود أكثر من المعتاد، بعد أن انتهيا من إسعاده.. اعتقدوا أنه سيعود مرة أخرى كعادته، ولهذا أنفقا الأموال بلا حساب..

مرت أيام وأسابيع دون خبرٍ عنه.. هاتفه مغلق، لم يعد يذهب إلى المصنع أو يسهر في النادي كعادته، فشلت كل محاولاتهما في الوصول إليه، كانتا بالنسبة له مجرد دمى جنسية، انتهى من اللعب بها، الألف جنيه سبب المشكلة أرادتهم لإجراء فحوصٍ طبية على صدرها، كان هناك احتمال كبير في أن تكون مصابة بمرضٍ عضال خطير، أخفت هذا عن (فاتن).. على كل حال، من الأفضل أن تجعلها تكرهها بدلًا من أن تجعلها تحبها، هكذا لن تسبب لها المزيد من الأحزان.

***

غاصت (فاتن) من جديدٍ تحت الماء..

بعد قليل انعكس فوق جسدها ظلٌّ أسود ضخم، كأن هناك من يقف أمام الحوض ويحدق بها.

- فاتن.

شعرت (فاتن) بالانزعاج والخوف، فقفزت من مكانها وهي تشهق حين سمعت اسمها.

لم يكن هناك أحد..

مجرد فراغ..

لكن الغريب أن ملابسها التي كانت قد علقتها على المشجب بجوار الباب لم تعد موجودة، كانت ملقاة على الأرض وممزقة إلى أشلاءٍ كثيرة، قبل أن تبدأ في محاولة فهم هذا الشيء المريب، سمعت أنفاسًا حارة تأتي من وراء الستار الأخضر، الذي انزاح جانبًا بضع سنتيمترات..

ثم انزاح الستار أكثر..

ضيقت (فاتن) حدقتي عينيها وهي تحاول تمييز هذا الشيء الذي ظهر من وراء الستار.. كتلة من السواد المخفي تحت رداءٍ من (الخيش) الثقيل.. الدويس.

ابتلعت (فاتن) ريقها بصعوبةٍ وحاولت التقاط أنفاسها، كانت (الدويس) جاثمة على الأرض، وكأنها تتحين الفرصة للانقضاض عليها.

قالت (فاتن) بصوتٍ خرج رغمًا عنها مرتعشًا مهزوزًا:

- مين؟

لم تهتز (الدويس) ولم تتحرك قيد أنملة.. زادها هذا الوضع رعبًا..

نظرت (فاتن) إلى الباب الذي أغلقته بإحكام، الآن أدركت أنها سجنت نفسها، حسبت المسافة والمدة التي تستغرقها لفتح الباب، سوف تدركها (الدويس) بالتأكيد، لكن ربما ببعض الحظ والسرعة قد تفلت..

(الدويس) يبدو أنها أدركت بما تفكر فيه، تحركت أخيرًا، انتصبت واقفة، لأول مرةٍ تبدو بمثل هذا الوضوح، كانت رأسها ضخمة، وشعرها كثيفًا تم جمعه في ضفيرةٍ تنتهي بحلقةٍ معدنية من النحاس الأصفر، رقبتها طويلة ورفيعة، تمتلئ بالعروق السوداء والزرقاء التي تشبه خيوط العنكبوت.

حاولت (فاتن) أن تصرخ لكن الصراخ تجمد في درجة حرارة، سالب خمسين داخل حلقها، قفزت من حوض الاستحمام وهرولت نحو الباب، لسوء حظها، مياه الغسيل التي تغرق الأرض كانت لزجة، فاختل توازنها ووجدت نفسها تطير في الهواء، قبل أن تهوي بظهرها على البلاط، ولولا أن رأسها ارتطمت بالسجادة لكانت قد تهشمت.. رغم ذلك شعرت أن رأسها قد تحول إلى حبة جوز هند يتم سحقها بمطرقةٍ عملاقة، حاولت أن تنهض لكن الألم الذي ضرب كاحلها كان لا يحتمل، الأقرب أن الكاحل تهشم أو تمزقت أربطته.. زحفت (فاتن) على الأرض باستخدام مرفقيها، وهي تبكي من الألم والخوف، أسنانها تصطك ببعضها البعض وشفتاها ترتعشان..

- الحقوني.

صوتها لا يتجاوز حلقها بالكاد..

نظرت من فوق كتفها إلى الوراء.. (الدويس) لا تزال قابعة في مكانها..

أكملت (فاتن) زحفها..

المسافة لم تكن تتجاوز الثلاثة أمتار لكنها شعرت أنها ثلاثة أميال..

وأخيرًا وصلت..

لكن مفتاح الباب كان أعلى من اللازم..

حاولت أن تصل إليه..

رفعت نفسها بصعوبة..

كانت تستند على يد وتمد اليد الأخرى..

المفتاح يبدو أصغر من المعتاد..

أصابعها تلمسه لثانيةٍ واحدة ثم يفلت منها..

تعاود الكرة..

هذه المرة قبضت عليه..

قبضت باستماتة..

دودة الكتب حرامية

شهقت من الفرح..

وقبل أن تديره خرج معها فسقطت على وجهها..

كان جسدها يرتعش ويرفض الاستجابة لأوامرها، فقد استنفذت قواه تمامًا، يريد أن يخبرها لا فائدة من المقاومة، الأفضل أن تغيب عن الوعي لدقائق حتى ينتهي الأمر، ثم تستيقظ لتجد نفسها في القبر.

ترتخي وتستعد كي تترك الأمر يمضي..

انتفاضة مفاجئة منها، ثم نهضت وفتحت الباب بسرعةٍ وجرت مثل حصان سباق أفلت زمامه..

تحركت (الدويس)..

انطلقت (فاتن) إلى غرفتها مباشرة بينما صراخ (الدويس) الذي يطاردها في جوعٍ ويضرب ظهرها كسكاكين حادة..

أغلقت خلفها باب الغرفة وهي تلهث من الخوف والتعب بينما صدرها يعلو ويهبط ككرة بنج بونج..

بسرعة تذكرت هاتفها..

بلهفةٍ شديدة تناولته من حقيبتها لكن التوتر وارتعاشة يدها، جعله يفلت من بين أصابعها ويسقط على الأرض ويتفكك إلى أجزاء، انحنت تجمع الأجزاء من هنا وهناك، تبقت البطارية التي تدحرجت أسفل السرير، كانت (فاتن) تراها أمامها، انحنت ومدت يدها إلى الفراغ الموجود بالأسفل، شعرت أن البطارية تبتعد كلما

اقتربت منها..

وأخيرًا أمسكتها..

بسرعة بدأت تجمع الأجزاء..

بلا سابق إنذار تبدل المشهد والمكان من حولها..

استحالت الجدران إلى مربعات سوداء تمتلئ بالعطن والشوق، تجسدت (الدويس) وقبضت على شعر (فاتن) ثم طرحتها أرضًا بقوةٍ هائلة، حاولت (فاتن) مقاومة الغيبوبة التي راحت تزحف إلى عقلها كطفلٍ صغيرٍ يتعجل الحبو.. جثمت (الدويس) فوقها ثم بقرت بطنها بضربة يدٍ واحدة، الأمعاء تخرج في يدها، جحظت عينا (فاتن) وهي تشاهد ذلك، مدت يدها وكأنها تريد أن تأخذ أمعاءها.

ضربة ثانية من (الدويس) وانشطرت رأس (فاتن) إلى نصفين..

توقف الصراخ..

واستمر التمزيق.

***

(١٨)

ليلة الفالنتين..

انتهت (وردة) من تزيين غرفة نومها ورش معطر هواءٍ نافذ الرائحة في الأرجاء، قامت بنثر الورود الحمراء فوق السرير وراحت تنسقها بصبرٍ شديد حتى صنعت منها قلبًا أحمر اللون كبيرًا جدًّا، فرشت ما تبقى من زهورٍ على الأرض في ممر يصل من الباب إلى حافة السرير، ارتدت فستان نومٍ أبيض اللون قصيرًا وتزينت كعروسٍ في ليلة زفافها.. ظلت تراجع ما فعلت وتتأكد أنها لم تنس شيئًا، لقد هيأت الأجواء تمامًا لـ (معتز).. ليس عليه سوى أن يحملها بين ذراعيه ثم يلقيها فوق الفراش ويفترسها كما ينبغي وكما تتمنى، تذكرت أنه يحب تناول الفاكهة بعد الانتهاء منها، أسرعت إلى المطبخ وبدأت في تجهيز طبقٍ لذيذ، حرصت على تناسق ألوانه، حين انتهت نظرت في ساعة الحائط الرقمية، الحادية عشرة، لقد تأخر..

ارتمت على أقرب مقعد، وقامت بالاتصال:

- معتز.. انت فين؟

جاءها صوته خافتًا:

- في المصنع.

- وبتعمل إيه في المصنع؟

- معلش يا حبيبتي.. أنا في اجتماع دلوقتي مع مندوب شركة

القدس وبنتفق على حاجات مهمة جدًّا في الشغل.

هتفت:

- أهم مني! انت بتهزر.. صح؟

قال بصوتٍ أكثر خفوتًا حتى لا يسمعه أحد ممن حوله:

- أعمل إيه طيب.. أخوكي محروس بقاله أسبوع مبيخرجش من البيت وكل حاجة فوق دماغي.

- كل ده أنا ماليش فيه.. أنا زهقت منك ومن حججك وأعذارك الفارغة اللي عمرها ما هتخلص.

ارتفع صوته رغمًا عنه:

- بلاش الطريقة دي في الكلام معايا.

قالت بعناد:

- أمال عاوزني أكلمك ازاي.

- بصي ساعتين بالكتير وهبقى عندك.

صرخت:

- ومقلتش الكلام ده النهارده الصبح ليه.. أنا مش قلت لك عاوزين نحتفل بالفالنتين سوا.

قال بنفاد صبر:

- نسيت.. نسيت.. محصلش حاجة يعني لكل ده.

صرخت مرة أخرى:

- لا حصل كتير.

وقامت بقذف الهاتف فارتطم بالحائط وتحطم..

اندفعت غاضبة وأخذت تدمر كل ما صنعته..

كانت عنيفة جدًّا..

حين انتهت من ثورتها، ارتمت على الأرض تبكي وقد تحول وجهها إلى شيءٍ يشبه المهرج بسبب اختلاط ألوان مساحيق التجميل بدموعها..

نهضت من على الأرض، ثم ذهبت إلى الحمام وأمسكت قطنة بللتها بالماء، وبدأت تمسح وجهها.

- ابن هرمة.

سبت (معتزًّا) وخرجت من الحمام، وهي لا تزال تمسح وجهها وتشعر بحرقة في إحدى عينيها..

فكرت أن تتصل بأخيها (الحاج محروس) كي تشتكي له.. هو الوحيد الذي سيأخذ لها حقها من (معتز).. هي تعلم ذلك.

توجهت إلى البهو، ثم تناولت هاتفًا محمولًا غير الذي حطمته من فوق تلفاز 21 بوصة يقبع فوق منضدةٍ زجاجية، وبجواره جهاز فيديو قديم لم يعد له استخدام في عصر التكنولوجيا الرقمية.. التلفاز كان يعرض على شاشته فيلمًا أجنبيًّا كلاسيكيًّا يدور حول

هجوم سمكة قرشٍ مفترسة، كانت موسيقى هذا الفيلم مميزة جدًّا، من النوع الذي ينذر بالموت وقدوم الخطر.. بحثت في دفتر عناوين الهاتف عن اسم أخيها بينما موسيقى الفيلم تطن وراءها.. فجأة شعرت أن هناك من يقف أمامها ويلقي بظلاله على الأرض..

رفعت مستوى نظرها..

اصطدمت بأبشع وجهٍ يمكن أن تراه في حياتها..

الدويس..

كانت تبتسم لها ابتسامة شيطانية..

جحظت عينا (وردة) في رعبٍ، وحاولت أن تصرخ، لكن الصراخ تجمد داخل حلقها مثل جليد القطب الشمالي..

في لحظةٍ اختفت (الدويس) من أمامها وفي اللحظة الأخرى أصبحت بجوارها، صوت موسيقى الفيلم يرتفع للذروة..

جرت (وردة)..

أمامها النافذة مغلقة وظلام الليل يظهر وراء الزجاج..

لا وقت لفتح النافذة..

مضطرة أن تقفز..

ثم وبكل قوتها قفزت..

ارتطمت بالزجاج فتهشم..

تناثرت الشظايا حولها وهي تسقط من النافذة على العشب الأخضر الذي يحيط بالمنزل..

بجوارها انغرست بعض أجزاء الزجاج في الأرض.. أجزاء مدببة حادة كالسكاكين، كان من الممكن أن تموت بسببها لولا حسن الحظ..

شعرت بألمٍ فظيع في ساقيها لكنها تغلبت عليه وأكملت نضالها.. وصلت إلى منتصف الشارع.. فوق رأسها كانت أنوار الأعمدة الكهربائية ترتعش.. حين ابتعدت بمسافةٍ كافية وظنت أنها قد نجت، قررت أن تتصل بـ (معتز).. كان هاتفه مغلقًا أو غير متاح، كررت الاتصال أكثر من مرة، استندت بظهرها على أحد الأعمدة وهي تلهث من الألم والتعب.. من مكانها كانت تستطيع أن ترى مبنى الوحدة الصحية..

ألصقت الهاتف بفمها، وقالت:

- معتز.. الدويس...

ودون أن تشعر، ومن فوق كتفها، امتدت يد شيطانية.

***

امتدت يد (معتز) لتصافح مندوب شركة القدس، وهو يودعه على باب المكتب..

انتظر حتى غاب في الممر وطلب من سكرتيرته أن تحضر له كوب شاي قبل أن تعود إلى منزلها.. بعد قليل أصبح بمفرده،

جلس على مكتبه وأمامه تتصاعد الأبخرة من كوب الشاي الذي أعدته السكرتيرة.. رشف رشفة طويلة، ثم انهمك في مراجعة وفحص بعض أوراق العمل داخل (دوسيه) مكتظ عن آخره.. زفر بارتياحٍ بعد أن انتهى وقد شعر بإرهاقٍ في عينيه، نهض من على مكتبه وتمشى حتى النافذة، فتح النافذة فارتطمت بوجهه لفحة هواءٍ باردة أنعشته، أخرج علبة سجائره المصرية الصنع، ثم تناول منها واحدة، أشعل السيجارة باستخدام قداحة ذهبية منقوش عليها الحرف الأول من اسمه واسم زوجته (وردة) بالإنجليزية M & W..

بلا تركيز طوح علبة السجائر تجاه المكتب، لكن رميته لم تكن موفقة فاصطدمت العلبة بحافة المكتب وسقطت فوق السجادة دون أن ينتبه لها.. أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وأطلقه مثل السهم في الهواء، تذكر أنه أغلق هاتفه ليمنع (وردة) من الاتصال به مجددًا.. في الواقع لم يعد لديه مقدرة على تحمل المزيد من تفاهتها أو حواراتها السخيفة، صارت تمتلك كمًّا هائلًا من الشقاء يجعله يرغب في الانتحار.. أخرج الهاتف من جيب بنطاله وأعاد تشغيله ووضعه على حافة النافذة من الداخل متمنيًا أن تكون نامت ولا تتصل به.

من خلفه انضغط جزءٌ من السجادة، ثم تشكل هذا الجزء على هيئة قدمين خفيتين.. تقدمت القدمان الخفيتان نحوه ببطءٍ، وفي طريقها سحقت علبة السجائر وسوتها بالأرض فأصدرت صوتًا مكتومًا، انتبه لهذا الصوت لكنه لم يعبأ، بعد قليلٍ شعر بهواءٍ بارد يضرب فقرات عنقه من الخلف..

التفت بسرعة..

مجرد فراغ..

الأشياء جامدة وصمت مطبق..

تصلبت عيناه على علبة السجائر المنسحقة..

زوى ما بين حاجبيه ثم حملها وتفحصها باهتمامٍ شديد..

تعجب واندهش..

بحركةٍ لا إرادية زحف ببصره في أرجاء الغرفة..

تولد لديه شعور خفي أن هناك أحدًا موجودًا معه الآن.. سمع صوت نزول المطر في الخارج فأغلق النافذة ليمنع قطرات المطر الشاردة من الدخول، فجأة رن هاتفه فكاد أن يقفز من مكانه، تناول الهاتف ونظر فيه، الاسم يومض والرنين لا يتوقف، رسالة صوتية مسجلة، فتح الرسالة، صوت مشوش جدًا.. وسط التشويش استطاع أن يميز أشياءً تتكسر وحروفًا متقطعة أقرب لأن تكون أجزاءً من كلماتٍ بصوت (وردة).. أعاد الرسالة مرة ثانية..

من وراء ظهره بدأت تتكون وتتشكل في الهواء ملامح ضبابية على هيئة (الدويس).. كان يحني رأسه تجاه الأرض وهو يلصق الهاتف بأذنه حتى يسمع جيدًا.. سمع (وردة) تقول:

- معتز.. الدويس...

تكسرت أعصابه حين سمع الاسم.

على زجاج النافذة التي يقف أمامها، ظهر انعكاس (الدويس) وهي تقترب منه..

ربما لو رفع رأسه قليلًا، فقد يلمحها.

***

ما زال الظلام يسدل أستاره على الأفق البعيد..

هرع الكثير من المارة تجاه منازلهم للاحتماء من المطر الذي انهمر مثل يوم طوفان نوح..

أضواء البوابة الخارجية للوحدة الصحية كانت ترتعش وتصدر أزيزًا كهربائيًا متقطع.. لفت هذا انتباه (كرتونة) الذي كان يجلس مع الدكتور (ياسر) يلعبان (الكوتشينة) وحولهما صحفة فوقها إناء عمل الشاي وأكواب ممتلئة، وقطع بسكويت سادة..

لاحظ الدكتور (ياسر) أن (كرتونة) لم يعد يركز في اللعب:

- خير.. فيه حاجة؟

- النور بيرعش بطريقة غريبة.

قال الدكتور (ياسر) بمرح:

- عشان الفالنتين.

أشار (كرتونة) إلى عمود الكهرباء الذي ينير نهاية الشارع، ويبدو ضوؤه ثابتًا، ثم قال:

- عندنا احنا بس!

- ممكن بسبب الجو.. على العموم لو النور قطع، مولد الكهرباء موجود.

ابتسم (كرتونة) ابتسامة شاحبة:

- المولد بايظ من قبل ما حضرتك تيجي.

- معايا كشاف.. اطمن.

ثم صمت للحظة قبل أن يستطرد:

- بيتهيألي مفيش حالات هتيجي النهارده.

- بالعكس يا دكتور.. ده المصايب مش بتحصل غير في الليالي دي.

تنهد الدكتور (ياسر):

- إن شاء الله خير.

ألقى (كرتونة) إحدى أوراقه وجمع بها كل ورق التربيزة، وهو يقول:

- ولد.

صاح الدكتور (ياسر):

- ده سادس ولد في اللعبة يا عم انت.

وقلب الورق:

- شكلك بتغش.

ظهر أن ورقة (كرتونة) لم تكن ولدًا لكن (شايب).. عاد يقول:

- انت بتأكل بالشايب؟

أجاب (كرتونة) بحكمة:

- هو كان ولد بس اللي شافه خلاه يشيب.

ابتسم الدكتور (ياسر) وسأله:

- انت واقف في التعليم لغاية فين يا كرتونة؟

- لغاية تانية إعدادي.

- طيب ومكملتش ليه؟

- الظروف بقى يا دكتور.. بس أنا فعلًا كان نفسي آخد دبلوم.

- طيب ما تخلي طموحك أعلى وشد حيلك وكمل كلية.

قال (كرتونة) بتهكم:

- أنا اروح كلية.

هتف الدكتور (ياسر):

- مشكلتنا إن احنا بنفقد الثقة في نفسنا بسرعة ومعندناش الطموح.

قال (كرتونة) بغباءٍ مصطنع:

- مش فاهم.

اعتدل الدكتور (ياسر) في جلسته:

- بص.. هحكيلك حكاية.. كان فيه طفل معروف في الفصل بتاعه إنه أخيب واحد. مكانش بيجاوب على حاجة ولا بيكتب الواجب.. هو كان ذكي جدًّا لكن مشكلته الثقة.. والدته دايمًا تقوله يا فاشل.. أبوه يقوله يا فاشل.. وبمرور الوقت هو اتعود على الفشل.. والنجاح بالنسبة له بقى شيء مش مهم.. لكن في يوم مدرسة جديدة خدت بالها منه، بدأت تشجعه ومتضربوش.. ومع كل حاجة صح بيعملها كانت بتكافئه.. الطفل ده بقى شاطر ودخل كلية طب واتخرج دكتور، وفي حفل التخرج بتاعه كانت المدرسة موجوده عشان تحتفل معاه بنجاحه.

- متكملش.. أنت أكيد الطفل ده.

ابتسم الدكتور (ياسر):

- لا بصراحة.. أصلًا دي قصة مش حقيقية وأنا مألفها دلوقتي عشان أشجعك.

ضحك (كرتونة) حتى كاد وجهه أن يتشقق، قال الدكتور (ياسر):

- إيه رأيك من بكرة نقدم لك دراسة منازل وأنا ممكن اساعدك واشرح لك.

- مش عاوز اتعبك.

قال:

- لا تعب ولا حاجة.. ادينا بنتسلى في حاجة مفيدة.

فجأة سمعا صوتًا يأتي من الخارج..

وقبل أن يتحركا من مقعديهما، اقتحمت الوحدة الصحية امرأة ممزقة الملابس، وجهها ملطخ بالطين والدماء..

حاول الدكتور (ياسر) اللحاق بها قبل أن تسقط لكنها أطلقت صرخة هائلة جعلت قلبيهما يرتجفان، ثم انهارت على الأرض كجوالٍ فارغ..

قال (كرتونة) محدثًا الدكتور (ياسر):

- مش قلت لك إن المصايب مبتجيش غير في الأيام دي.

صوب الدكتور (ياسر) كشافًا صغيرًا في حدقتي عيني المرأة، وتحسس نبضها قائلًا:

- النبض مش منتظم.

ثم مسح وجهها، وهو يسأل (كرتونة):

- تعرفها؟

صاح (كرتونة) بدهشة:

- دي وردة.. زوجة المهندس معتز.

***

الدكتور (ياسر) وضع (وردة) على منضدة الفحص.. كانت رائحتها

كريهة جدًّا كأنها سقطت داخل أنبوب مجاري.. الغريب أن تلك الرائحة كانت تخرج من فمها وليس من ملابسها..

قال الدكتور (ياسر) بعدما قام بتركيب جلوكوز في ذراعها، وأعطاها حقنتين:

- عندها هبوط حاد.

بدأت تعود إلى وعيها ببطءٍ وتصدر حشرجة مخيفة، قال (كرتونة) بتوتر:

- بدأت تفوق يا دكتور.

قال الدكتور (ياسر):

- دي علامة كويسة.. عاوزين نتصل بأهلها و...

قطع عبارته حين قبضت على ذراعه، وصرخت:

- طلع اللي في بطني حالًا.

نظر إلى بطنها.. كانت عادية..

بعد لحظة بدأت بطنها تنتفح.. وتنتفخ.. ثم زاد الانتفاخ أكثر، أصبحت بطنها تشبه بطن امرأةٍ حامل في الشهر التاسع..

تراجع (كرتونة) إلى الوراء بذعر:

- يا ساتر.

(وردة) صرخت من جديد صرخة هادرة:

- طلع اللي في بطني.

نظر الدكتور (ياسر) في هلعٍ إلى بطنها التي أوشكت على الانفجار، وأصبح يسمع صوت انشقاق جلدها.. تناول مقصًّا ثم شق ملابسها لتبدو بطنها أمامه.. كانت بشعة، تلتصق فوقها أشياء تبدو كطحالب المستنقعات، لمح الدكتور (ياسر) انبعاج تحت جلد البطن، كأن هناك يدًا كبيرة تريد الخروج.. مستحيل أن تكون هذه حركة طفل، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال:

- لازم افتح حالًا.

حاول (كرتونة) أن يمنعه:

- بلاش يا دكتور.. أنت مش عارف إيه اللي جواها.. أنت ممكن تجيب لك مصيبة.

- اللي يحصل يحصل.. هي كدا هتموت، لكن لو فتحت احتمال تعيش.

صاح (كرتونة):

- طيب استنى اتصل بالحاج محروس.

هتف الدكتور (ياسر):

- مفيش وقت.

- يا دكتور افهم.. دي حاجة شيطاني، احنا مش قدها.

صرخت (وردة) من جديد ثم انتزعت المحاليل المعلقة في

ذراعها.. حاول الدكتور (ياسر) أن يمنعها لكنها دفعته بعيدًا عنها بقوةٍ مفرطة، فسقط على الأرض، ضمت قبضة يدها وراحت تضرب بطنها بلا هوادة، سائل أخضر لزج كالزيت بدأ يخرج من بين شفتيها، خيط من الدماء تسلل من بين ساقيها ثم تدفق على الأرض.. الشيء الوحيد الذي جاء في عقل الدكتور (ياسر) أنها مصابة بصدمةٍ عصبية، كان الحل الوحيد أمامه أن يصفعها على وجهها، نهض بسرعة ولم يكد يرفع يده حتى لطمته في صدره، فطار في الهواء وهو يشعر أن حافلة مسرعة قد صدمته، ارتطم بـــ (كرتونة) وسقط كلاهما، نزلت (وردة) من على منضدة الفحص، حركت رأسها يمينًا ويسارًا، صوت فقرات عنقها وهي تتحرك من مكانها كان مرعبًا، سارت تجاه (كرتونة) والدكتور (ياسر) الذي اتسعت عيناه.. وجهها تحول إلى اللون الأزرق، عروقها برزت، عنقها ملفوف على نحوٍ مستحيل أن يحدث، سقطت من بين ساقيها كتلة مشوهة من اللحم والعظم والدم.. اقتربت من الدكتور (ياسر).. مدت يدها التي راح يتساقط منها الجلد ناحيته، وهي تقول بصوتٍ حاد:

- خرج.. صح؟

لمست أظافرها جبهة الدكتور (ياسر) فارتعش، قال:

- آه.. خرج خلاص.

ارتسمت ابتسامة ارتياح على وجهها ثم انطفأت الحياة فجأة في عينيها وسقطت ميتة.

***

(١٩)

استيقظت زوجة (محروس) على حركةٍ أسفل نافذة غرفتها، الوقت ما زال مبكرًا جدًّا ونور الشمس ما زال ضعيفًا في طور النمو.. بعد برهةٍ سمعت زوجها يتحدث مع شخصٍ ما في الأسفل، ويقول بلهجةٍ متوترة:

- يلا بسرعة.

لم تسمع باقي الحوار، فتحت جزءًا بسيطًا من النافذة ونظرت، كان هناك رجل بلحيةٍ طويلة سوداء، يقف مع زوجها عند الحظيرة وبجوارهما حمار صغير.. بسرعة ارتدت ملابس تستر جسدها ثم هبطت إليهما وهي تتوجس خيفة مما يفعلانه.. لم يكد (محروس) يلمحها حتى ترك الرجل واستقبلها في منتصف الطريق قبل أن تصل، قال برجاء:

- اطلعي فوق دلوقتي.

قالت بحدةٍ ممتزجة بالقلق:

- انت بتعمل إيه بالضبط.

- مش مهم تعرفي.. خشي جوه.

وقفت في عناد:

- لا.

كاد أن يصفعها على صدغها لولا أن تمالك نفسه:

- احنا لسه على الصبح والولاد ممكن يصحوا على صوتنا.

- فهمني بس.. أنا مش مطمنة من شكل الراجل ده.

قال:

- ده ساحر سفلي.

لم تفهم الكلمة في البداية.. نظرت إلى هذا الساحر نظرة من أسفل إلى أعلى، كان ضخمًا وقبيحًا وجاحظ العينين، على خده الأيسر حبة سوداء كبيرة تشبه العنبة، سألت (محروس):

- ساحر سفلي.. يعني إيه؟

- ده راجل بيتعامل مع الجن الكافر والطلاسم والنجسات.

- واحنا مالنا ومال شغل الجن والكفر ده.

قال:

- أنا ملقتش حل غير كدا.

- بلاش تجري مع الناس دول.. ويعدين الشيخ عرفة موجود ابن بلدنا.

- لا.. الشيخ عرفة لا، أنا بيني وبينه كلام كتير.

سألته من جديد:

- طيب والساحر السفلي ده انت محتاجه في إيه؟

- عنده طريقة عشان الدويس متقتلنيش.

صاحت:

- يا محروس كل دي شعوذة.

قال:

- سبيني بس.. انتي بتحبي ليا الخير ولا الشر؟

- الخير طبعًا لكن...

قاطعها:

- يبقى اطلعي فوق واقفلي عليكي الباب.

حاولت الاعتراض من جديد لكنه نظر إليها، لم ينظر لها كعادته نظرة غضب أو تهديد ووعيد، كانت نظرته تحمل الكثير من التوسل والرجاء..

لم تستطع أن تتحمل رؤيته هكذا، كتمت دموعها وهرولت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها..

عاد (الحاج محروس) إلى الساحر لاستكمال ما كانا يفعلانه، قام الساحر بنتف بضع شعرات من ذيل الحمار، ثم وضعها داخل كيسٍ صغير مصنوع من الجلد، وعلقه في رقبة (الحاج محروس) عن طريق سلسلةٍ صغيرة.. ركب (الحاج محروس) على الحمار بالمقلوب حيث كان وجهه إلى ذيل الحمار.. وضع الساحر تاجًا من الريش فوق رأس (الحاج محروس) ثم أمسك لجام الحمار في يده، وبدأ في السير وهو يردد:

- الوحا.. الوحا.. الوحا.

كان الأمر غريبًا حين شاهد الجيران (الحاج محروس) وهو على هذا الوضع، ولولا العبوس والصمت لاعتقدوا أنهم يشاهدون فيلمًا هزليًا.

كان (الحاج محروس) لا يفتأ ينظر إليهم وهم يتغامزون عليه ثم يعود ليطرق برأسه تجاه ذيل الحمار في خجل.

تراص أهالي (تل العبيد) على الصفين غير مصدقين ما يدور.. صحيح أن هذه عادة شعبية متوارثة لديهم لكن لم يكن يجول بخاطر أحد أن يفعلها شخص مثل (الحاج محروس).

من بعيد كانت (عايدة) تقف على باب صيدليتها تراقب ما يحدث، بجوار بعض النسوة المتشحات بالسواد، وهي تهز رأسها في أسفٍ قائلة:

- يا رب توب بقى علينا من الجهل والخرافات دي.

تنهدت إحداهن:

- الراجل اتجنن يا نسوان.

مصمصت أخرى شفتيها:

- ربنا يشفيه.

لاحت في الأفق البعيد أمام عيني (الحاج محروس) أسوار المقابر.. قال محدثًا الساحر:

- إحنا هندخلها.

قال الساحر في غموض:

- لا هي اللي هتيجي لينا.

ولم يكد يقولها حتى انتقلا وأصبحا وسط المقابر في غمضة عين!

التفت (الحاج محروس) حول نفسه في ذهولٍ لدرجة أنه كاد أن يسقط من فوق الحمار، هتف بذعر:

- ازاي.. ازاي عملت كدا.

- قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ.

صاح (الحاج محروس) وهو يشعر أن شواهد القبور تريد أن تنقض عليه:

- انت مقولتش ليا كدا.

- مش كل حاجة لازم اقولها لك.. هما بيسمعونا دلوقتي.

- هما مين؟

لم يرد الساحر..

استمر يطوف بـ (الحاج محروس) لدرجة أن هذا الأخير شعر أن رأسه تدور، قال وقد أصبح يرى كل شيءٍ اثنين:

- أنا حاسس اني مش مضبوط.

قال الساحر بصرامة:

- أسيادنا لازم يرضوا.

قال (الحاج محروس) في خنوع:

- اللي هما عاوزينه أنا هنفذه.

توقف الساحر أمام حجرةٍ بلا سقف مبنية من الطوب والإسمنت، في آخر المقابر تسمى (العضامة) وهي عبارة عن مكان يتم فيه جمع عظام الجثث.

الحاج (محروس) سأل:

- احنا جينا هنا ليه؟

أشار له الساحر بيده أن يصمت، وقال بغلظة:

- الصبر.

ثم سار نحو باب (العضامة) الخشبي وأمسك قفله فتحول في يده إلى رملٍ أصفر وتفتت.. دخل إلى (العضامة) غير عابئٍ بالرائحة الكريهة التي تمنع الطيور في السماء من التحليق فوقها، راح يبحث وسط العظام النخرة والجماجم المتناثرة، حتى خرج منها بعظمةٍ طويلة، عاد إلى (الحاج محروس) وقال له:

- خد العضمة دي.

- أعمل بيها إيه؟

- بعدين هقولك.

- حاضر.

تناول منه (الحاج محروس) العظمة التي تشبه عظمة الكتف، وهو مغلوب على أمره.

فجأة اعترض طريقهما (معتز):

- انت بتعمل إيه يا محروس؟

رد (محروس):

- ملكش دعوة.

صاح (معتز):

- البلد كلها بتحكي عن الهبل اللي انت عامله.

- وهو كلام البربر دول يفرق معايا في حاجة.

زفر (معتز) وقال:

- طيب تعال معايا اقعد في صوان العزاء بتاع اختك.. انت مجتش من يوم جنازتها.

دمعت عينا (الحاج محروس) حين تذكر مشهد (وردة) وهي ملفوفة في الكفن، ثم قال:

- لا.. روح اقعد انت وسيبني في اللي انا فيه.

- مش هينفع اسيبك كدا.

قال الساحر متوعدًا:

- ابعد يا هذا.. عشان مأذكش.

شعر (معتز) في كلامه بالإهانة، فصاح:

- تأذي مين يا نصاب.. انت متعرفش انت بتكلم مين.

لوح الساحر بيده:

- بحق الذي له ألف وجه، وفي كل وجهٍ ألف رأس، وفي كل رأسٍ ألف عين، و...

قطع كلامه حين ظهر الشيخ (عرفة) راكبًا دراجة نارية يقودها (أبو بديعة)..

ضرب (معتز) كفًّا بكف، وهو يقول:

- النصاب التاني ظهر.

تجاهله الشيخ (عرفة) وقال لـ (محروس):

- اللي بتعمله شرك.

قال (الحاج محروس):

- أنا مؤمن وموحد بالله.. أنا باخد بالأسباب.

قال الشيخ (عرفة) باستهجان:

- تاخد بالأسباب الحلال مش الحرام يا حبيبي.. يعني مينفعش عشان يبقى معايا فلوس أروح اسرق واقول باخد بالأسباب.

ثم التفت إلى الساحر وحرك عكازه تجاهه كأنه يراه، وأردف في غضب:

- انت بقى حسابك معايا بعدين يا نجس.

احمرت عينا الساحر وانقلبت ملامحه وبسط كلتا يديه، ثم صرخ:

- لأجعلنك اليوم من الصاغرين.

رفع الشيخ (عرفة) عكازه فجأة، وضربه به ضربة واحدة، فشج رأسه وأسقطه على الأرض فاقدًا الوعي يسبح في دمائه، ثم قال للموجودين بنبرةٍ حازمة:

- سيبوه مرمي هنا، وتعالوا معايا البيت، عندي كلام مهم لازم تسمعوه.

***

حول مائدةٍ مستديرة بدون رأس أو جوانب، وداخل إحدى الغرف الخاصة في منزل الشيخ (عرفة).. تجمع (معتز، والحاج محروس، والدكتور ياسر، وكمال).. تحت أقدامهم كانت توجد سجادة فارسية سميكة، ذات نقوشٍ بارزة، لونها أحمر قانٍ.. فوق رؤوسهم كانت تتدلى مبخرة من السقف يفوح منها رائحة غريبة تشبه رائحة الملابس القديمة.. الغرفة كان يسودها لون قرمزي مصدره يأتي من مصباحٍ على هيئة بلحة، معلق على الجدار المواجه للباب.. جاء (أبو بديعة) ووضع أمام كل واحدٍ قدحًا من مشروبٍ عطريٍّ ثم وقف أسفل المصباح..

ظل الصمت هو المهيمن لدقائق..

الجميع يتبادل النظرات الحائرة ما عدا الشيخ (عرفة) الذي راح يشرب من القدح الذي أمامه ببطء.. مال الدكتور (ياسر) على (كمال) وقال بصوتٍ خافت:

- هو إيه اللي هيحصل دلوقتي؟

أجاب (كمال):

- مش عارف.

هز الدكتور (ياسر) رأسه، وقال:

- زي الفل.

صاح (الحاج محروس) بنفاد صبر، وهو يطوح يده في الهواء:

- جبتنا هنا ليه يا شيخ عرفة؟

صرخ الشيخ (عرفة):

- اسكت.

ثم قبض على إصبع يد (الحاج محروس) وقطعه بسكينٍ أخرجه من طيات ملابسه.

- ااااااااااه.

قفز كل واحدٍ من مكانه وارتعب الجميع بينما صرخ (الحاج محروس) في هلعٍ وهو يمسك إصبعه المبتور الذي خرجت منه

الدماء كنافورةٍ صغيرة.

قال الشيخ (عرفة) بهدوءٍ شديد:

- اقعدوا يا حبايب.. مفيش حاجة حصلت.

وفي لحظةٍ لم تعد هناك دماء، وعادت يد (الحاج محروس) كما كانت.

هتف (كمال) مبهورًا:

- ازاي؟!!

قال الشيخ (عرفة):

- انت مسمعتش عن سحرة فرعون اللي كانوا بيسحروا عيون الناس.. دي حاجة زي اللي كانوا بيعملوها كدا.

صاح (الحاج محروس) في دهشة:

- بس الوجع.. أنا فعلًا حسيت إن صباعي اتقطع.

- كل ده سحر.. بالضبط نفس اللي كان بيعمله معاك الساحر السفلي اللي انت استاعنت بيه.. أنا حبيت بس أوضح واكشف لك إنه كذاب ونجس.

وصمت لبرهةٍ قبل أن يستطرد والضوء القرمزي يغلف وجهه:

- أنا جمعتكم هنا عشان نتخلص من الدويس.

قال (معتز) بحنق:

- واشمعنا احنا؟

قال الشيخ (عرفة):

- تقدر تمشي في أي وقت يا حبيبي.

هز (معتز) كتفيه عازمًا على الرحيل، لكن (الحاج محروس) استوقفه قائلًا:

- خلينا معاه للآخر.

قال الشيخ (عرفة):

- أنا عارف إن كل واحد فيكم قابل الدويس، وقدر انه يفلت منها، بس دي مش النهاية، هتفضل تطاردكم لغاية لما تقتلكم أو...

قال الدكتور (ياسر):

- أو إيه؟

أجاب الشيخ (عرفة):

- أو تقتلوها.

صاح (الحاج محروس):

- ودي حد يقدر يقتلها؟!

قال الشيخ (عرفة):

- بعون الله اقدر...

وهز رأسه وأردف:

- بس الأول لازم نحضرها.

قال (معتز) ساخرًا:

- طيب ما تحضرها مادام انت جامد كدا.

قال الشيخ (عرفة):

- الموضوع مش سهل.. لازم الأول نعرف مين اللي وراها وبيتحكم فيها.

قال (كمال):

- شوف انت عاوز مننا إيه يا شيخ، واحنا معاك.

نادى الشيخ (عرفة) (أبا بديعة):

- هات اللي قلت لك عليه.

ذهب (أبو بديعة) وعاد وهو يحمل اللوح الزجاجي الذي أعطاه الرجل النوراني للشيخ (عرفة).

قال (معتز) وهو يتأمل اللوح الزجاجي الذي أسنده (أبو بديعة) على الجدار:

- ده لوح إزاز عادي.

هتف الشيخ (عرفة):

- لا.. مش عادي يا حبيبي.. لأن اللي عمله ناس من أهل الجن..

حاول كدا تكسره.

أمسك (معتز) المقعد الذي كان يجلس عليه، وقال مهددًا وهو يرفعه عاليًا استعدادًا لكسر الزجاج:

- هكسره.

ابتسم الشيخ (عرفة) ابتسامة ثقة:

- حاول.

راقب الجميع ما سيحدث بشغف..

ثم وبكل قوة قام (معتز) بضرب اللوح الزجاجي بالمقعد.. تحطم المقعد ولم يصب اللوح بخدشٍ واحد.

قال (معتز) في عناد:

- عادي برضه.. إزاز مضاد للكسر.

قال له (الحاج محروس):

- اسكت بقى يا معتز.

قال الشيخ (عرفة):

- هنعمل جلسة تحضير، ومن خلال لوح الإزاز ده هنقدر نشوف من اللي حضر الدويس.

كاد (معتز) أن يستنكر الكلام، لكن الشيخ (عرفة) استطرد بسرعة، كأنه يسمعه:

- ممكن تفكر إني بقول تخاريف أو بحاول اضحك عليك، أو حتى بحاول ادي لنفسي شخصية الدجال الرهيب.. بس انا عاوزك تصدق اللي بقوله.

صاح (الحاج محروس) بـ (معتز):

- كفاية جدال بقى وخلينا نخلص.

وجه الشيخ (عرفة) كلامه لكل الموجودين:

- مستعدين؟

أجابوا في وقتٍ واحد:

- مستعدين.

وهكذا بدأت جلسة التحضير.

***

وقف الجميع أمام اللوح الزجاجي في صفٍّ مستقيم، يتوسطهم الشيخ (عرفة) الذي طلب منهم أن يركزوا تفكيرهم حول (الدويس)..

(أبو بديعة) أغلق كل الأضواء ثم أشعل شمعة صغيرة..

الشيخ (عرفة) راح يتمايل وهو يردد تعويذة معينة..

في الضوء الضعيف المخيم على المكان، بدأت تظهر تموجات على سطح اللوح الزجاجي..

صوت غراب يدوي من بعيد..

بعد قليل ظهر على اللوح صورة لطفلٍ صغير عاري الجسد، له أذنان كالأفيال، ووجهه أحمر..

(أبو بديعة) كان يتولى وصف المشاهد للشيخ (عرفة) الذي حرك يده، فتلاشت صورة الطفل.

- مش ده.

فجأة شعر جميع الحضور بهواءٍ ساخن يلفح وجوههم..

قال الشيخ (عرفة):

- أرض الجن جوه باطن الأرض، جنب صخور النار.

شعر (كمال) بحركةٍ وراء ظهره.. حركة تشبه نقر الدجاج على الأرض، كاد أن يلتفت، صاح الشيخ (عرفة):

- محدش يبص وراء.

غمغم الدكتور (ياسر):

- هو إيه اللي ورانا؟

رغمًا عنه حرك جزءًا من وجهه.. لمح بطرفي عينيه شيئًا أسودًا يتحرك.. لا ليس شيء واحد لكن أشياء كثيرة تتحرك، أشياء تغوص داخل الجدران والأرض، تخرج ثم تختفي، صاح بذعر:

- يا حفيظ.

صرخ الشيخ (عرفة):

- محدش يذكر اسم الله هنا.

لاذوا جميعًا بالصمت.

- عرفة.

جاء هذا الصوت من داخل اللوح الزجاجي ثم تجسد فوقه رجل وقور أبيض البشرة ذو لحيةٍ سوداء.. قال:

- ابني.

اهتز الشيخ (عرفة):

- والدي.

- ازيك يا عرفة.

صاح الشيخ (عرفة) بسرعة:

- اوصفوا لي شعر دقنه.

رد (أبو بديعة):

- دقنه طويلة وسوداء.

- فيها شعر أبيض؟

تفرس (كمال) جيدًا ثم قال:

- لا.

ضغط الشيخ (عرفة) على نواجذه، وصاح:

- ابعد يا ملعون.

تلاشى الشيء الذى كان متجسدًا على هيئة والده.

قال الشيخ (عرفة):

- في حاجات بتبقى عاوزة تخدعنا، وتدخل عالمنا.

عاد صوت الغراب يدوي.

اقتحم المشهد ظلٌّ أسود طويل.. الدويس.. وجهها لم يكن واضحًا.. لكنهم عرفوها..

كانت تقف فيما يشبه قاعة مظلمة لا سقف لها، السماء بلا نجوم أو كواكب أو سحب، مجرد عدم هائل، الأرض من تحتها حمراء.. ظلت تسير فوق التراب الأحمر والمشهد من خلفها ثابتًا لا يتبدل.

- رايحة على فين؟

قالها الشيخ (عرفة) في فضول.

توقفت (الدويس) أمام قبرٍ جاثم في الظلام ككابوس، وقد تشابكت عليه الأعشاب ونباتات الصبار، جلست فوق القبر ثم أجهشت بالبكاء والنواح كالغربان.. صوتها مزعج ومرعب جدًّا لدرجة أنهم جميعًا شعروا أن آذانهم ستثقب، قال الشيخ (عرفة):

- زي ما توقعت.. جاية تاخد بحق حد اتظلم.

صمت للحظةٍ كأنه يفكر:

- لكن مين اللي ظلمها.. مش معقول يكون كل أهل البلد.

بلا مقدمات توقفت (الدويس) عن النواح، واستدارت نحوهم..

حدقت فيهم جميعًا...

كاد الدكتور (ياسر) أن يفقد توازنه من الخوف، صاح الشيخ (عرفة):

- متخافوش، هي مش شايفانا.

لكنها هجمت وقفزت ناحيتهم..

ثم اختفت..

ظهر بعد ذلك على اللوح الزجاجي، مشاهد متقطعة سريعة كأنها ذكريات قديمة لشخصٍ ما.. مشهد لبيتٍ قديم من الخشب فوق تلٍّ صغير، ومجموعة من النساء يتوجهن ناحيته.. جمرات من النار تشتعل داخل (طاسة) نحاسية وصورة لرجلٍ تحترق داخلها، تلاشت الصورة وحل محلها رجال غاضبون يحملون المشاعل، وقطار ينطلق بسرعةٍ هائلة فوق قضبان من الدماء.. يتبخر المشهد وتظهر امرأة شاحبة ترتدي ثوبًا من (الخيش) البسيط، وتمسك بيدها طفلًا صغيرًا أصلع الرأس، يمتلك نفس شحوبها ويحيط عنقه بسلسلة.

انتهت الجلسة وأضاء (أبو بديعة) الأنوار، قال الدكتور (ياسر) باهتمام:

- مين الست دي؟

بحث (كمال) في ذاكرته:

- أول مرة أشوفها.

قال (معتز):

- وأنا كمان.

الوحيد الذي لم يعقب كان (الحاج محروس).. كان منكمشًا حول نفسه، سأله (كمال):

- تعرفها؟

- أيوه.. أعرفها.

***

(٢٠)

هربت الدماء من وجه (الحاج محروس) وشعر بتشتت أفكاره مثل ملايين الشظايا المتفجرة..

تجمع الشيخ (عرفة) والآخرون حوله في دائرةٍ ضيقة، على وشك أن تبتلعه أو تخنقه، وهم يحاصرونه بأسئلتهم.. كان الكلام يصل إليه فيما يشبه الهمس الناعم على عكس أنهم يصرخون..

لم يكن يشعر بشيء..

إنه الآن يعيش حلمه الخاص..

حلمه القديم..

يعود بذاكرته إلى سنواتٍ مضت، وظن أنها اندثرت..

وقتها هو كان في بداية العشرينات من العمر، وكان قد انتهى من الثانوية العامة ثم سافر إلى القاهرة للدراسة في الجامعة، مجرد شاب قروي شبه ساذج يحمل فتوة واضحة وحافظة نقود عامرة.. كل شيءٍ في حياته يسير على أكمل وجه، كان مثل قطارٍ سريع، لا أحد يمكنه إيقافه..

في نهاية كل عامٍ وفي الأعياد، كان يعود إلى (تل العبيد).. ومع كل عامٍ جديد كانت البلدة تنمو وتكبر وتزدهر، لم يكن أحد يتوقع أنه بعد عشر سنوات من الآن سوف تصاب بالاضمحلال..

أسعار الأراضي كانت آخذه في الارتفاع، غرباء كثيرون وعمال من بلدان مجاورة، يدخلون القرية ولا يخرجون..

وهي كانت من بينهم!

ظهرت لأول مرة حين كانت القرية تستعد لدخول عيد الأضحى المبارك..

لفتت انتباه الأهالي حين رأوها تسير بين الطرقات وتنادي بعباراتٍ ذات رنينٍ غنائيٍّ شعبي.

فوق جبل عرفات ينادي المنادي..

روحوا يا حُجاج بلغتوا المرادي

فوق جبل عرفات ينادي عطية..

روحوا يا حُجاج زيارة هنية

امرأة غجرية ترتدي فستانًا أسودًا منفوشًا، مطرزًا بالترتر الأحمر والأخضر، وتحمل فوق رأسها سلة من (الخوص) تحافظ على توازنها دون أن تلمسها، وقد تشققت قدماها الحافيتان، وامتلأت بالسواد..

كان يتشبث بطرف فستانها طفل صغير لم يتجاوز الثامنة من العمر، أصفر البشرة هزيل الجسد، رأسه تمتلئ بالحفر البيضاء الخالية من الشعر.. كانت تدور على البيوت لتضرب الودع وتقرأ الكف، وكعادة الناس الطيبين في تلك الفترة، لم يبخل أحد عليها بشيءٍ وأكرموها.. بمرور الوقت بنت بيتًا صغيرًا فوق قطعة أرضٍ بور، مجرد سقف وأربعة جدران من الخشب القديم..

لم يشتكِ منها أحد وكانت خفيفة كالنسمة، لكن النسمات دائمًا ما

تعصفها الريح القوية.. في أول إجازة لـ (محروس) ونزوله من القاهرة إلى (تل العبيد) وقع بصره عليها وهي في منزلهم، لم يشعر أحد بدخوله.. وضع حقائبه جانبًا، ثم توارى وراء ستار ووقف يراقب ما يحدث باهتمام..

كانت الغجرية تجلس على الأرض وبجوارها ابنها الذي لا يفارقها، بينما أخته الكبرى وأمه تجلسان فوق أريكة عالية، فتبدو أقدامهم في مستوى رأس الغجرية بالضبط..

كانت متجردة إلى حدٍّ ما من ملابسها الثقيلة، فظهرت بكامل حسنها وأنوثتها الهائلة وهي تتحدث معهما بطريقةٍ ريفيةٍ محببة للنفس..

ابتلع (محروس) ريقه وهو ينظر إليها وإلى شعرها الذي ينسدل وراء ظهرها مثل حورية صعدت لتوها من الماء..

كانت تقوم بعمل حجاب لأخته الكبرى التي لم تتزوج بعد وأوشكت على ركوب قطار العنوسة الذي لا يرحم بسبب ملامحها التي تشبه الرجال، وفظاظتها في التعامل.

قالت أخته وهي تناول الغجرية صورة شخصية بالأبيض والأسود لشابٍّ ما:

- أنا عاوزاه هو بس.

لم يفهم (محروس) من تقصد أخته، لكنه خمن أنه ابن خالتهم.. كان يعلم جيدًا أنها تعشقه حد الجنون والهوس، لكنه قطعًا لن يلتفت إليها.. لا يحتاج مالًا أو حسبًا ونسبًا.. شخص مثله سيجد

ضالته في فاتنةٍ من بنات المدينة، لا شك في هذا، وقطعًا ما تفعله الغجرية، هو نصب أو مجرد احتيال.

سمع أمه تقول:

- يا رب يكون في إيدك البركة.

تناولت منها الغجرية الصورة ثم أخرجت 21 فص من العلكة، وكتبت فوق كل فصٍّ حرف (ج)..

أمسكت أول فص بعد أن أشعلت نارًا خفيفة ورددت:

- ليطوش، هليلطوش، مليطوش.. كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون، كذلك لا تهجع ابن كوثر عن محبة وعشق بنت زينب.. الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة.

ثم ألقت الفص في النار..

كررت ذلك 21 مرة ثم ناولت أخت (محروس) حجابين، وطلبت منها أن تضع واحدًا تحت وسادتها، والآخر تحت وسادة ابن خالتها.

قالت أخت (محروس):

- طيب وهنحطه له ازاي؟

اختطفت منها أمها الحجاب الثاني، وقالت:

- متتقلقيش.. أنا هعرف اتصرف.

تابع (محروس) كل ذلك حتى انتهت الغجرية مما تفعل، وجمعت

أشياءها وغادرت..

أثناء عبورها الباب مرت أمامه، فحانت منها التفاتة ناحيته.. ضربته برصاصةٍ من عينيها في منتصف قلبه فشطرته نصفين..

قال بصوتٍ غير مسموع:

- جميلة.

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة..

خبيثة جدًّا.

***

اليوم التالي ذهب (محروس) لمقابلة صديقه (عبده)..

وقتها (عبده) لم يكن مشوهًا كما نعرفه، بالعكس كان شابًّا سليم الجسد، تفوح منه رائحة صابون الاستحمام التركي، يصفف شعر رأسه مثل العندليب (عبد الحليم حافظ) ويرتدي قميصًا وبنطالًا تشبهًا بأبناء المدينة خلافًا لأبناء البلدة الذين يرتدون الجلباب الواسع آنذاك.

اقترب منه (محروس) وبعباراتٍ سريعة حكى له عن الغجرية، وبعباراتٍ أسرع أخبره (عبده) أن السبيل إلى الغجرية سهل جدًّا!

في تلك الفترة من الزمن كان لدى أعيان (تل العبيد) عادة حين يذهب أحد من أولادهم للتعلم في الجامعة، يقومون بإرسال امرأة معه كي تقوم على خدمته، وأيضًا لإفراغ شهوته فيها حتى لا يفلت لجامه مع أي ساقطةٍ من بنات المدينة..

بالطبع كان هذا الأمر يحتوي على كثير من الشذوذ الإنساني، لكن كانت تضطر إليه بعض النساء الفقيرات..

لم يكن أحد يتحدث عنه لكن الكل يعرف أنه موجود، ويمكن القول أنه ليس مدعاة للذل في هذا الوقت.

ذهبا (محروس، وعبده) إلى الغجرية وعرضا عليها الموضوع، أو لنقل الصفقة.. كان هناك احتمالان لا ثالث لهما كما قال (عبده).. الأول؛ وهذا الاحتمال الأكبر أنها ستوافق وسترحب جدًّا.. الثاني؛ أنها سترفض في خجلٍ وهذا احتمال ضعيف..

الغجرية كان لها رأي ثالث وغير متوقع، رفضت وصفعت (محروس) صفعتين على وجهه، استغرق الموقف دقيقة كاملة حتى استطاع (محروس) أن يستفيق من الصدمة ثم ينظر إليها بعينين مجنونتين.. صرخ:

- أنا هعرفك أنا مين.

حدجته بنظرةٍ ساخطة، وقالت متوعده:

- ابعد عني أحسن أخليهم يأذوك.

هتف:

- مين دول اللي يأذوني.

ركل الجدار بقدمه، فاهتز البيت وكاد السقف أن يسقط فوقهم..

بكى الطفل الصغير وهرع إلى حضن أمه وهو ينظر إلى

(محروس) بذعرٍ هائل.. مسحت الغجرية فوق شعر ابنها ثم أشارت إلى (محروس) بسبابتها محذرة إياه:

- هأذيك.

كاد أن ينقض عليها:

- انت مجنونة ولا إيه؟

لم ترد عليه..

ربضت على الأرض وغطت نفسها هي وابنها بملاءة سوداء..

تراجع (محروس) عما كان ينوي..

كان يسمعها تتكلم من تحت الغطاء الأسود، لم يفهم كلمة مما تقول، استطاع فقط تمييز اسمه، ظن أنها تلقي عليه لعنة أو سحرًا ما، شعر لبرهةٍ من الوقت بالخوف وأحس بقشعريرة في أوصاله..

قطع (عبده) كل ذلك وسحب (محروس) معه للخارج، وهو يقول:

- ليس هكذا تورد الإبل يا صديقي.

ضغط (محروس) على نواجذه:

- شفت عملت فيا إيه؟!

ابتسم (عبده) بخبث:

- اللي زيها ميجيش كدا.. دي لازم لها خطة.

قال (محروس) وهو يضع يده على كتفه:

- دي لعبتك أنت يا صاحبي.. عاوز انتقم منها.

قال (عبده) بثقة:

- اعتبره حصل.

***

حين عاد (محروس) إلى المنزل، لم يستطع النوم..

مكان الصفعة ما زال ساخنًا على وجهه..

الإهانة التي تعرض لها كانت قوية جدًا، لا يحتملها شخص بمثل غروره.. أغلق أنوار غرفته واكتفى ببصيصٍ من ضوء البهو يتسلل إليه من تحت الباب، استلقى على السرير يحدق في السقف، فجأة شعر أن ظلام الغرفة يتشكل على هيئةٍ ليست بشرية، هيئة مخلوق ضخم جاء للقصاص منه بإيعازٍ من الغجرية.. حاول النهوض من الفراش لكنه لم يستطع بسبب ثقلٍ هائل شعر به يجثم فوق صدره، تملك (محروس) رعب هائل جعله يعتقد أن جسمه يحترق من الخوف..

اقترب منه الظل..

ثم تلاشى كل شيءٍ فجأة حين اقتحمت عليه أخته الكبرى الغرفة.. نظرت له باستغراب حين رأته يغرق في العرق:

- مالك يا محروس؟

نهض من على الفراش، وهو يمسح وجهه:

- كابوس.. كابوس رهيب.

وضعت يدها على رأسه وراحت تقرأ عليه بعض القرآن حتى هدأ قليلًا، ثم سألها:

- كنت عاوزه مني حاجة؟

- آه.

ثم سكتت، فقال:

- انطقي أنا مفيش فيا دماغ.

قالت بخجل:

- ابن خالتك جه النهارده البيت وطلبني من بابا.

- بجد!!

قالها بصوتٍ يشبه عدم التصديق، فقالت بحدة:

- غريبة دي ولا إيه؟!

حرك كلتا يديه:

- لا أبدًا.

ثم تذكر الحجاب الذي صنعته لها الغجرية، أيعقل أن يكون هو السبب؟!

تفرس ملامح أخته جيدًا.. تأكد الآن أن الحجاب هو السبب.

***

الموعد كان منتصف الليل..

كان الظلام دامسًا في هذا الوقت، ولا شيء يبدده غير شعلة صغيرة من الحطب، يتراقص لهيبها داخل (غرزة بلدي)..

داخل (الغرزة) كان يجلس بعض البسطاء يلعبون (الدومينو) وهم يدخنون أحجار المعسل ويتضاحكون حول شؤون حياتهم.. يضرب أحدهم حجر (الدومينو) بالرقعة الخشبية، ويقول بلهجة المنتصر:

- قفلت.

على مسافةٍ منهم، كان يجلس (محروس، وعبده).

- هنعمل إيه يا عبده؟

قالها (محروس) بلهفة..

قال (عبده) وهو يصب كوبين من الشاي:

- أنا عملت لها فخ مش هتطلع منه.

ثم ناول (محروس) كوب شاي، وراح يسهب له في شرح تفاصيل خطته..

مع كل كلمةٍ يقولها، كانت عينا (محروس) تتسع في انبهار، لقد كان يجلس مع الشيطان نفسه بلا شك..

بعد قليلٍ جاء شخص ثالث لا يعرفه (محروس).. قال (عبده) وهو يتولى تقديمه:

- ده (رضوان) الكلاف.. تبعنا.

(رضوان) وقتها كان يرتدي جلبابًا ممزقًا، يخرج منه شعر صدره ليصارع الهواء..

نظر (محروس) إلى (رضوان) باشمئزازٍ حينما قال (عبده):

- فهمت يا (رضوان) اللي هتعمله؟

قال (رضوان):

- أنا تحت أمر محروس بيه.

قالها (عبده) بخبثٍ محدثًا (محروس):

- (رضوان) هو أهم عنصر في خطتنا.

لاحظ (رضوان) نظرات (محروس) له، فقال بسرعة وهو يحني رأسه:

- يا محروس بيه، اعتبرني كلب من كلاب سيادتك.

ربت (محروس) على كتفه في استحسانٍ، وناوله بيده كوب شاي:

- اشرب يا (رضوان).

نفخ (رضوان) في طرف الكوب، ورشف منه رشفة طويلة وهو يبتسم..

ثم تفرق أخلاء الشر.

***

مرت بضعة أيام على هذا اللقاء..

بدأت الأحداث بنفوقٍ عادي لبعض الغنم والأبقار، لم يلفت انتباه أحد..

بمرور الوقت لاحظ الجميع أن العدد في ازديادٍ كل يوم لدرجة أنها أصبحت ظاهرة لا يمكن السكوت عنها..

لم يفكر أحد أن (رضوان) هو السبب، وأنه كان يقوم بتسميم مياه شرب الحيوانات.. بدأت الشائعات بعد ذلك في الانتشار، بدأها (عبده) من على القهوة وهو يحدث (القهوجي):

- سيدنا يونس لما ركب السفينة وكانت هتغرق، الناس قالوا فيه حد معاهم مغضوب عليه، وعملوا قرعة، والقرعة جت على سيدنا يونس ورموه البحر.

- قصدك إيه يا عبده؟

- قصدي إن فيه حد ملعون في البلد.

قال (القهوجي):

- خلي كلامك واضح.

هتف (عبده):

- الغجرية.. هوا فيه غيرها.

تجمع الكثيرون حول (عبده).. قال شخصٌ ما:

- يا عم حرام عليك، دي ست غلبانة.

وقف (عبده) وقال بصوتٍ مرتفع ليسمعه الجميع:

- اعتبروني مقولتش حاجة.. بس دوروا مين اللي بيعمل أعمال سحر ودجل غيرها..إذا كان ربنا حكم على سفينة إنها تغرق وكان فيها نبي، أمال احنا اللي في بلدنا واحدة كافرة بربنا.. ده مش بعيد نتسخط قرود يا جدعان.

بعد أيامٍ استيقظ الأهالي على صراخ (رضوان) وهو يجري في الشوارع ليلًا كالمجنون:

- الحقوني.. الحقوني.

ظل يتلوى على الأرض، ويصرخ كالنساء اللاتي تلدن، ويمزق ملابسه ويضع التراب فوق رأسه.. انتظر حتى اجتمع الأهالي حوله وأخبرهم أنه رأى الغجرية تكلم أشخاصًا عراة لهم رؤوس كبيرة وأقدام كالغنم.

صرخ أحد الأهالي:

- دول جن.

وصرخ ثانٍ:

- الست دي ملعونة، وهتجيب الشؤم للبلد.

ثم صرخ ثالث:

- عبده كان كلامه صح يا أهل البلد.

في تلك الأثناء راح كل شخصٍ يتذكر مصيبة حدثت له منذ أن وطـأت الغجريـة القريـة.. الكـل أرجـع المـرض والطـلاق والفقـر والموت إليها، كما لو كانت إله الشر.

- هي السبب.. هي السبب.

(رضوان) يضحك داخل نفسه في سخريةٍ بينما (عبده) يغمز له.

- اخلصوا منها.

رددها (محروس) بخبثٍ وسط الحشد الهائل المجنون..

حمل الأهالي المشاعل والشر، وانطلقوا إلى بيت الغجرية..

كان الهواء باردًا يقرص العظام ويجعل الأسنان تصطك ببعضها البعض، لكن لم يكن يشعر به أحد، كان الموقف أكبر من تلك الأحاسيس البسيطة.

على الجانب الآخر، كانت الغجرية قد علمت بما يحدث.. حملت ابنها فوق كتفها، ثم خرجت وقلبها ينبض بالخوف والذعر والألم..

شاهدت المشاعل تقترب منها..

فكرت سريعًا..

كان الحل أن تستغل الليل وتدور من وراء مقابر القرية حتى لا يلمحها أحد، إلى أن تصل محطة القطار.

- أنا خايف.

قالها ابنها وهو يبكي، احتضنته وقالت:

- متخافش.. مفيش حد هيأذيك.

تعثرت عدة مرات في الأرض، وهي تدور من وراء المقابر التي كانت بلا سور في تلك الفترة..

سقطت مع ابنها الذي امتلأ وجهه بالجروح، لكنه تحمل وتشبث بها..

أثناء ذلك كان الجمع المسعور قد وصل إلى منزلها وأضرموا فيه النيران.. نار هائلة تأججت في لحظات وكسرت ظلام الليل الذي يغطي كل شيء..

من بعيد كان (عبده، ومحروس، ورضوان) يراقبون ما يحدث..

شيءٌ ما ناقص..

الغجرية غير موجودة..

كانت تتجاوز المقابر في هذا الوقت، وتقترب من شريط القطار..

لمحها (محروس) من بعيد..

شعر بالدماء تسيل على وجهه مكان صفعتها، صرخ:

- الملعونة هناك.

لم يسمعه أحد من الأهالي..

طلب من (عبده) أن يلحق بها، فلم يكذب هذا الأخير خبرًا، وانطلق خلفها كالسهم المسموم..

لحق (عبده) بالغجرية وابنها على شريط القطار..

كان (عبده) من الذكاء حيث أمسك بتلابيب الطفل.. يعلم أنها لن تتركه، حاولت تخليص ابنها من بين يديه لكنه أحكم قبضته على عنقه، وقال بشراسة:

- رقبته هتتكسر.

توسلت:

- أبوس إيدك.. بلاش تأذينا.

ركلها في معدتها بقسوة، فسقطت أرضًا..

حاولت أن تنهض..

ضربها بمرفقه على ظهرها، فأعادها من جديد على الأرض تئن من الوجع..

- ده عشان تتعلمي متعمليش شريفة على أسيادك.

حمل الطفل فوق ظهره وسار تجاه البيت المحترق، وهو يظن أنها لن تنهض مجددًا..

استجمعت هي قوتها ثم رفعت حجرًا ثقيلًا وهوت به على رأسه من الخلف.. أطلق صرخة هائلة وهو يشعر بعظام مخه تسحق، وبألمٍ لا يحتمل..

سقط على الأرض في إغماءةٍ سريعة، لم تستمر إلا ثوانٍ قليلة.. حين استفاق لم يجد الطفل ورأى الغجرية تحمله وتجري به مبتعدة..

أطلق سبة بذيئة وجرى خلفها..

على مسافةٍ بعيدة ظهر المشهد كذئبٍ يطارد فريسة ضعيفة، لا حول لها ولا قوة..

استطاع (عبده) اللحاق بالغجرية ثم ركل الطفل من يدها..

انقضت عليه واشتبكت معه في قتال حياةٍ أو موت.. قضمت يده اليمنى بأسنانها حتى نزعت اللحم من العظم..

هوى (عبده) على وجهها بلكمةٍ هائلة هشمت أنفها وأسنانها الأمامية..

ضربته بإصبعها في عينه، حتى كادت أن تفقأها..

أسقطها على قضبان القطار ثم جثم فوق صدرها واستغل ثقله وبدأ يحاول خنقها.

تسلط عليهما ضوءٌ أصفر قوي..

من بعيد كانت صافرة القطار تدوي وتختلط مع أزيز اهتزاز القضبان..

صرخ (عبده) بجنونٍ والزبد يتطاير من بين شدقيه:

- هخلي القطر يقطعك.

انتظر حتى لم يعد يفصل بينهما وبين القطار غير أمتارٍ قليلة، وقفز من فوق الغجرية..

ستموت بمفردها..

لا..

ليس بمفردها..

(عبده) تعثر فوق القضبان..

القطار يدهس الغجرية ثم (عبده)..

تناثرت الأشلاء والدماء فوق القضبان..

وانتهت الليلة.

***

(٢١)

ظل الصمت الثقيل يخيم على الحضور بعدما انتهى (الحاج محروس) من قصته..

سأله الشيخ (عرفة):

- وبعدين؟

قال (الحاج محروس):

- الغجرية ماتت.. وعبده أنقذناه بأعجوبة.

- وابنها.. إيه اللي حصل لابنها؟ ده المهم دلوقتي.

رد (الحاج محروس) وهو يعتصر ذاكرته:

- كل اللي فاكره إن ناس من أهل البلد كانوا مسافرين المنوفية خدوه لملجأ هناك.

قال (كمال) مخاطبًا الشيخ (عرفة):

- ممكن يكون ابنها هو اللي حضر الدويس.

قال الشيخ (عرفة):

- ده أكيد مادام ظهر على اللوح.

قال (معتز):

- وده هنعرف نوصل له ازاي؟

قال الشيخ (عرفة):

- ممكن يكون أي حد.. مش بعيد أصلًا يكون حد من اللي واقفين هنا.

صاح (كمال) بحدة:

- قصدك إيه يا شيخ عرفة.. مفيش حد غريب هنا غيري أنا والدكتور ياسر.

قال الشيخ (عرفة):

- أنا مش قصدي حد معين.. اللي اقصده إنه صعب نوصل له.. خلينا نركز في المهم.

قال الدكتور (ياسر):

- أنا ليا معارف كتير في المنوفية.. محتاج بس أعرف اسم الملجأ وهعرف بالضبط إيه مصير ابنها واسمه إيه.

أخبره (الحاج محروس) باسم الملجأ، فقام الدكتور (ياسر) بإجراء مكالمةٍ تليفونية طويلة، عاد بعدها يقول:

- يومين تلاتة بالكتير، والمعلومات هتكون عندنا.

قال (الحاج محروس):

- خلال اليومين دول هنكون متنا.

قال الشيخ (عرفة):

- كلامك مضبوط.. بس أنا لسه مخلصتش دوري.

نظروا إليه جميعًا في تساؤل.. قال مخاطبًا (الحاج محروس):

- دفنتوا جثة الغجرية فين؟

قال (الحاج محروس):

- وده هيفيدك بإيه؟

- هيفيدني إن احنا نقدر نحضر من خلالها الدويس لأن ابنها هو اللي حضرها.

سأله (الحاج محروس):

- متأكد.

- إن شاء الله.

تنهد (الحاج محروس):

- مكان قبرها معروف.. كلكم عارفينه.

وقبل أن يسأله أحدهم؛ ماذا يعني! أسرع يقول:

- الضريح الأخضر.

***

الوقت..

الساعة الأكثر إظلامًا في الليل.

المكان..

الضريح الأخضر.

الأشخاص..

كمال، ياسر، معتز، محروس، وعرفة..

الخمسة يقفون أمام الضريح في توترٍ وخوفٍ واضحين..

دون إبطاءٍ دخل الشيخ (عرفة) برفقة الدكتور (ياسر) الذي كان يأخذ بيده بدلًا من (أبي بديعة) الذي خاف ورفض أن يأتي..

دخل خلفهما (كمال) وهو يحمل (بلطة) ثم (الحاج محروس، ومعتز)..

الضريح من الداخل كان عبارة عن غرفةٍ كبيرة، معلق في سقفها أعلام خضراء وبيضاء مطرزة، مكتوب فوقها آيات قرآنية، ولفظ الجلالة، ولا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وسط الغرفة كان يوجد قبر مرتفع عن الأرض، بعلو مترين تغطيه كسوة من الحرير مزركشة..

القبر كان يحيط به قفص من الخشب، له باب عليه قفل عملاق علاه الصدأ.. ضرب (كمال) القفل بظهر (البلطة) فحطمه، أزال القفل وفتح الباب، ثم أشار إلى القبر قائلًا:

- لازم نفتح القبر و...

قاطعه (محروس) بوجهٍ عبوس:

- مش ضروري نفتحه.

وقبل أن يسأل أحد ماذا يعني، شمر كم جلبابه ثم دفع القبر بيده، فتزحزح وظهر أسفل منه لوح حجري، وله مزلاج حديد.. قال:

- ده قبر خشب.

أشار إلى مكان اللوح الحجري، واستطرد:

- هي مدفونة تحت هنا.

حرك (كمال) المزلاج من مكانه بصعوبة..

وضع حافة (البلطة) في فتحةٍ صغيرة بين اللوح والأرض، وحركها فارتفع اللوح قليلًا عن الأرض..

أشار للباقين أن يساعدوه..

تعاونوا معًا حتى استطاعوا تحريك اللوح من مكانه..

ظهرت لهم فجوة سوداء انبعث من داخلها رائحة كريهة.. طلب منهم الشيخ (عرفة) الانتظار قليلًا حتى يخرج الهواء الفاسد..

بعد مدةٍ صارت الرائحة محتملة..

أضاء (كمال) كشافًا وصوبه داخل الفجوة، فظهر سلم حجري مغطى بمادةٍ سوداء تشبه القطران، ظل يحرك الكشاف يمينًا ويسارًا ثم قال وهو يحدث (محروسًا) بشك:

- مش شايف جثث مدفونة.

قال (محروس):

- هي موجودة.. أنا حاططها بنفسي.

انتزع من (كمال) الكشاف، وصوبه مباشرة إلى أحد الأركان، وهو يستطرد:

- هنا.

بالفعل ظهر في هذا الركن جوال من (الخيش) مربوط من طرفه بحبلٍ غليظ.

قال (محروس) وهو يلقي الكشاف في يد (كمال):

- صدقت دلوقتي.

بصوتٍ متوتر، قال (معتز):

- خلاص هي مدفونة.. يبقى مفيش داعي نشيلها.

هز الشيخ (عرفة) رأسه بقوة:

- لازم العضم بتاعها عشان أحضر عليه الدويس.

رفع (معتز) يده:

- أنا مش هنزل.

قال (محروس) بحدة:

- كلنا هننزل.

غمغم (معتز):

- أنا خايف.

نظروا إليه جميعًا في دهشة.. عاد يقول:

- آه.. أنا خايف.. خايف انزل ومطلعش.

ثم تغيرت نبرة صوته قليلًا، وكأنه وجد الحل:

- وبعدين لازم حد يفضل بره بحيث لو حصل حاجة.

قال الدكتور (ياسر):

- مضبوط.. لازم حد فينا يبقى بره تحسبًا للظروف.

قال (كمال) مخاطبًا (معتز):

- مفيش مشكلة هننزل احنا وخليك أنت هنا.

وافق (محروس) على مضض..

نزل في البداية (كمال، والحاج محروس) ثم تبعهم الدكتور (ياسر) والشيخ (عرفة)..

قال (كمال) وهو يشعر ببرودةٍ كالمنشار تنشر أطرافه:

- الجو برد جدًا.

قال الدكتور (ياسر) بلهجةٍ علمية:

- دي الرطوبة.

لم يعقب أحد على كلامه..

توقفوا جميعًا أمام الجوال الذي يحمل عظام الغجرية.. كانت بعض العظام قد ثقبت الجوال.

قال الشيخ (عرفة):

{وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا (1) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا (2) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا (3) إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ (4) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ (6) وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ (7)}

بدأ الجوال يهتز والعظام تتحرك.. قال (محروس) والدماء تهرب من وجهه:

- هو إيه اللي بيحصل يا شيخ؟

أشار له الشيخ (عرفة) بالتزام الصمت، وقال:

- مهما يحصل أو تسمع متتكلمش غير لما اخلص.

فجأة سمعوا جميعًا صوت تحريك اللوح من أعلى.. التفتوا نحوه بسرعة..

نظر (معتز) إليهم ببرود.. اهتز وجهه كأنه صفحة مياهٍ شفافة ارتطم بها حجر ثقيل..

بدأت ملامحه تتغير..

تحركت عيناه..

استطال وجهه..

انسحبت جبهته إلى الوراء..

هبط شعر رأسه وتمدد في كل الاتجاهات..

وفي لحظاتٍ تحول (معتز) إلى (الدويس) وأغلقت عليهم باب القبر.

***

قبل ذلك..

يوم الفالنتين حين كان (معتز) يقف أمام النافذة و(الدويس) تتسلل خلفه.. شعر بسخونةٍ ترتطم بظهره فالتفت نحوها، تجمد لبرهةٍ من الوقت بسبب الصدمة..

كانت بشعة..

طوحت مخالبها في اتجاه عنقه..

تفادى المخالب بحركةٍ رشيقة اكتسبها من ممارسة الرياضة ثم تدحرج على الأرض وصار خلفها.

انتصب واقفًا..

نزع قميصه فظهرت عضلات صدره وذراعيه، واتخذ وضعية قتالية كأنه يخوض مباراة كاراتيه.. قفزت نحوه لكنه دار حول نفسه وركلها في منتصف معدتها فسقطت على الأرض..

لأول مرة تبدو (الدويس) حائرة..

نظرت إليه نظرة، كأنها تريد أن تقول: "ماذا تفعل أيها الأحمق؟.. المفترض أن أطاردك وأقتلك."

وقبل أن تستمر في حيرتها، قفز نحوها وهو يوجه لها لكمة ساحقة، هشمت أنفها وألصقتها بالحائط..

صرخت وحاولت أن تقبض عليه، لكنه تحرك حولها بسرعة، ثم انحنى ورفعها بكلتا يديه في الهواء وقذفها بكل قوته نحو شاشة التلفاز.. اصطدمت بالشاشة فانفجرت بها وتصاعد منها أزيز وشرر كهربائي..

نهضت (الدويس) من جديد..

سحب (معتز) سلكًا كهربائيًا عاريًا وأغمده بقسوةٍ في أذنها فارتعشت وتألمت، والكهرباء تسري في جسدها حتى جف جلدها وازرق.. سقطت على الأرض ورائحة احتراق ودخان يخرجان من رأسها..

وقف (معتز) ينظر إلى هذا المسخ..

تبدو ميتة..

انحنى بجوارها..

لمس وجهها الجامد..

تحسس مخالبها.. سوداء ملتوية بطريقةٍ غريبة.

في غفلةٍ منه، فتحت (الدويس) عينيها ثم أغمضتهما بسرعة.. لا

تزال على قيد الحياة.

نهض (معتز) وأجرى اتصالًا هاتفيًا بـ (الحاج محروس) ليخبره أنه قتل (الدويس)..

الهاتف يرن..

(معتز) يضع السماعة على أذنه، وتغيب (الدويس) عن نظره..

يعود يلتفت..

مكان (الدويس) فارغ..

بحث عنها بعينيه..

لا أثر لها..

فجأة تشكل ظلٌّ لها على الأرض..

رفع بصره تجاه السقف..

كانت تلتصق به..

وفي لمح البصر وقبل أن يفتح فمه ليعرب عن صدمته، كانت تهبط أمامه وتغمد يدها في صدره وتنتزع قلبه..

قلبه يخفق ببطءٍ بين يديها..

من داخل صدرها خرجت أهداب طويلة تشبه الثعابين التصقت بالقلب..

ملامحها تتكسر، تختلط عظامها مع لحمها، لحظات وأصبحت

على هيئة (معتز).

***

فيما بعد..

(كمال، والدكتور ياسر، والحاج محروس) يصعدون درجات السلم ويحاولون بكل قوتهم رفع اللوح الحجري، لكنه كان غير قابل للإزاحة بسبب المزلاج..

بعد عدة محاولات مليئة بالصراخ والسباب، عادوا إلى الأسفل في يأس.. جرب كلٌّ منهم أن يستخدم هاتفه لكن العجيب أن بطاريات جميع الهواتف كانت فارغة، ليست صدفة لكن هناك ما تسبب في ذلك.

صاح (الحاج محروس) وهو يضرب هاتفه بالأرض:

- التليفونات مش شغالة.

هتف الشيخ (عرفة):

- امسك أعصابك يا محروس.. لو خفت الجن هيلبسك.

دون سابق إنذار انسحب الكشاف من يد (كمال) بفعل قوةٍ خفية، فارتطم بالأرض وتهشم إلى أجزاء.. وفي لحظةٍ غرقوا جميعًا في ظلامٍ يفوق احتمال البشر، صرخ الدكتور (ياسر):

- هنموت.

بحث (محروس) في جيبه حتى عثر على علبة ثقاب، أشعل عودًا

وهو يقول:

- بسم الله.

كان ضوء العود ضعيفًا، لم يبدد سوى جزء صغير جدًّا من الظلام.. مجرد دائرة صغيرة التفوا جميعًا حولها، قال الدكتور (ياسر):

- أنا بقول بلاش نولع نار عشان الأكسجين كدا هيتحرق.

هتف (محروس):

- بلاش طب وكلام فاضي.

ابتلع الدكتور (ياسر) لسانه وظل صامتًا..

دوت طقطقة غريبة تشبه طقطقة العظام.. قال (كمال) بهلع:

- إيه الصوت ده؟

لم يحاول أحد أن يخمن..

لحظة وانتهى عود الثقاب وغرقوا من جديد في الظلام..

ساد الصمت..

مرة أخرى عادت أصوات الطقطقة..

بعدها صمتٌ آخر..

ثم صرخة هائلة جعلتهم على وشك أن يفقدوا الوعي..

صاح الدكتور (ياسر):

- ولع عود كبريت تاني.

هتف (كمال):

- والأكسجين اللي هيتحرق؟

صرخ (ياسر):

- ما يتحرق ويولع بجاز.. احنا هنموت.

أخرج (محروس) علبة الكبريت، لكن من فرط خوفه سقطت من يده على الأرض، صاح بارتياع:

- العلبة وقعت مني.

انحنوا جميعًا على الأرض يتحسسونها.

عقولهم تهيئ لهم وجود وحوشٍ وشياطين تحيط بهم.. يحاولون العثور على الشيء الوحيد الذي قد يساعد، أيديهم ترتطم بأشياءٍ متنوعة؛ عظام، جماجم، مخالب تخدشهم..

فجأة صرخ الدكتور (ياسر):

- لقيتها.

ثم أشعل عود كبريت..

العرق والذعر يغمر ملامحهم جميعًا..

حرك الدكتور (ياسر) العود تجاه الصوت..

ظهرت أمامهم الغجرية وهي تجلس القرفصاء وسط المقبرة، تنظر إليهم بعينين مشوهتين وابتسامةٍ بشعة خبيثة..

بدأت تتحرك..

على قدميها وذراعيها..

قدمها اليمنى ارتفعت من وراء ظهرها ثم القدم اليسرى..

تقدمت نحوهم بحركةٍ متكسرة مهزوزة..

صرخوا جميعًا من الرعب في نفس اللحظة التي أنطفأ فيها عود الكبريت..

لم يعودوا قادرين على رؤيتها..

بخلاف صوت حركتها، سمعوا أصوات خشنة، وأصوات طرق على الجدران، كأن هناك أشياءً تود الخروج.. قال (الحاج محروس) بهلع:

- احنا مش هنخرج من هنا.

ردد الشيخ (عرفة):

- أعوذ بالله الكريم من شر إبليس وجنوده ومن شر ما يبغي.. أعوذ بما استعاذ به إبراهيم وموسى وعيسى ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ.. أعوذ بكلمات اللّٰه التامات من كل شيطانٍ رجيم، ومن كل جنٍّ ملعون، ومن كل مخلوقٍ من نار السموم.

الطرق على الجدران زاد بشدة..

الأصوات المرعبة تضاعفت حتى كادت أن تخرق الأسماع..

يد قوية قبضت على قدم (كمال) فركلها..

شعر (محروس) بأسنانٍ تقضم ظهره، فطوح يده فارتطمت بشيءٍ طري..

ارتمى (ياسر) على الأرض واتخذ وضعية الجنين في بطن الأم، وترك أشياءً تخدشه وهو يصرخ..

الشيخ (عرفة) أخذ يصيح بصوتٍ جهوري:

- يا معشر الجن أناشدكم بالعهد الذي أخذه عليكم (سليمان بن داوود) أن لا تظهروا علينا ولا تؤذونا.. يا معشر الجن أناشدكم بالعهد الذي أخذه عليكم (سليمان بن داوود) أن لا تظهروا علينا ولا تؤذونا.

ساد صمتٌ جديد..

وهدوء..

أضاء الدكتور (ياسر) عود كبريت من جديد وهو يلهث، تجمعوا جميعًا حوله والجروح تملأ وجوههم وهم يرتجفون..

فجأة وصل إليهم نداء ملهوف..

ليس من الداخل..

لكن من الخارج..

- يا شيخ عرفة.

هتف (كمال) بفرح:

- أنا عارف صاحب الصوت ده.

كان هذا صوت (أبي بديعة) الذي تغلب على مخاوفه وقرر الذهاب خلفهم.

***

قام الشيخ (عرفة) بمعاونة الدكتور (ياسر) في رسم دائرةٍ كبيرة على الأرض، وهو يقول:

- لازم تعرفوا إن فيه دايرة مقدسة بتربط بين عالم الأحياء، وعالم الجن، وعالم الأموات.

قسم الدائرة إلى أربعة أقسام:

- كمان الكون بتاعنا بتحكمه أربع عناصر هما؛ الميه، التراب، الهواء، النار.

كتب في كل قسمٍ اسمًا باللغة السيريانية، وهو يستطرد:

- بيحكم العناصر دي أربعة من ملوك الجن.. الملك الأحمر، الملك المذهب، الملك برقان، الملك الأبيض.

وضع عظام الغجرية في مركز الدائرة، وقال:

- إحنا هنحضر الدويس جوه الدايرة، وبمجرد ما تحضر هنقفلها عليها ونحرقها.

كان (ياسر، وكمال، ومحروس) يصغون له بتركيزٍ شديد.. لحسن الحظ أن (أبا بديعة) سمع صراخهم وأخرجهم، ولولا هذا ما ظلوا على قيد الحياة..

بعد أن خرجوا من المقبرة، طلب منهم الشيخ (عرفة) ألا يعودوا إلى منازلهم حتى يساعدوه في حرق (الدويس).

الساعة الآن الثالثة ليلًا، وها هم يجتمعون مرة أخرى داخل منزل الشيخ (عرفة) لكن هذه المرة في قبو المنزل.. أمرهم الشيخ (عرفة) أن يقفوا حول الدائرة ويشبكوا أيديهم ببعضهم البعض..

نفذوا كلامه بحذافيره ومد كل منهم يده قدر ما يستطيع حتى يستطيعوا أن يحتووا الدائرة..

كانوا يقفون وهم منهكون وقلوبهم تدق بعنف..

قال الشيخ (عرفة):

- دلوقتي هنفتح الدايرة.

ثم بدأ يردد بعض الطلاسم المعينة:

- أقسمت عليكم يا ملوك الجن الأربعة، أنتم وخدمكم وأعوانكم من العلوية والسفلية، وخدام حرف الألف جميعًا إلا ما سمعتم وأطعتم، وبحق ما أقسمت به عليكم، وبحق حرف الألف وما أنزل الله فيه من أسرارٍ لا يطلع عليها أحد إلا العارفون بالله تعالى، وبحق أبجد وما فيها من الخواص إلا ما أجبتم الطاعة كما دعوتكم إليه وبما أقسمت به عليكم.

هبت عليهم ريح ساخنة خفيفة.. اشتموا رائحة تشبه رائحة الشمع المحترق..

ظهر حولهم ملوك الجن الأربعة متجسدين على أربع هيئات.. قط أسود كبير، نمر، فيل، رجل يرتدي عمامة حمراء ويمسك بيده رمزًا يشبه علامة النازية.

قال الشيخ (عرفة):

- متخافوش.. مش هيأذونا.

صمت قليلًا حتى اتخذ ملوك الجن الأربعة أماكنهم في زوايا الحجرة، وعاد يقول:

- مبقاش قدامنا غير إن الدويس تحضر.

وراح يتمتم من جديد بطلاسم أخرى:

- أقسمت عليكم بالذي خلقكم فسواكم، أجيبوا يا معشر الأرواح واقضوا حاجتي، بحق من له العزة والجبروت، أجيبوا أيتها الأرواح الكريمة خدام هذه الحروف العظيمة، بحق ما أقسمت عليكم توكلوا.

اهتزت الأرض من تحتهم لدرجة أن (كمال) كاد أن يسقط لولا أن أنقذه (الحاج محروس)..

صاح الشيخ (عرفة):

- خلوا بالكم.. إياكم تفكوا الدايرة اللي انتوا عاملينها.

تم تحميل الكتاب من موقع مكتبة الروايات والكتب الحصرية

في تلك اللحظة دوت صرخة هائلة، واشتعلت نارًا خضراء ثم خرجت من وسطها (الدويس)..

شهق الدكتور (ياسر) في جزع..

حاولت (الدويس) أن تخترق الدائرة، لكن بدا كأن هناك حاجزًا خفيًّا يمنعها..

راحت تضرب بقبضتها الهواء فيتشكل حولها حاجز أزرق اللون مكان ضرباتها ويختفي.. طلب الشيخ (عرفة) من الموجودين أن يفكوا أيديهم ببطء..

بدأت الدائرة تصغر وتضيق تدريجيًّا حول (الدويس)..

وحين فك الأربعة أيديهم تمامًا، انغلقت الدائرة وسحقت داخلها (الدويس) وحولتها إلى رمادٍ أسود يتطاير..

انتهى الخطر.

***

الفصل الأخير

(كلهم)

بعد مرور شهر، وداخل واحدة من قاعات الاحتفالات الشهيرة، كانت أصوات المدعوين والأصدقاء تختلط بضحكاتهم والكل في انتظار قدوم العروسين (كمال، وعايدة)..

نظر الدكتور (ياسر) في ساعته، وقال:

- اتأخروا.

اعتدل (كرتونة) في مكانه:

- براحتهم.. تصوير الاستوديو بياخد وقت.

- أمال هما هيسكنوا فين؟

- كمال ساب البيت اللي مأجره، وهيعيش مع عايدة في بيتها.

ولم يكد يقول هذا حتى انطفأت أنوار القاعة ثم أضيء ممر طويل وظهر عليه (كمال) يرتدي حلة سوداء أنيقة، وتتأبط ذراعه (عايدة) وهي ترتدي فستان زفافٍ أبيض رقيق..

سار العروسان على الممر حتى وصلا إلى منصة الزفاف التي تشبه القلب العملاق وسط تهليل المدعوين..

بدأت فقرات حفل الزفاف الواحدة تلو الأخرى..

كان (محمد) يقف بجوار والده وهو يرتدي حلة سوداء لها ربطة

عنق صغيرة تشبه الفراشة..

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه (كمال) وهو يقول لـ (عايدة):

- منورة.

أمسكت (عايدة) يده بقوةٍ وقالت:

- أنا خايفة.

- من إيه؟

- مش متعودة أبقى قاعدة والناس كلها بتبص عليا.

ضحك (كمال):

- متركزيش معاهم.. ركزي معايا.

***

الحاج (محروس)

جاء إلى حفل الزفاف وقام بتهنئة (كمال، وعايدة) ثم انصرف مسرعًا..

عاد إلى النادي وجلس برفقة (عبده) يدخن (الشيشة) وهو يقول:

- أنا عملت حاجات كتير غلط في حياتي يا عبده، بدعي ربنا إنه يغفرها لي.

قال (عبده) وهو يضع له الحشيش فوق النار:

- هيغفرهالك.. ربك كريم.

***

(كرتونة)

بعد انتهاء حفل الزفاف، ذهب (كرتونة) برفقة الدكتور (ياسر) إلى الوحدة الصحية كي يكملا سهرتهما سويًّا، جاء أيميل للدكتور (ياسر) على هاتفه المحمول، تناول الهاتف وهو يقول لـ (كرتونة):

- الإيميل ده أنا مستنيه من فترة.. فاكر موضوع الست الغجرية.. دلوقتي هنعرف عن ابنها كل حاجة.. تقريبًا فيه صور كمان له في الإيميل.

قال (كرتونة) وهو ينهض من مكانه، ويدور خلف الدكتور (ياسر):

- إيه اللي مكتوب في الإيميل؟

- لسه بيحمل.. الشبكة ضعيفة.. هو جاي لي من الملجأ اللي كان فيه الطفل.

قال (كرتونة) بغموض:

- بس تعرف يا دكتور إن فيه ناس كتير يستحقوا اللي حصل لهم.

- مفيش حاجة تستحق إن الإنسان يقتل بسببها.

- ده لأنك مجربتش تنظلم ومتعرفش تاخد حقك يا دكتور.

- احتمال يكون عندك حق.

- تفتكر ابن الغجرية يكون عنده كام سنة دلوقتي؟

قال الدكتور (ياسر) بلا تركيز، وهو يفتح صور الإيميل:

- ممكن 27.

ثم انتبه لشيءٍ فانعقدا حاجباه حتى كادا أن يمتزجا سويًّا، وسأل:

- أنت عندك كام سنة يا كرتونة؟

أجاب (كرتونة) وهو يضع يده على كتف الدكتور (ياسر):

- 27 سنة.

***

الشيخ (عرفة)

كان يغط في نومٍ عميق داخل منزله، ولا يدري شيئًا عما يدور حوله..

بجوار فراشه كان يوجد عكازه وجلبابه والحجاب الذي أعطاه له الرجل النوراني كي يحميه من (الدويس)..

بعد قليلٍ استيقظ على صوت خدشٍ على النافذة من الخارج.. فكر أن يكون أحد أصحاب الحاجة.. نادى بصوتٍ جهوري:

- مين؟

لكن لا رد.. الخدش لم يتوقف..

ربما كان مجرد فرع شجرة انحنى بفعل الهواء واحتك بالنافذة.. هكذا حاول أن يفسر ما يحدث..

استجمع همته ثم نهض من مكانه تجاه النافذة..

مد يده تجاه مزلاج النافذة ببطء..

أصدرت مفصلات النافذة صوتًا يشبه النباح، وهو يفتحها، في الخارج كان الظلام يعم، ولم تكن المصابيح مضيئة، ما عدا واحدة راحت ترتعش وتصنع حول نفسها دائرة من الضوء بحجم قبضة رجلٍ بالغ.

فجأة سمع ثلاث طرقات على باب المنزل من الأسفل.. طرقة ثم طرقتين.. طرقة ثم طرقتين.. صاح:

- مين؟

بهدوء، ومن وراء ظهره تجمع ظلٌّ أسود في السقف ثم هبط على الأرض.. نادى مرة أخرى:

- مين؟

تحرك الظل نحو الشيخ (عرفة) حين كان يهم بإغلاق النافذة من جديد..

تجسم الظل على هيئة امرأة..

الدويس..

شعر بها الشيخ (عرفة) فالتفت..

وقبل أن يفتح فمه لينطق بشيءٍ، سحقت (الدويس) وجهه بضربةٍ واحدة.

***

(كمال)

كان يجلس على كرسيٍّ عريض في بهو المنزل وهو ببذلة الزفاف، يضع كلتا يديه على مسندي المقعد، عيناه متسعتان عن آخرهما، ويحدق في الباب الأمامي بنظرةٍ خاوية..

الأضواء باهتة من حوله واللون القرمزي يطغى..

الباب ينفتح تلقائيًّا وببطءٍ شديد..

فراغ أسود يظهر من ورائه..

مثل المنوم مغناطيسيًّا نهض من مكانه، وسار بخطواتٍ منتظمة واسعة..

خرج من المنزل دون أن يلتفت حوله..

الشوارع فارغة والظلام دامس على نحوٍ عجيب..

كان يسير ويتحرك رغمًا عنه..

يرى كل شيءٍ حوله بلونين فقط.. أبيض وأسود..

كان يشعر أن هناك يدًا باردة تمسك يده، وتقوده خلال الطريق الممتد..

بعد قليلٍ مر على نساءٍ يرتدين الملابس السوداء المخصصة للجنازات، ويضعن أغطية شفافة على وجوههن.. كن يقفن في دائرةٍ وينظرن إلى شيءٍ ما على الأرض..

لا يفهم ما الذي يجري..

حاول أن ينطق..

إحدى النساء كشفت عن وجهها..

جميلة..

بيضاء مثل اللبن الحليب..

أفسحت له المجال كي يشاهد ما يلتفون حوله وعيناها تبرقان في مكرٍ وخبث..

مد عنقه إلى الأمام واستطال قليلًا..

شاهد على الأرض امرأة ترتدي ملابس الغجر، وعلى صدرها طفل صغير تقوم بإرضاعه..

ثم وجد نفسه يكمل السير مضطرًّا..

التفت إلى المرأة التي كشفت له وجهها، فوجدها تبتسم له ابتسامة مخيفة ملأت ثلاثة أرباع وجهها..

قادته قدماه إلى منطقة المقابر..

حاول أن يتغلب على الشيء الذي يتحكم به ويمنع نفسه من الدخول..

تصلب للحظاتٍ أمام بوابة المقابر..

كانت البوابة شاهقة الارتفاع، لها حراب حديدية ترتفع في وجه السماء، وفوقها مكتوب آية قرآنية تم طمسها بالكامل ما عدا كلمة واحدة (الجن)...

عاد يتحرك من جديد..

بعد أن تجاوز البوابة وجد رجلًا طويل القامة، نحيلًا إلى حد الاختفاء، عيناه غائرتان، أوردة جبينه تتلاقى كشبكة العنكبوت، يرتدي جلبابًا أسودًا قصيرًا، فتظهر قدماه كقدمي صرصارٍ ممتلئتين بالشعر المجعد..

قاد الرجل (كمال) داخل المقابر وهو يحمل شمعة طويلة راح نورها يرتعش..

كان يسير في الأمام و(كمال) خلفه مباشرة..

كانت شواهد القبور مهشمة ويغطيها بعض الأعشاب والنباتات المتسلقة..

توجد رائحة عطن وعفونة واضحة..

هناك أجزاء لحيوانات ممزقة..

بين الحين والآخر كان الرجل ينظر إلى (كمال) من فوق كتفه ويهز رأسه..

ظهرت كائنات كثيرة غير واضحة المعالم.. منها الطويل والقصير..

الضخم والضئيل.. كائنات مرعبة تجلس فوق القبور..

توقف الرجل ثم دنا بوجهه من (كمال) حتى كاد أن يلتصق به.. اكتشف (كمال) أن هذا الرجل لا توجد له عينان كما تصور.. فقط فجوتان والعظم بداخلهما وجزء يتلوى كأنه عصب العينين..

انصرف الرجل بعد أن ترك وراءه انطباعًا مرعبًا..

التفت (كمال) حول نفسه..

شاهد الأموات يخرجون من قبورهم تغطيهم الأكفان البيضاء ويترنحون كالذي يتخبطه الشيطان من المس.. وقفوا جميعًا أمام القبور.. في حركةٍ واحدة وفي نفس التوقيت ارتفعت أبصارهم تجاه السماء ثم تجمدوا جميعًا.. كانوا ينظرون إلى شيءٍ ما مرتفع وغير ظاهر..

سرت رعدة في جسد (كمال)..

حاول أن يفعل مثلهم..

لكن نطاق بصره كان يتوقف عند تلك الغيمة السوداء التي تطغى على كل شيءٍ كأنها حضن أمٍّ تحتوي أبناءها..

ما يحدث غير منطقي..

بالقرب منه رأى أحد الأموات يبدو أنه دفن حديثًا.. وجهه لم يتعفن بعد لكنه أصبح يابسًا.. الكفن جديد وما زالت رائحته لا بأس بها..

سأله الميت:

- أنت جديد هنا؟

فتح (كمال) فمه ليتكلم لكن راوده إحساس أن الصمت أفضل.

عاد الميت يقول، وهو يشير إلى القبر الذي بجواره:

- أنا ساكن هنا.

ثم أشار إلى قبرٍ آخر حديث البناء:

- وابنك هيسكن جنبي هنا.

***

(الدويس)

بعد انصراف (عبده) ظل (الحاج محروس) بمفرده في النادي يفكر في اللاشيء..

أجفل حين سمع صوت زمجرة تأتي من وراء أحد الأبواب.. زمجرة ليست آدمية أو حتى حيوانية.. كانت فقط مرعبة جدًّا.. سرعان ما تحولت إلى صراخٍ هائل يزلزل القلوب..

أسرع ووضع أحد المقاعد وراء الباب بزاوية 45 درجة وتناول هراوة صغيرة كانت موجودة واستعد ليدافع بها عن نفسه ضد الخطر القادم..

(الدويس) تتجسد أمامه فجأة.. صرخ:

- انتي لسه مموتيش.

قفز من مكانه وجرى ناحية النافذة ثم فتحها بسرعة وهو يتعمد ألا ينظر خلفه..

ألقى بنفسه من النافذة فسقط على الأرض سقطة غير قوية، لم تصبه بأذى..

كانت عربته المرسيدس على مسافةٍ ليست بالبعيدة عنه..

فقط عشرون خطوة بالكثير وسيصل إليها..

أوشك كثيرًا على الوصول..

سمع سقوط شيءٍ ما يرتطم بالأرض خلفه.. التفتت بسرعة فوجد (الدويس) تتقدم نحوه..

صرخ وهو يتراجع:

- أنا ماليش ذنب.. أنا...

قطع جملته حين تعثر فجأة، فسقط على الأرض، وغار وجهه في الطين..

نظر إلى الشيء الذي تعثر به.. كانت جثة (عبده) ممزقة تمامًا..

صرخ في ارتياعٍ حين أمسكته (الدويس) من عنقه..

مدت إصبعها داخل فمه وراحت تعبث في أسنانه كأنها تقوم بعدها، ثم أمسكت لسانه وانتزعته من حلقه!

بعد دقائق قليلة كانت قد قتلت (محروس) بطريقةٍ وحشية، لدرجة أن العظم كان يخرج من بين الجلد.

***

(محمد)

اسـتيقظ (كمـال) مـفزوعًا والعـرق يغمـر وجـهه وصـدره بسـبب الكابوس البشع الذي رآه..

لم يجد (عايدة) بجواره على الفراش.. فستان زفافها ملقى على الأرض.. تحسس مكانها.. ما زال مكانها دافئًا..

بأعلى صوته ناداها.. لكنها لم تجب.. صدى صوته يتكرر مرارًا وتكرارًا..

لديه هاجس يحفر في رأسه، أن (الدويس) لم تمت..

قفز من مكانه وجرى.. كان حافي القدمين ومع ذلك كان لوقع خطواته وقع الطبل..

وصل إلى غرفة (محمد) وأضاء الأنوار..

شهق مما رآه..

(الدويس) عادت لتنتقم منه أشد انتقام.

***

الدكتور (ياسر)

خـرج (كرتونـة) من مبنى الوحـدة الصـحية بمفرده وهـو مرتبـك جدًا.. كان يمسك في يده اليمنى هاتف الدكتور (ياسر) ويلتفت

دودة الكتب الحرامية

حول نفسه يمينًا ويسارًا.

***

(عايدة)

احترقت أعصاب (كمال) حين رأى فراش (محمد) خاويًا.. فجأة سمع أنينًا مكتومًا يأتي من الطابق العلوي..

تجاوز الردهة ثم صعد الدرج..

تتبع مصدر الأنين حتى وصل إلى غرفةٍ بابها مغلق، ومعلق عليه دمية بلاستيكية صغيرة..

دفع الباب بكتفه ودخل..

كانت الغرفة مبللة زلقة، وجدرانها سوداء تتراقص فوقها ظلال رمادية صنعتها أضواء شمعة تذوب في بطء..

وسط الغرفة، كانت (الدويس) تقف وأسفل قدميها (محمد) فاقد الوعي..

ومن بين الظلال خرجت (عايدة) وهي ترتدي عباءة سوداء.

***

استبق (كرتونة) الريح، هو يحاول الوصول إلى (كمال).. حاول الاتصال به أكثر من مرة عن طريق هاتف الدكتور (ياسر) لكنه لم يرد.. كان يريد إخباره أن (عايدة) هي ابنة الغجرية.. نعم ابنتها وليس ابنها.. الجميع اعتقد أنها ولد بسبب ملابسها ومظهرها الذي

تعمدت من خلاله الغجرية أن تخدع به الناس كي تحميها من أفكارهم المريضة.. لم يتم كشف حقيقتها كفتاةٍ إلا في الملجأ بعد توقيع الكشف الطبي عليها.. أعطوها اسمًا عشوائيًا.. (عايدة).

الإيميل الذي وصل للدكتور (ياسر) والذي كشف السر، به صور ضوئية لـ (عايدة) وهي في فترة المراهقة.. صحيح أن الصور يتجاوز عمرها العشرة أعوام، لكن الملامح كانت واضحة جدًا.

الآن (كرتونة) يحاول الوصول إلى منزل (كمال) من أجل إنقاذه، فهل سيجد الوقت الكافي؟

***

لا بد أن مدة ليست بالطويلة مضت و(كمال) متجمد في مكانه ينقل بصره بين (الدويس، وعايدة، ومحمد)..

الشمعة أوشكت على الفناء..

قالت (عايدة) وهي تخرج خنجرًا معقوفًا من طيات ملابسها وتنحني نحو (محمد):

- أنا آسفة.

- ارجوكي بلاش تأذيه، خديني انا.

صاحت بندم:

- صدقني مش بإيدي، اللي هي بتختارهم بتقتلهم.

قال بمرارة:

- رجعتيها ليه.. احنا كنا موتناها.

- انتوا مقدرتوش تموتوها.. الدويس مستحيل تموت.

وضعت الخنجر على نحر (محمد) وأردفت:

- مستحيل تموت إلا في حالة واحدة بس.

التفتت لها (الدويس) بحدة، وكأنها فهمت مقصدها، حينما أسرعت (عايدة) تقول:

- إن انا اموت.

صرخت (الدويس)..

أغمدت (عايدة) الخنجر في صدرها..

دخان خرج من صدر (الدويس) في نفس الموضع الذي ضربت فيه (عايدة) نفسها..

سقطت (عايدة) وسقطت (الدويس)..

أسرع (كمال) وحمل (محمدًا) من على الأرض..

وصل (كرتونة) في تلك اللحظة، وهو يلهث من التعب..

شاهد ما حدث..

قالت (عايدة) وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

- سامحنى يا كمال، أنا مكانش قصدي إن محمد يتأذي، سامحني.

ارتخى جسدها وأغمضت عينيها لآخر مرة..

طار من فوقها رماد (الدويس) بعد أن احترقت..

(كمال) حمل (محمدًا) فوق كتفه والحزن ينهش صدره. قال (كرتونة):

- سامحها يا صاحبي، هي كمان كانت مظلومة، أمها ماتت قدام عنيها من غير ذنب عملته.

- صدقني يا كرتونة، مبقتش عارف مين اللي ظلم ومين اللي اتظلم، عمر ما رد الظلم يبقى بالبشاعة دي.

- الحمدلله إنك لحقت محمد وإنه كويس.

- الحمدلله، بس انا خلاص لازم اسيب البلد بعد ما ادفن عايدة، وليا طلب أخير منك، مش عاوز حد يعرف إنها هي اللي كانت السبب في كل اللي حصل.

- متقلقش خالص من ناحية الموضوع ده.

ألقى (كمال) نظرة أخيرة على جثة (عايدة) المسجاة. نظرة يملأها حزن الشفقة على مصيرها، وألم فقدانها.

سأله (كرتونة) وهو يضع يده على كتفه:

- هتروح فين بعد كدا؟

قال (كمال):

- لبلاد الله الواسعة.. هدور على أي مكان ميكونش فيه لا حقد،

ولا حسد، ولا كره، ولا ظلم.

قال (كرتونة):

- تفتكر ممكن تلاقي مكان كدا!

كمال:

- على الأقل هحاول في مكان جديد ميكونش كل حتة فيه تفكرني بعايدة، وبكل الظلم اللي عاشته أو اللي عملته.. عاوز انسى تل العبيد.

***

خاتمة

داخل غرفة يملأها الظلام والصمت سوف نتوقف قليلًا..

نسمع صوت قطرات ماءٍ تتساقط، ويبدو أنها ترتطم بسطحٍ صلب لأن الصوت كان قويًا.. القطرات تتساقط ببطء.. بين كل قطرةٍ والأخرى حوالي عشر ثوانٍ..

نسمع صوت عود ثقابٍ يحتك، ثم يشتعل فجأة، فيبدد بعض الظلام ويصنع دائرة صغيرة من الضوء، يظهر على إثرها وجه امرأةٍ عجوز ممتلئًا بالتجاعيد، ولها أنف معقوف كمنقار الطيور..

تظل العجوز لثوانٍ ممسكة بالعود المشتعل كأنها صنم ثابت لا حياة فيه.. قبل أن يموت العود تقوم بإشعال شمعة لتزداد مساحة الضوء في الغرفة.. تتحرك العجوز إلى أحد الأركان بخطواتٍ مترنحة.. تقترب من خزانة متوسطة الحجم تحتوي على ثلاثة أدراج.. تضع الشمعة فوق الخزانة وتتأكد من أنها لن تسقط.. تفتح الدرج الأخير وتخرج منه حجابًا.. أغلقت الدرج ثم حملت الشمعة بيدها اليمنى والحجاب في يدها اليسرى..

سارت إلى الأمام بنفس الخطوات المترنحة..

على مسافةٍ ظهرت منضدة خشبية مسجى فوقها جثة (عايدة)..

كان يحيط بالجثة أربعة أشخاص طوال القامة.. ليسوا من البشر لكن من الجن.. لهم قرون صغيرة.. عيونهم سوداء تمامًا لا يوجد بها بياض.. أجسادهم عارية.. أعضاؤهم التناسلية مطموسة.. لهم ذيول قصيرة مدببة.

بجوار جثة (عايدة) كان يوجد إبريق نحاسي ممتلئًا عن آخره بالماء.. كانت قطرات ماء تخرج من الإبريق ثم تطير في الهواء إلى الأعلى عكس قانون الجاذبية وترتطم بالسقف..

نحاول أن نفهم كيف يحدث ذلك قبل أن نكتشف أن قطرات الماء لا ترتطم بالسقف لكن بالأرض..

المشهد كان مقلوبًا بالكامل..

الجن والعجوز وجثة (عايدة) كلهم موجودون على السقف.

تقترب العجوز من المنضدة..

تنظر إلى جثة (عايدة) والجرح الغائر في منتصف صدرها..

تتحسس الوجه الميت الخالي من الروح.. بارد كالثلج..

مدت العجوز يدها وحاولت فتح الفم.. كان الفك متخشبًا..

استجمعت قوتها..

نسمع صوت تباعد الفكين عن بعضهما البعض، يشبه أنين مريضٍ في لحظاته الأخيرة..

وضعت العجوز الحجاب داخل فم (عايدة) وأطبقته جيدًا..

أخرجت إبرة ملتوية وخيطًا، وبدأت في حياكة الشفتين ببعضهما البعض بطريقةٍ معينة.. صنعت 13 غرزة..

حين انتهت قصت الخيط المتبقي..

الأشخاص الأربعة الذين ينتمون إلى الجن، بدأوا في التراجع إلى الوراء..

ركعت العجوز على الأرض في إجلال..

اهتزت المنضدة بقوة..

حضرت روح (الدويس) داخل جسد (عايدة)..

ثم نهضت.



2018

